المركز القومى للترجمة

بخارى تحترق

تأليف

ياووز بهادر أوغلو (نيازى برنجى)

ترجمة

عبد العزيز محمد عوض الله

1399

الإبداع القصصى

بخارى تحترق

رواية تاريخية

تأليف

ياووز بهادر أوغلو (نيازى برنجى)

ترجمة

عبد العزيز محمد عوض الله

2009

المحتويات

- المقدمة: 7
- القسم الأول: 31
- القسم الثانى: 47
- القسم الثالث: 111
- القسم الرابع: 167
- القسم الخامس: 237
- القسم السادس: 257
- القسم السابع: 275
- القسم الثامن: 287
- القسم التاسع: 307
- القسم العاشر: 339
- القسم الحادى عشر: 359
- القسم الثانى عشر: 391

مقدمة المترجم

تقع هذه الرواية في مجلدين من القطع الصغير، وقد أوصت وزارة التعليم القومي والشباب والرياضة التركية بنشر الأول بقرارها رقم ٢٠٥٨ في ١٩٨٧/٤/٢١، وبنشر الثاني بقرارها رقم ٢١٨٨ في ١٩٨٨/٥/٢٠.

وهما من منشورات دار النشر التركية (يكي آسيا يايınلري).

والمجلد الأول يحمل عنوان (بخارى تحترق) وهو في ٢٢١ صفحة. والكتاب الذي بين أيدينا هو الطبعة الحادية عشرة الصادرة في استانبول عام ١٩٨٣، أما المجلد الثاني فهو بعنوان (وداعًا بخارى) وهو في ٢٧٢ صفحة. والكتاب الذي بين أيدينا هو الطبعة العاشرة الصادرة في استانبول عام ١٩٨٨.

المؤلف:

مؤلف هذه الرواية هو (نيازي برنجي) Nıyazı Birinci، أما (ياوز بهادر أوغلي) Yavuz BAHADIROĞLU فهو الاسم المستعار الذي نشر به العديد من مؤلفاته، بالإضافة إلى عدد آخر من الأسماء المستعارة نشر بها مؤلفات أخرى. ويرجع السبب الأساسي في هذا إلى رغبة الكاتب في إخفاء شخصيته حتى لا تلاحقه السلطات - في الماضي - بسبب آرائه التي تميل إلى تغليب الوازع الديني في أعماله المختلفة.

ولد عام١٩٤٥م في قرية (حصارلى) Hisarlı التابعة لقضاء (ريزه) Rize فى الأناضول والذى يُطلق عليه أيضًا (بازار) Pazar.

بدأ الكاتب فى تأليف القصص والحكايات وهو فى مرحلة التعليم الإعدادي، ثم التحق بصحيفة (إستانبول) عام١٩٧١، وقام بكتابة الدراسات والتحليلات كما نشر الكثير من التحقيقات الصحفية فى موضوعات متعددة. أما أعماله الأولى فى مجال الإبداع الأدبى فكانت رواية بعنوان (سونكور أوغلى) - ثلاثة مجلدات - وهى عبارة عن رواية تاريخية تحكى قصة بناء الدولة العثمانية والصعاب التى وقفت فى طريقها. ونظرًا لاستقبال الأتراك لهذه الرواية استقبالاً حسنًا، فإنه تابع التأليف فى هذا المجال وأبدع الكثير من الروايات التى تعتمد على الأحداث التاريخية، مع التركيز على استيعاب العبر من الأحداث المختلفة التى مرت بالعالم الإسلامي.

وفى هذا الخصوص فإن الكاتب يرى أن مقولة (التاريخ يكرر نفسه) لا يجب أن تسود فى العالم الإسلامى لأنه مالم نأخذ العبر من أحداث التاريخ فسوف نقع فى نفس الأخطاء التى وقع فيها أجدادنا، وبهذا يكون التاريخ مكررًا.

ولأن الكاتب يتعامل مع الكتابة على أنها "خدمة وواجب؛ "فقد وجدت كتاباته صدى قويًا بين القراء، وصار خلال فترة قصيرة من الزمن من بين أكثر الكتاب الذين يقرأ الأتراك لهم فى ميدان الأدب، وصارت مؤلفاته من أكثر المؤلفات الأدبية رواجًا بين الأتراك.

وقد وصل عدد الروايات التى ألفها إلى أكثر من ثلاثين رواية، أما الكتب التى كتبها للأطفال فقد تخطى عددها المائة. وللكاتب أيضًا عدد من القصص والمسرحيات والسير الذاتية لمشاهير السلاطين الأتراك منهم عثمان غازى، أورخان، مراد الأول، بايزيد الصاعقة، محمد جلبى. وقد دعى المؤلف إلى مايقرب من مائة مؤتمر وندوة داخل تركيا وخارجها، وشارك فيها جميعًا بأبحاث فى موضوعات مختلفة. كما أنه حصل على العديد من الجوائز فى التأليف من تركيا ومن بلاد أخرى. كذلك أذاعت له الإذاعة التركية عددًا كبيرًا من التمثيليات التى كان قد ألفها. أما عن المقالات والحطايات والتعليقات والتحليلات التى نشرها فى وسائل الإعلام التركية، فلا يمكن حصرها بسهولة.

كما أن العديد من رواياته صدرت قرارات حكومية بشأنها لكى تنشر وتدرس على طلبة المدارس فى تركيا.

ومن أهم مؤلفاته فى القصة والرواية:

جلبى محمد (السلطان) – طوركود ألب – صباح يوم جمعة فى ملاذكرد – السير فى الفراغ – القرم تبكى دمًا – وثبة فى السجن مراد الرابع – السلطنة التى لا صاحب لها. وله عدد كبير من الروايات التاريخية الأخرى، منها رواية عن صلاح الدين الأيوبى وروايتين عن بخارى.

بالإضافة إلى كتبه فى التاريخ العثمانى، وفى تاريخ تركيا، وفى الدراسات الإسلامية، هذا فضلاً عن مقالاته وكتبه للأطفال.

أما أثره الفكرى، فكان بعنوان: الغرب ونحن، وقد صدر فى عام ١٩٧٧ بتوقيع "ويسل بيكار"

وجهة نظر الكاتب فى الفن:

ولكاتبنا وجهة نظر فى الفن، نرى من المفيد أن نعرض لها هنا فى شىء من الإيجاز. فالكاتب يرى أن الفن ليس من أجل الفن، أو لأجل هذا أو ذاك، وإنما يجب أن يكون من أجل الإيمان.

وعنده فإن نجاح الفنان يقاس بمدى قدرته على تقريب الناس إلى الفن الذى هو "أزلى وخالد".

والرواية عنده بمثابة "نسيج الكانفاه" وعليها يتم "شغل الأفكار ووجهات النظر" كما أنها الساحة التى تتصارع فيها الأفكار بقسوة وضراوة.

وكاتب الرواية فى كثير من الأحيان نقاش النسيج الذى ينسج أفكاره بالخيوط الملونة فوق نسيج "الكانفاه" وفى أحيان أخرى هو محارب يفتح النيران باستمرار من خلال كلماته قذائف وطلقات.

أما وظيفة الفنان فى رأى كاتبنا فهى البحث فى جوهر المجتمع، والغوص فى أعماقه، والعثور على ذروة الحقائق وتقديمها

واضحة ومباشرة. وسوف يكون ميراثًا محترمًا لو أن الكاتب قد توخى أن يكون الهدف المرسوم أمامه هو خدمة الحق "سبحانه وتعالى" والحقيقة. وأن يكون القلم هو الوسيلة لإظهار التقدير الإلهي، وأن يكون العمل الأدبى أو الفنى هو الإثبات والإظهار للحق والصلاح والعدل والجمال.

وربما كان هذا هو السبب فى أنه يختار قصصه ورواياته من خلال الأحداث الحقيقية، وتكون معظم شخصياته مختارة من بين الناس الحقيقيين، حتى يعالج المشاكل ما أمكن... ونمثل لذلك برواية "السير فى الفراغ" التى يبدأها بقوله:

إننا كأمة نعيش أيامًا صعبة، فبذور الشر الى زرعت بالأمس أينعت الآن وحان للأسف قطف ثمارها. لقد سطا السيف على مكان القلم، وحلت الدماء محل المداد. صارت المدارس مذابح، وتلطخت الشوارع بالأوساخ. باختصار، نحن نعيش أيامًا صعبة وقاسية.

ومهمة الفن فى الأيام الصعبة الإحاطة بالحق والصدق وتوجيه المجتمع إليه، والعثور على الجمال وسط القبح، والأخذ بيد الشباب الغارق فى بحار الدماء، وتحويل سلاحه مرة أخرى إلى قلم، باختصار، إزهاق الروح إلى قتال فكرى... والسير فى الفراغ، هى نتاج لتلك الاختلاجات. إن كل شخص فى الرواية هو واحد منا، فرد من أفراد مجتمعنا. إنهم ممثلون للغرق فى دوامة الفكر والرأى أو

حتى لعدم الفكر، إن السير فى الفراغ هى قصة فى واقع الأمر، ولكنها فى الوقت ذاته هى صورة للحياة.

ولأن الحياة بها الكثير من الأحداث العظام والتى لا يعتبر منها الإنسان، فهو يركز دائمًا على توجيه أنظار الناس إلى خطورة إغضاء الطرف عن تجارب الآخرين والاستفادة منها، ولذلك فإنه يرى أنه ما دام الإنسان لا يستفيد من أحداث الماضى ومن تجارب غيره، فستظل الحياة فوضى واضطراب يختلط فيها الحابل بالنابل كما يقولون... وربما من أجل ذلك ألف رواية تنصب أهدافها فى هذا الإطار وهى رواية "الفوضى"... والتى ينهيها بتلك العبارة البليغة، فى صورة ملحوظة بقلمه هو، يقول فيها:

ملحوظة... إن "الفوضى" لم تنته بعد، ذلك لأن الحياة نفسها مستمرة... أى أننا نلمس هنا ميل الكاتب إلى التشاؤم، لأن الإنسان هو الإنسان فى كل زمان ومكان.

وفى النهاية نذكر أنه عندما طلب منه أن يشرح مسيرة حياته الأدبية بشىء من الاختصار، فإنه أجاب على ذلك فى شىء من الشمولية والعموم، من خلال جملة تضمنت كلمات أربع، وهي:

قرأت، ثم قرأت، ثم قرأت، ثم كتبت رواية "بخارى تحترق"

بطل هذه الرواية، والشخصية الرئيسة فيها، هو السلطان "علاء الدين محمد بن تكش بن محمد الملقب بخوارزم شاه"، الذى ورث دولة قوية ووصلت فى عهده إلى أوج قوتها، كما انتهت هذه الدولة فى عهده أيضًا على يد "جنكيز خان". ويرجع أصل هذه الدولة إلى "محمد أنوشتكين" الذى كان رجلاً طموحًا ذا همة عالية فحظى عند السلطان "سنجر" - آخر سلاطين الدولة السلجوقية القوية - فجعله واليًا على منطقة سجستان فلقب من يومها بخوارزم شاه أى سلطان أو ملك خوارزم (وتقع الآن فى جمهورية أوزبكستان الإسلامية) وعرف بكرمه وبحبه للعدل وانشغل بنشره بين الناس حتى أحبوه، ومات سنة ٥٢١هـ وخلفه ولده "أتسز" الذى فكر فى الاستقلال عن السلاجقة ودخل فى حروب طويلة مع السلطان "سنجر"، واستعان فى ذلك بقبائل القراخطاي، وانتصروا على سنجر وأسروه خمس سنوات، وغلبوا أتسز نفسه الذى دخل فى طاعتهم خوفًا منهم وشعر بفداحة فعلته وندم أشد الندم على الاستعانة بهؤلاء. ومات أتسز سنة ٥٥٢ هـ فخلفه ولده "أرسلان" الذى انقرضت فى عهده دولة السلاجقة تمامًا ووسع هو مملكته ولكن أخاه "تكش" نازعه الملك واستولى عليه منه سنة ٥٨٩هـ، ودخل تكش فى حروب طويلة مع جيرانه من الغوريين "دولة مسلمة قوية لها أعظم الفضل فى نشر الإسلام فى الهند وباكستان وأفغانستان". وكرر نفس غلطة أبيه واستعان بالقراخطاى على الغوريين ولكن "شهاب الدين الغوري"

وهو من أعظم أبطال المسلمين كسره كسرة عظيمة ومات تكش سنة ٥٩٦هـ وخلفه ابنه علاء الدين محمد صاحبنا بطل هذه الرواية.

كان "علاء الدين" رجلاً طموحًا نشيطًا سريع الحركة، والذى كان يهمه هو توسيع ملكه بأى وسيلة، فاستعان بالقراخطاى واصطدم مع الغوريين وألحق بهم هزيمة منكرة أزالت دولتهم تقريبًا واحتل عاصمتهم 'غزنة فى أفغانستان حاليًا' واتسعت أملاك علاء الدين جدًا حتى أصبح هو السلطان على كل البلاد الممتدة من حدود الصين شرقًا إلى العراق غربًا. وأدى اتساع ملك علاء الدين إلى أن يقف على حدود دولة المغول الحديثة التى وحد رايتها جنكيز خان.

كما أدى اتساع أملاك دولة الخوارزميين وسلطانهم علاء الدين إلى طمعه فى أن يحل محل سلاطين السلاجقة على منابر بغداد فطلب من الخليفة العباسى وقتها "الناصر بالله" - وكان على شاكلة علاء الدين فى الطموح والهمة وأيضًا فى التآمر والخداع والقسوة- فرفض الناصر ذلك المطلب وكان لا يضيره لو وافق، ثم تمادى الناصر فى ذلك فهجم بجيوشه على إقليم الجبال وهو من ضمن أملاك علاء الدين واحتله فأدى هذا لاندلاع ثورة علاء الدين وبدأ صراع طويل بين الرجلين.

استطاع علاء الدين استعادة ما فقده فى إقليم الجبال وبدلاً من أن يصطلح مع الخليفة ويتفقا فيما بينهما خاصة أن خطر المغول بدأ

يظهر فى الأفق عندما أسقط جنكيز خان إمبراطورية الصين وهزم ملكها وان ين سيون سنة ٦١١هـ واستولى على بكين وأرسل علاء الدين رسولاً من عنده يتأكد من ذلك وجاءه الرسول بحقيقة الأمر وقوة المغول، وبدلاً من أن يلتفت لهذا العدو الجديد، التفت للخليفة الناصر، وأعد علاء الدين جيشًا جرارًا وهدفه إزالة دولة بنى العباس من الوجود واختار رجلاً علويًا من تبريز اسمه علاء الملك ونصبه خليفة وسار علاء الدين بنفسه إلى بغداد ولكن الله عز وجل أرسل عليه وعلى جيشه رياحًا شديدة وثلوجًا طوال أربعين ليلة مزقت جيشه فعاد خاسرًا إلى بلاده وتغير عزمه عن فتح بغداد.

ورغم شجاعة علاء الدين وإيمانه بالإسلام وميله للعلم والعلماء وبنائه المدارس فإنه كان ينتهج الغاية تبرر الوسيلة، فاستعان بالمرتزقة والنهابين وطلاب الدنيا وهؤلاء لا يعتمد عليهم إلا عند الرغبة أما عند الرهبة والغلبة فهم أول من يفر ويهرب، كما انتشرت فى عهده المظالم واختل الأمن وأضحت البلاد أبعد ما تكون عن تعاليم الإسلام.

فى ذات الوقت، كان جنكيز خان يسمح بالحرية الدينية للمسلمين فى البلاد التى فتحها من الصين وغيرها. وفى سنة ٦١٥هـ أرسل وفدًا من ثلاثة تجار مسلمين بهدية إلى علاء الدين ومعهم رسالة يقول فيها "ولدنا الحبيب إلى قلوبنا" وهى عبارة معناها أن علاء الدين قد أصبح من أتباع جنكيز خان فأنف علاء الدين من

ذلك وأخذته حمية الإسلام أن يكون تابعًا لهذا الكافر المشرك ولكنه أرسل مع التجار هدايا عظيمة استبشر بها جنكيز خان وظن أن علاء الدين قد صار من أتباعه واستمرت التجار تتردد بين البلدين آمنين مطمئنين.

فى نفس السنة وقعت حادثة ربما كانت السبب المباشر فى وقوع الكارثة المروعة، حيث سافرت مجموعة من التجار التتر إلى مدينة "أترار "من أملاك خوارزم وعلى هذه المدينة واليًا كان من ألد أعداء جنكيز خان حيث كان من ملوك الصين القدامى الذين دمر ملكهم جنكيز خان فظن هذا الوالى أن الفرصة قد جاءته للنيل من جنكيز خان فقبض عليهم وكانوا حوالى ٤٠٠ رجل، وأرسل إلى علاء الدين يقول له إن هؤلاء التجار جواسيس لجنكيز خان فأمر علاء الدين بقتلهم وأخذ أموالهم، فلما علم جنكيز خان بالأمر أرسل إلى علاء الدين يطلب منه تسليمه هذا الوالى ليقتص منه. ولكن علاء الدين لم يأبه بطلبه بل وأمر بقتل كبير الوفد وحلق لحى الباقين وعندها استشاط جنكيز خان غضبًا وقرر مهاجمة علاء الدين.

وإزاء ذلك قام علاء الدين بإعداد جيوشه وقرر مهاجمة التتار فى أرضهم. وكان جنكيز خان قد جمع جيوشه وتوجه للقضاء على تمرد أحد ملوك الصين المتمردين فهجم علاء الدين على بلاد التتر ولم يكن بها سوى النساء والأطفال فأخذهم علاء الدين سبايا ولكن فرقة من التتار عادت إلى ديارهم فوجدوا نساءهم وعيالهم قد وقعوا

أسارى فى يد علاء الدين فأسرعوا حتى لحقوا علاء الدين ومن معه ودارت حرب طاحنة استمرت ثلاثة أيام ولم ينتصر علاء الدين على تلك الفرقة الوحيدة القليلة وعلم علاء الدين أن له يومًا ضروسًا إذا تحرك عليه جنكيز خان فعاد مسرعًا إلى بلاده وأمر سكان مدن بخارى وسمرقند وغيرهما بالجلاء عنها أو تحصينها خوفًا من التتار.

عاد جنكيز خان من الصين وقاد جيوشه وهجم على بلاد المسلمين يحطمها بلدًا تلو الآخر يسفكون الدماء ويغتصبون النساء ويحرقون الجوامع ويدمرون كل شئ فى طريقهم.

ورغم شجاعة علاء الدين وإيمانه بالإسلام وميله للعلم والعلماء وبنائه المدارس فإنه كان ينتهج الغاية تبرر الوسيلة، فاستعان بالمرتزقة والنهابين وطلاب الدنيا وهؤلاء لا يعتمد عليهم إلا عند الرغبة أما عند الرهبة والغلبة فهم أول من يفر ويهرب. ولذلك فإن جيوشه لم تكن بالقليلة، ولكنهم كانوا مرعوبين من التتار متنافرين يقودهم مجموعة من النهابين والمرتزقة الذين يريدون الغنائم والدنيا، أما الصمود أمام الكفار أو الدفاع عن الإسلام فليس هم بذلك النوع الذين يريدون الآخرة.

فر علاء الدين وترك بلاده ودياره وهو يفكر فى أن ينظم جيوشه مرة أخرى ولكن جنكيز خان أرسل فرقة من التتر اختارها من أشد رجاله وقال لهم عليكم بعلاء الدين آتونى به ولو تعلق

بالسماء فسارت وراءه من بلد لآخر وهو يهرب ولم يصدق الناس وقتها أن الأسد القاسى الهصور علاء الدين أصبح مثل الفار المذعور يهرب من بلد لآخر خوفا من التتر الذين استولوا على معظم بلاده حتى ألجأوه لأن يفر إلى جزيرة نائية فى بحر قزوين فى قلعة هناك يحاصره المرض والهم والغم والحزن الشديد وبخاصة أن أمه تركان خان وأولاده وعياله قد وقعوا أسارى فى يد التتار وقتل جنكيز خان عياله الصغار وأخذ نساءه وفرقهم سبايا وأزواج على قواده وأبنائه فأصاب علاء الدين من الحزن الشديد ما انفطر معه قلبه وانصدع من ضياع كل شئ فمات فى ١٣ شوال سنة ٦١٧هـ.

من تاريخ بخارى:

"بخارى" - كما يصفها الجوينى - من البلاد الشرقية قبة الإسلام، وتعتبر مدينة السلام فى تلك النواحى والأنحاء. ازدان سوادها ببياض نور علمائها وفقهائها، وزينت أطرافها وجملت بطرف المعاني.

وقد ظلت "بخارى" لفترات طويلة مقصد أهل العلم والعلماء، يأتى إليها القاصى والدانى ليدرس فى مدارسها ويتتلمذ على يد علمائها الكبار الذين طبقت شهرتهم الآفاق، من أمثال: إمام المحدثين "محمد بن إسماعيل البخاري" (١٩٤-٢٥٦هـ) والإمام البيضاوى (٦٨١هـ- ١٢٨٢ م)... وغيرهما من علماء الظاهر والباطن. وكذا

المؤرخ "النرشخي" (٨٩٩- ٩٥٩م) والشاعر "الرودكي" من سمرقند (٨٨٨- ٩٤١م) والطبيب الرياضى الموسوعى الشهير "ابن سينا" (٩٨٠ – ١٠٣٧م)... لذا، فقد استحقت أن يقترن اسمها بالشرف، وأن يطلق عليها لأزمان طويلة اسم "بخارى الشريفة".

ومن المرجح أن تكون قد تأسست فى هذا الإقليم العديد من المدن منذ أقدم العصور. ففى عصر "الإسكندر الأكبر" كانت هنالك مدينة أخرى على المجرى الأسفل لنهر "زرفشان" غير "سمرقند" "مارقند" . ومن غير المعروف إن كانت هذه هى "بخارى" أم لا.

وفى المصادر الصينية الصادرة فى القرن الخامس، فإن مكان "بخارى" هذا كان ينطق "نومى" المأخوذ من "نوميخس" أو "بوميخس". واستخدام اسم "بخارى "للمرة الأولى من قبل الرحالة الصينى" هوانج – تسانج "وذلك فى نحو عام ٦٣٠ كان "يو- ها".

وفى أصل تسمية المدينة بهذا الاسم آراء عديدة، نذكر منها: رأى يقول إن الكلمة الأصلية هي "ويهارا" فى السنسكريتية، ثم تحورت فى العربية والتركية إلى هذا الشكل "بخارى" والذى هو تحوير مشتق من كلمة "بخارى" وربما يكون قد أطلق على هذه المدينة ذلك الاسم بسبب وجود مدينة أخرى وهى "ويهارا" أو "مانستر" فى منطقة "نوميخس" القديمة.

وفى رأى آخر، فإن "بخارى" مشتقة من "بخار" وهى تعرف بلغة "المغان": مجمع العلم. وهذا اللفظ بلغة الأويغوريين والخطاى عبدة الأصنام والأوثان قريب من هذا المعنى، فهم يطلقون على معابدهم التى تضم الأصنام كلمة "بخار"، وكان اسم المدينة وقت إنشائها "بمجكث".

وفى رأى ثالث مؤيد لسابقه، فإن "بخارى" اسم طورانى أطلق على المدينة الإيرانية القديمة "جموكت"، ذلك لأن "بخار" لا يزال حتى اليوم علمًا مغوليًا على المعبد أو الدير البوذي.

ويفهم من العبارة المكتوبة على النقود بالشكل التالي: (Pwy، r ywb) إن اللغة المحلية كانت "الصغدية"، ويؤيد هذا قول "إبن حوقل" إن أهل بخارى كانوا يتحدثون اللغتين: الصغدية والفارسية، وكان هذا أثرًا لتكوين الإيرانيين مستعمرة لهم فى هذه المنطقة قبل الإسلام.

وعلى أية حال، فإن تاريخ بخارى يبدأ فى الوضوح بعد الفتح الإسلامى لإقليم ماوراء النهر، حيث بدأت تأخذ هذه المدينة شهرتها.

ويروى "ياقوت" (معجم البلدان: ١ / ٣٥٤) إن رسولنا الكريم (صلى الله عليه وسلم) كان قد بشر فى حديث شريف بفتح "بخارى". وعند قدوم المسلمين إلى هذه المنطقة، كان حاكم المدينة يعرف بـ "بخار خدات" أو "بخار خدا" بمعنى "صاحب بخارى".

وكان الفتح الإسلامى لها فى عام ٥٤ هـ / ٦٧٤ م، من قبل "عبيد الله بن زياد" والى خراسان من قبل "معاوية بن أبى سفيان". وكان يحكم المدينة فى تلك الأثناء "بيدون خاتون" . وطبقًا للمعاهدة التى عقدت معها، كان عليها أن تقدم فى كل عام مليون درهم وألفى محارب. وبعد عامين من تلك المعاهدة لم يستمر الحكم الإسلامى بالرغم من إحراز النصر من قبل الوالي "سعيد بن عثمان". وبمرور الوقت أخذت المدينة فى الابتعاد عن سيطرة المسلمين، ولكن فى أعقاب الحروب التى جرت فى الفترة من ٨٧ - ٩٠ هـ / ٧٠٦ - ٧٠٩م بقيادة "قتيبة بن مسلم" انكسرت المقاومة التى أبداها المتحالفون الأتراك فى تلك النواحى مع شعب بخارى، واستوطن المدينة حامية عسكرية من العرب لحفظها من أى خطر يتهددها.

وهكذا فقد غزا المسلمون بخارى ثلاث مرات، ولكن أهلها كانوا يرتدون إلى عقيدتهم القديمة عقب رحيل الغزاة عنهم فى كل مرة. ولكن فى المرة الرابعة كان الوضع مختلفًا. لقد استقبل الأهالى الفاتحين ومعهم تعاليم دينهم - تلك التعاليم التى قوبلت أول الأمر بمعارضة شديدة - ثم أقبل القوم من بعد ذلك عليها فى غيرة شديدة حتى لترى الإسلام الذى أخذ شأنه اليوم (١٨٧٣م) يضعف فى جهات آسيا الأخرى، وقد غدا اليوم فى بخارى على الصورة التى كان عليها أيام الخلفاء الراشدين.

وقد أسلم الحاكم الذى تولى أمر بخارى فيما بعد، وهو "طغشاده". وبعد أن استمر فى الحكم ثلاثين عامًا، قتل من قبل شخصية من الأشراف فى معسكر "نصر بن سيار" والى خراسان. وجرى ذلك فى سمرقند فى رمضان من عام ١٢١هـ (أغسطس ٧٣٩ م). وتولى ابنه "قتيبة" أمر البلاد. وقد كسب تقدير المسلمين الأوائل. وفى عام ١٣٣ هـ (٧٥٠-٥١ م) تمرد "شريك بن شيخ "ضد العباسيين، وتمكن "بخار خدات" بمساعدة "زياد بن صالح" قائد قوات "أبى مسلم "من أن يخمد حركة العصيان تلك. ولكن "قتيبة" قتل بعد ذلك بعدة سنوات بواسطة "أبى مسلم "وذلك لمسئوليته فى إضعاف السلام فى إقليم بخارى. كما أعدم خليفته وشقيقه "بنياد" بتهمة مناصرة "المقنع" الذى كان من الزنادقة فى عصر الخليفة المهدي.

وحين غزا "حسين بن طاهر" أمير "خوارزم" هذا الإقليم عام ٢٥٩ هـ / ٨٧٢م فإنه أعمل السلب والنهب فى بخارى كلها، فاستنجد فريق من أعيان المدينة بنصر السامانى فى سمرقند على ما نصح لهم به "عبيد الله الفقيه" وكان من العلماء المرموقين. وسير "نصر" أخاه "إسماعيل" إليهم، وفعلاً دخل بخارى لتصبح بعد ذلك فى حوزة السامانيين وتجرى الخطبة فيها باسم "نصر" بدلاً من "يعقوب ابن الليث" الصفاري. وكان ذلك فى غرة رمضان من عام ٢٦٠هـ.

وعندما هزم "إسماعيل" "عمر بن الليث" فى عام ٢٨٧ هـ / ٩٠٠ م، فإنه اعترف به أميرًا على خراسان من قبل الخليفة العباسي.

وفى ظله صارت المدينة مركزًا لدولة كبيرة وغنية (هى الدولة السامانية). وفى تلك الأثناء عاشت المدينة أزهى فترات حياتها التاريخية، فقد جمعت الأدباء والشعراء بأعداد كبيرة، وذلك لما كان يقوم به الحكام فى العصر السامانى بحماية للعلماء والأدباء والشعراء... ومن بين هؤلاء نذكر من تربوا فى عهد "نصر بن أحمد الثاني" (٩١٤/٩٤٣ م): أبو الحسن اللحام، أبو محمد بن مطران، أبو جعفر بن عباس بن حسن أبو محمد بن أبى السياب، أبو نصر الخرسمي، أبو نصر الظريفي، رجاء بن والد الأصفهاني، على ابن هارون الشيباني، أبو إسحاق الفارسي، أبو قاسم الدينوري، أبو على الزوزني.

وفى عام ١١٨٢ م قام خوارزم شاه "علاء الدين تكش بن أيل أرسلان" بتنظيم حرب على "بخارى". وأثناء تمرد شعبى بدأه الشيعة فى عام ٦٠٤ هـ / ١٢٠٧ م قامت عائلة "برهان" الحاكمة باللجوء إلى القره خطاى. وقد حكم المدينة لفترة قصيرة واحد من الحرفيين يسمى "سنجر ملك". وفى نفس العام دخلت المدينة تحت إدارة "علاء الدين" شاه الخوارزمي. وقد تم إصلاح القلعة من قبله كما أمر بإنشاء المزيد من المبانى الجديدة. واستمرت سلطة الخوارزميين مدة من الزمن. وفى عام ٦١٤ هـ / ١٢١٧-١٨ م، أنهى "علاء الدين "قراء الخطبة فى بخارى باسم الخليفة العباسي "الناصر لدين الله.

وكانت "بخارى" من أوائل المدن فى إقليم ما وراء النهر التى استولى عليها المغول بقيادة "جنكيز خان". وقد دخلت جيوش المغول المدينة فى ٤ من ذى الحجة عام ٦١٦ هـ / ١٠ فبراير ١٢٢٠ م. أما قلعتها فقد استسلمت بعد مقاومة دامت اثنى عشر يومًا. وقد قاوم المدافعون عنها دفاعًا مجيدًا. وملخص ذلك أنه بعد أن نفد صبر "جنكيز خان "من الاستيلاء عليها، أمر بإشعال النيران فى المدينة. ولما كانت أبنية المدينة أغلبها من الخشب، لم تمض أيام قليلة حتى تحولت كلها إلى رماد. اللهم إلا بعض مساجد وقصور مبنية بالحجارة ظلت قائمة بين خرابها وانقلبت هذه المدينة العامرة إلى كومة من الأطلال على زرفشان. ومع هذا فقد ظلت الحامية بالقلعة تدافع عنها ببسالة جديرة بالإعجاب. وعمد المغول إلى كافة الوسائل الممكنة لإخضاع ملاذ أعدائهم الأخير هذا، حتى دفعوا بالبخاريين أنفسهم إلى تسلق سلالم الأسوار، ولكن لم يجدهم كل ذلك فتيلاً. ولم تسقط القلعة إلا بعد امتلاء الخندق المحيط بها بجيف الرحال والدواب. هنالك سيق المدافعون الأبطال إلى الموت. وتعرض السكان المسالمون بدورهم إلى البلاء بسبب هذه المقاومة الفذة، فقتل منهم ثلاثون ألفًا واسترق من بقى منهم، خاصتهم وعامتهم على السواء، إلا الطاعنين فى السن منهم. وهكذا انتهى حال أهل بخارى إلى أحط درجات البؤس والشقاء وفرقوا فى الأرض وهم الذين ذاع صيتهم زمنًا طويلاً بما كانوا عليه من كلف بالثقافة وشغف بالفنون وما شاع

عنهم من مكارم الأخلاق. وأفلتت قلة قليلة من السكان من هذا الخراب الشامل. وبلغ واحد من هؤلاء فى فراره "خراسان"، وحين سأله الناس هناك عما صار إليه أمر مدينته، أجابهم عن ذلك بأن أنشد هذا البيت البليغ من الشعر الفارسى الذى اشتهر من ذلك الوقت:

آمدند و كندند وسوختند .. وكشتند و بروند ورفتند

(جاءوا فدمروا وحرقوا، وقتلوا ونهبوا ثم رحلوا)

وبالرغم من كل ذلك، فإن المدينة سرعان ما نهضت من كبوتها مرة أخرى.

وفى عصر إمارة "جغطاى" والتيموريين"(١٣٧٠-١٥٠٠) لم تلعب مقاطعة بخارى دورًا هامًا فى الحياة السياسية. وكان الحدث الهام الذى حدث فى تلك الفترة هو قيام الطريقة النقشبندية التى أسسها "بهاء الدين النقشبندي" (ت٧٩١ هـ / ١٣٨٩ م). وقد أمضى "بهاء الدين" حياته فى بخارى وما جاورها. ومقبرته التى صارت مزارًا توجد فى "قصر عارفان" وهو المكان الذى كان قد ولد فيه. وكان "محمد بن محمد حافظ البخارى "المشهور باسم "الحاج محمد بارصا "(ت ٨٢٢هـ/١٤١٩ م) - والذى كان أحد مريديه - ذا نفوذ قوى فى بخارى. ومن المحتمل أن تكون الطريقة النقشبندية بقيادته قد لعبت دورًا هامًا فى الحياة السياسية لآسيا الوسطى آنذاك.

وأعتبارًا من القرن العاشر الهجرى (السادس عشر الميلادي) زاد الأوزبك الذين كانوا يسيطرون على المدينة آنذاك من علاقاتهم بالروس. وفى عام ١١٥٣ هـ/١٧٤٧م استولى الحاكم الصفوى "نادر شاه" على بخارى. وبعد موت كل من "أبى الغيض خان" و"نادر شاه" (١٧٤٧) سعت المدينة للحصول على استقلالها. وتم إعلان الأتالق "محمد إبراهيم خان" - وهو من قبائل المنغيت - حاكمًا، وحل الحاكم الألعوبة الذى كان من عائلة "جان أوغوللرى" التى تستوطن بخارى. واكتفى "دانيار بك" الذى حل محله بلقب "آتالق" فقط (يعنى بلغة آسيا الوسطى القائد أو الزعيم). ثم استبدل ابنه "مراد معصوم شاه" لقب "خان" بلقب "أمير" فى عام ١١٩٩ هـ/١٧٨٥م. وفى تلك الأثناء استوطن هنالك مجموعة من الأوزبك والشيعة الإيرانيين والتركمان الذين كانوا قد هاجروا من إقليم "خوارزم". وأصبحت بخارى مرة أخرى أكبر مركز للفنون اليدوية فى آسيا الوسطى.

وكان حيدر (١٨٠٠-١٨٢٦م) - الذى حل محل "مراد معصوم شاه" - رجلاً غاية فى التدين. وقام فى عهده بحماية المؤسسات الدينية الإسلامية. كما أصدر قانونًا تشريعيًا للبلاد. وأعفى شعبها من الضرائب. وكان هو آخر شخص من حكام بخارى يصك النقود باسمه. أما "نصر الله" الذى حل محله (١٨٢٦-١٨٦٠م) فقد قام بتقوية مكانته فى مواجهة الأشراف. وزاد من توسيع صلاحياته

الإدارية. وتصور المصادر المحلية والأوربية هذا الحاكم بأنه "فظ غليظ متعطش لسفك الدماء". وفى عهده تم تأسيس جيش دائم للبلاد.

وفى الفترة التى اعتلى فيها "مظفر الدين" (١٨٦٠-١٨٨٥م) العرش خلفاً لنصر الله، كان الروس يقومون باستيطان بلاد ما وراء النهر بصورة مضطردة وثابتة. وبعد هزيمة "مظفر الدين" من الروس لمرات عديدة، فإنه تخلى عن البحث عن حق فى وادى نهر سيحون (سيردريا) الذى كان محتلاً من قبل هؤلاء. وقام الروس فى عام (١٨٨٦م) بالاستيلاء على بعض البلاد التى تتبع بخارى. ولكن فى عام ١٨٧٣م كانت قد قامت بالتوسع فى خانية بخارى باتجاه الغرب وذلك على حساب خانات خيوه. وفى عصر "عبد الأحد" (١٨٨٥-١٩١٠م) تم القبول بأن يكون نهر (بنج) حدًا فاصلاً بين خانية بخارى وأفغانستان، وذلك من خلال معاهدة أبرمت بين بخارى وروسيا. وفى عام ١٨٨٧م تم إنشاء خط سكة حديدية على أراضى الإمارة، ولكن محطة بخارى كانت على بعد ١٦كم من المدينة، وذلك فى المكان الذى يسمى اليوم بـــ (قاكان). وتم كذلك إسكان الروس بشكل سريع جدًا على طول الخط الحديدى وسواحل نهر (جيحون) حتى إنه فى عام ١٩١٤م كان ما لا يقل عن خمسين ألفًا من الروس يسكنون خانية بخارى. وفى عام ١٩١٠م أصبح "مير عالم" ابن "عبد الأحد" أميرًا على بخارى. و"مير عالم" الذى تلقى تعليمه فى "لينجراد" (سانت بطرسبرج) هرب إلى أفغانستان بعد الثورة

البلشيفية فى عام ١٩١٧م، وتوفى هناك. وقد تمسك الجنود السوفييت الذين كان يقودهم "ف.أ. قولسوف" باحتلال بخارى فى مارس عام ١٩١٨م، ولكنهم اضطروا إلى الانسحاب بعد سلب ونهب للمدينة استمر يومًا ونصف اليوم. وفى نهاية أغسطس ١٩٢٠م تم استبعاد "عالم خان "آخر أمير للمدينة من العرش بعد احتلال الجيش الأحمر للمدينة. وفى ٦ أكتوبر من عام ١٩٢٠م ألغيت خانية بخارى.

وبعد الاحتلال الشيوعى صارت بخارى إحدى مدن جمهورية أوزبكستان السوفيتية الاشتراكية.

وقد استمرت المقاومة المسلحة التى كانت قد بدأت ضد الإدارة السوفيتية حتى عام ١٩٢٦م، مع أن حكومة بخارى كانت بأكملها تحت سيطرة الروس فى نهاية عام ١٩٢٣م. وفى أكتوبر من عام ١٩٢٤م ألغيت الحكومة، وأدخل جزء كبير من أراضى بخارى إلى جمهورية أوزبكستان السوفيتية الاشتراكية التى كانت قد تشكلت آنذاك حديثًا. وكان خروج بخارى من كونها عاصمة قد ترك أثرًا سلبيًا على المدينة. وبسبب الحروب كان الأهالى يتركون المدينة إلى مناطق أخرى. ومن ذلك أنه فى عام ١٩٢٦م قل عدد السكان إلى ٨٣٩,٤١ نسمة، حيث إن جزءًا كبيرًا من أهل المدينة كان قد فر إلى مدن أوزبكستان، وإلى الأراضى القفراء، وبقية منهم ذهبوا إلى أفغانستان. كما أن البعض الآخر اضطر إلى الهجرة خلال الثلاثينيات والأربعينيات بسبب ضغوط كثيرة مورست ضدهم. ولكن عدد

السكان أظهر تزايدًا سريعًا فى المدينة بعد الحرب العالمية الثانية. فبينما كان عدد السكان ٥٠ ألف نسمة فى عام ١٩٣٩م، فإنهم وصلوا إلى ٦٩ ألف نسمة فى عام ١٩٦٩م. وفى عام ١٩٧٠م ارتفع العدد إلى ١١٢ ألف نسمة. أما فى يومنا هذا فقد تخطى عددهم المائتى ألف نسمة.

والذى تملكه بخارى اليوم من تاريخها العريق هو وجود مدرسة "مير عرب"، تلك المدرسة التى تعد واحدة من المدرستين اللتين خرجتا رجال الدين المسلمين فى الاتحاد السوفيتى (الأخرى فى طشقند). أما خاصية كونها مركزا للعلم والثقافة التى كانت تتمتع بها على كل مدن آسيا الوسطى، فقد تخلت عنها الآن لتنتقل إلى "طشقند" و"سمرقند".

وسكان بخارى اليوم خليط من الأوزبك، التركمان، القيرغيز، القازاق، التتار، الأويغور، التاجيك، الروس، القوقاز، الأوكران، واليهود.

القسم الأول

غابة من الأشجار الكثيفة الممتدة حتى حدود صحراء "قره قوم" كانت تتدثر برداء من الصمت العميق، ومن آن لآخر يمزق هذا الصمت الرهيب صوت بومة تنعب أو ابن آوى يصيح، وأحيانًا يسمع صوت ذئب يعوي.

لقد هجم الشتاء مبكرًا على منطقة "قرا قوم" الواقعة فى إقليم "خوارزم". وترى الأرض وقد اكتست بطبقة من الجليد الرقيق. وبالقطع فإن ضوء القمر الذى يسطع يجعل من المكان منظرًا مجدولاً باللون الفضي، تلعب فيه أضواء الصحراء.

وفى تلك الأثناء يسير فارس وقد ترك عنان فرسه ليدس يديه فى ردائه. لابد وأن من يسير فى مثل هذا الجو بغرض الصيد يكون به مس من الجنون، لأنه يحطم نفسه بنفسه.

قال الرجل لنفسه: لابد من أن أجد ملجأ، وإلا فإن هذا الجليد سوف يستقر عليّ حتى الصباح وتتجمد أطرافي.

وبالرغم من أنه يعرف المكان جيدًا، لم يكن على ثقة بأنه سوف يصل إلى مكان مناسب للاحتماء به. ومع الأسف، فإنه لوكان قد استمع إلى كلام "جلال الدين" لما كان قد خرج قط للصيد. ويبدو أن فضوله قد غلبه على هذا النحو. لقد كان يحب الصيد حتى الثمالة.

فعلى حين كان "جلال الدين" يسعى إلى إثنائه عن عزمه للخروج إلى الصيد، فإن صاحبنا سعى بكل ما يمكن مستخدمًا كل وسائل الإقناع لكي يأتي معه. وقد انفصل عن المجموعة حينما لاحت أمامه ماعز برى فأسرع خلفها لاصطيادها. ولكن الجوتكدر فجأة، ونزل الثلج على المكان. وحين عاد لم يجد للصحاب أى أثر. إن الثلوج التى هطلت للتو كانت كافية لمحو كل أثر بما افترشت به الأرض حتى لم يعد فى الإمكان الوصول إلى سواء السبيل. وبالإضافة إلى هذا، فإن الليل كان قد أرخى سدوله على المكان. وعلى ذلك فقد كان لا حيلة له سوى أن يسلك الطريق وحده. ولو أن الحظ سوف يواتيه، فإنه بالتأكيد سوف يجد مغارة يحتمى بها، ويتخلص من هذا الصقيع وذاك الجوع الذى ألم به.

كان ينظر إلى السماء. ووجد أن القمر الذى ما إن بدا بعض الشىء حتى غلبته بعض السحب التى تجمعت للتو حتى تحجبه. وفى أطرافه كانت النجوم المتناثرة تتلألأ مع بريق وبياض الثلوج. وهنا قال فى نفسه: "بالرغم من كل شىء، فإننى سوف أجعل منها ليلة جميلة حتى مع هذا البرد الذى يجمد الأشياء"،

وإلى جانب الحصان كان يسير كلب صيد، وكأنه يبتسم بفتور ويقول لنفسه: ألست تفكر فيما أفكر فيه يا "بايدر"؟ ألست تشعر بالبرد مثلى تمامًا.. ها؟ إن لك ذيل يحميك من البرد. من حق الله عليك أن تشكره عليه. وإلا ماذا سيكون عليه حالك إذا صرت مثلنا، وترتعد من شدة البرد ولا شىء يحميك؟

ونبح الكلب وكأنما فهم ما قاله له صاحبه.

إنه كلب كان قد أهداه له أحد التركمان المسنين، والذى كان قد خلصه من أسر عصابة من الـ "كيتاى" قبل ذلك بعامين. لم يكن هنالك من شىء يقال حول أنه كان سيساق إلى الصيد. وحتى فى أفضل الأحوال لم يكن صاحبه ليخرجه معه ليستخدمه كحيوان للصيد. والحقيقة أنه كان فى غاية الذكاء. لقد كان يفهم مايريد صاحبه فى التو بمجرد أن يسمع نغمة صوته أويشاهد تعبيرات وجهه. ومن ثم يتصرف على هذا الأساس.

- هل تعبت يا "بايدار"؟

فنبح الكلب وهو يهز رأسه إلى أعلى وأسفل لكى يعلن أنه لم يكن سعيدًا من أحواله تلك، ثم بدأ فى الاسترخاء. ولم يتمكن الفارس من إعطاء تفسير لهذا من قبل. ولم يكن "بايدار "يسترخى فى مكان فارغ، بل كانت هنالك من الأشياء التى تحيط به. ربما تكون من البشر وربما تكون من الحيوانات. كلا إنها لم تكن بشرًا. "إنه فى غابة عظيمة كتلك وفى مثل ذلك الوقت من الليل، فضلاً عن شتاء قارس كهذا عن أى شىء يبحث الإنسان؟ على أية حال إنه يمكن أن يكون ذئبًا أو ابن آوى أوشىء من هذا القبيل".

كان الفارس قد بدأ ينزلق فى مواطن الخطأ. لقد كان هنالك ثلاثة أشخاص يتعقبونه لمدة نصف ساعة. كان الثلاثة من الأشقياء

الخطرين اثنان مترجلان والثالث يمتطى صهوة جواد. كانوا على وشك أن يستولوا على حصانه وحذائه. وقفوا ينتظرون لمدة نصف ساعة من أجل أن يتأكدوا تمامًا ما إذا كان بمفرده أم أنه مع آخرين. والآن تأكدوا تمامًا. لقد عرفوا أنه يمكنهم أن يستولوا الآن على حصانه وحذائه بسهولة. ولوأنه كان متعقلاً لم يكن لينهض فى مواجهتهم. إنه فى اللحظة التى كان سينهض فيها، سوف ينقضون عليه ويستولون على حصانه وحذائه، فضلاً عن إزهاق روحه.

-هيبيه! "قالها وهويصيح فى وجه رئيس العصابة.

- "انحن قليلاً"...

ونبح الكلب بمرارة أكثر، فى حين اهتز الفارس. وبينما هويمسك بلجام الفرس بيده اليسرى كان يهز سيفه بيده اليمنى.

- من أنت؟

وتحرك حتى أصبح أمامه تمامًا:

- نحن أصحاب هذه الغابة.

فسأل الفارس مرة أخرى دون أن يفقد شيئًا من برودته:

- قل لى ما اسمك؟

- صارى لاكود. وهذا صديقى "بايتو"، وذاك صديقى العزيز "فورنجه" .

- ها... تبًا لهؤلاء الأشقياء، ماذا تريد؟

- أريد الحصان أولاً ثم حذاءك، ومن ثم تخلص نفسك من الهلاك.

فأطلق الفارس ضحكة عالية ثم قال:

- أأنت الذى تحفظ لى حياتي، أنت يا ابن آوى هذه الغابة، فلأحطمنك إذن.

- ها أنت قد جلبت لنفسك الهلكة.

وعلى الفور تحرك الأشقياء الثلاثة - الفارس والمترجلان - بين الأشجار. ووثب الصياد. وأغمض عينيه قليلاً، وانتفخت أوداجه، فكان عليه أولاً وأخيرًا أن يواجه الموقف. وما إن لمح الاثنين من الأشقياء اللذين كانا مترجلين حتى ارتاحت نفسه كثيرًا، وسحب سيفه بعيدًا.

- يبدو أنكم حسنو الطالع. اقتربوا ولننظر فى الأمر.

وفى البداية وقف أمام الفارس، وقال له:

- كأنك ما سمعت باسمى أيها الشاب! وإلا فإنك كنت ستموت من الخوف وكان عليك الذهاب من هنا.

- لا لقد سمعت باسمك كثيرًا، ولكن يعرف أن صوت الطبل يصل خشنًا إلى أماكن بعيدة. ومنه نعرف أن العديد من الأبطال يقطن هاهنا.

- إذا كان الأمر كذلك، فلتحمها إذن!

- تعال.

ونزع قطعتين من الحديد بقوة. وتناهى صوت طنين في الغابة. وفى نفس اللحظة فهم الخصمان أنهما ليسا مسلحين بدرجة يمكن أن تصغر من قدرهما. وهنا قال "صارى لاگود":

- لا يبدو عليكما السوء.

- أنت أيضًا تبدو طيبًا، وعلى هذا أعود إلى شأني. فلتخبر الرجال بالأمر ولتكن واضحًا وصريحًا. إننى أنفر من الغش والخداع.

- أنت تخطىء، لدينا عرف توارثناه. على حين يتشاجر أحدهم، يتفرج الآخرون. واحد لواحد...

- هناك طريق شريف للغاية بالنسبة للأشقياء.

- فى أى شىء تفكر. هيا قل...

- أنت تأمل فى لا شىء. وأنا لدى من الأصول ما يتوافق مع طبعي. إننى أنتظر الغدر من عدوى فى كل لحظة وحين.

- احترس.

ومرة أخرى تتصادم السيوف، ولكنها لم تفترق فى هذه المرة. واستمروا فى التضارب بحركات فنية. وكان اثنان من الأشقياء يتفرجون فى ناحية. فقال أحدهم:

- إنه فى هذه المرة قد وجد لقمة سائغة تليق بأفواهنا. كم من وقت كان يتذمر من عدم تمكنه من القتال بسبب مذاق الفم هذا؟

توجد فكرة أصيلة بهذا الخصوص، وهى أنه يبك فى غالب الأمر. لوكان الصينيون يولون عليهم رئيسًا للقواد لكان هو- ذلك الحاكم - بالتأكيد. ولكن فى أرض الخوارزميين لا يعرفوا قدر الناس.

- انظر انظر.

كان ضوء القمر يتلألأ على أسنة السيوف الحادة. وكان خصم "صارى لاگود" قد وقع فى موقف صعب. وكان هذان الشقيان لديهما رغبة فى التطفل إلى حد ما.

- نحن الذين سنغلب فى غالب الأمر.

تلك الأمور لا تكون واضحة تمامًا أبدًا. ولكننى أقع فى حيرة إن هو لم يكسب. ليس لدينا من يمكنه استخدام السيف باقتدار مثله.

- يا...

- انظر الآن، انظر يا أنت:

- لا تثيرنى يا أنت، ها أنا أنظر.

كانت الحرب تشتد شيئًا فشيئًا. وفى هذه المرة كان "صارى لاگود" ضاغطًا. وكان يهزأ من الآخر قائلاً له:

- هل انتهيت يا أهون الأشقياء؟.

- مع أنك تنهار من فوق حصانك لكن يمكنك القول برافو...

- أقول، فلا تنزعج. فأنا لست الذى يتدحرج من على حصانه.

- أتظن أنك كذلك؟

- بالتأكيد أنا أعرف ذلك. فأنت حينما تتعب تبدل نفسك بأحد أصدقائك، هيه ماذا تقول أليس الأمر كذلك؟

- إننى لا أتعب من منازلتك.

وعلى هذا النحو بدأ يأخذ نفسه. كان "بايدار" يحفر الأرض. فقد كان فى انتظار الأمر من صاحبه. ولكن صاحبه كان يقول له من آن لآخر "اسكت" لكى لا يتدخل. ولكن عقله لم يكن ليستوعب هذا. وكل ما أمكنه فعله أنه وقف يكشر عن أنيابه وهو ينظر إلى الشقيين الذين كانا يتفرجان، وفى بعض الأحيان كان ينصب أذنيه لأعلى.

- ألا ترى كلب الصيد هذا، كيف ينظر إلينا بهذا الشكل؟

- أتقول كلب صيد؟ الواقع أنه فى الغالب لا يشبهه قط.

- إذن هوكلب خليط بالذئاب على أية حال.

- ممكن.

- انتبه يا "لاكود"!

ولكن كان وقت التنبيه قد ولى. لقد طار سيف "لاكود "من يده، وسقط على بعد خمسة أقدام.

- واى.. قالها وهويحاول أن يجد فرصة للصياح. ثم عاد إلى الرجال الذين كانوا قد استعدوا للتدخل. ثم قال:

- قفوا. لقد سمعت عن فارس وحيد ومغوار يعرف هذه اللعبة دون غيره - "تيمور ملك".

ثم حول رأسه مثل البرق صوب عدوه وقال له:

- هل أنت "تيمور ملك"؟

- نعم هو ذاته.

- لماذا لم تخبرنى بذلك منذ البداية؟

- وهل كانت هنالك فرصة لذلك؟ وماذا كانت ستغير من الأمر؟

ولوى "صارى لاگود" عنقه وقال:

- يمكنك أن تقتلنى إذا أردت.

- إن هزيمتك تجعلك تبدو فى موقف محزن. فهز كتفيه وقال:

لماذا أحزن؟ لوكان غالبى هو فارس عادى لكنت قد قتلت نفسى من القهر بكل تأكيد. ولكن إذا كان ذاك هو"تيمور ملك"...

- نعم

- إننى فخور. ودس "تيمور ملك" سيفه فى جرابه وقال:

- إذا أردت فلنأخذ الطريق سويًا. لقد أصابنا الدفء على أى الأحوال. أما أصحابك فليلاعب بعضهم بعضًا لكى يسرى فيهم الدفء إن أرادوا أوليتسابقوا فى الجري.

- إلى أين نحن ذاهبون؟

- نبحث عن مأوى.

- تعال، لنذهب إلى مغارتي. نستدفئ هنالك سريعًا؛ كما يمكننا أن نأخذ قسطًا من الراحة والنوم حتى الصباح.

ولم يتردد "تيمور ملك "أبدًا. وأعلن عن قبوله العرض بإحناء رأسه إلى أسفل. وعادا. وفى الطريق إلى المغارة تحدثا بعض الكلمات المقتضبة وحسب. كان داخل المغارة يشع بالدفئ. وعندما أعاد تأجيج اللهيب زاد الجو حرارة. وانكمشا فى ناحية.

- بيد أنك شاب طيب. فلماذا إذن سلكت طريق المنحدر هذا؟

وهز "صارى لاكود "رأسه، ثم أخذ نفسًا عميقًا، وقال:

- إنها حكاية طويلة. وهى غير جديرة بالشرح؛ لأنها قديمة للغاية...

- وأنا مرة أخرى أريد الإنصات والاستماع إليها.

- حسنًا. إذا كان الأمر كذلك، فسوف أحكي.

وصوب عينيه إلى ألسنة اللهب، وبدأ حكايته قائلاً:

- كنت آنذاك صبيًا فى العاشرة من عمري. وكنا نعيش أنا وأمى وأبى فى كوخ صغير فى أطراف الإستبس. كنا نعيش فى راحة. وكانت لنا حيواناتنا. وكان والدى يخرج للصيد فى أوقات الفراغ.

- وفى ذات يوم نظرنا، فإذ بنا وقد امتلأ الاستبس الذى أمامنا بالخيالة. وجاءوا صوبنا وهم يتصايحون. وقاموا بنزع خيامنا. كما قتلوا والدي. وفروا ومعهم أمى وأخى "بايتو"Baytu الذى كان يصغرنى بخمس سنوات. وأصبحت أواجه مصيرى وحدي.

- من كان هؤلاء الجند ومن كانوا يتبعون؟

- كانوا نوعا ما لم أستطع أن أحددهم. وحتى هذه اللحظة لوتمكنت من التعرف عليهم لكنت قد دفعت وبكل رضا وسرور نصف حياتى ثمنًا لذلك. كانوا فى معظمهم لهم لحى عبارة عن بضع شعيرات على الذقن. كما كان شعرهم فى شكل ضفائر. كما أن هؤلاء لم أرهم مرة أخرى فى حياتي. من أين جاءوا، ومن كان هؤلاء، لم أعلم.

وملأ عينيه من شعلة اللهيب المستعر، ثم توجه إلى "تيمور ملك "وقال:

- لقد عملت فى الخدمة طويلاً. وصرت كبش فداء لتجار القره خطاي، وكذلك لخانات القبجاق. وفى النهاية لم أستطع تحمل

المزيد، فهربت. ولكنهم بسرعة قبضوا علي. وقاموا بربطى فى إحدى أشجار الغابة، وتركونى نهبة للموت. وبعد أن بقيت موثقاً على هذه الحال لمدة ثلاثة أيام بلا طعام أوشراب، خلصنى جند من خوارزم. وأخذونى معهم. وقاموا بتدريبى على الضرب بالسيف والرمى بالحراب.

ثم ابتسم ابتسامة مرة، وتابع:

- وفى يوم من الأيام عقدت العزم وأقسمت على أخذ الثأر لأمي. لقد كان ذلك ينخر فى نفسي، كما كان يطير النوم من عينى فى الليل. وعندما نفد صبرى وانتهت طاقتى عن التحمل، خرجت إلى الطريق من أوركان Urgan. وقطعت الجبال والغابات. وفى النهاية صادفت "بايتو". وكان قد خلص نفسه من بين أيديهم وهم فى طريقهم للهرب.

ثم سعل، وتابع:

- ما أحياه ليس هو الحياة، ولكننى مضطر إلى ذلك. لقد قمت بتكوين حياة خاصة بي. إننى أعيش الحياة وهى تسير بي. ربما كنت أسير فى طريق الخطأ، ولكننى لا حيلة لى فى ذلك. ليست هنالك من حياة مختلفة لى فى تلك الجبال وفى هذه الغابات ويشهد الله على أننى لست آخذ من المظلوم شيئًا. إن عملى مع الأغنياء فقط. وأنا أهاجم القوافل التى تخرج للتجارة، وأقوم بسلبها. ومن

ثم أقوم بتوزيع معظم ما سلبته على الفقراء من الناس. إن الناس يحبونني، كما أننى أحب الناس أيضًا. وليس هنالك من تكلف بيننا. ولا تفكير فى التخلى عن أى منهم.

- حسنًا، فلماذا هاجمتني؟

- كنا فى جماعة كبيرة. وكان عددنا يقارب العشرين. ولكن أحدهم غدر بنا. فأغضب ذلك رجالي، مما جعلهم يأخذون الخيول ويفرون. ولم يتبق لى من شئ سوى هذا الحصان الذى تراه. لقد سعينا فى أثره ساعتين كاملتين. إلى أن رأيتك. وكان يبدو من سرج الحصان ومما عليك من ملابس أنك لست فقيرًا. وبعد أن تأكدنا أنك لوحدك، قمنا بالهجوم.

ثم رفع رأسه، وسأل:

- كيف حال ولى العهد "جلال الدين"؟

فقال "تيمور ملك":

- بخير. فقط هنالك فجوة صغيرة بينه وبين والده. إن والده لا يستصوب تصرفاته وحسب.

مثل ماذا؟ هل أنا أسأل بما يتجاوز حدودي؟، إن كان كذاك، إذن فلتصفح، وإن شئت فلا تجب.

وتحدث "تيمور ملك "وكأنه لم يسمع شيئًا:

- إن والد "جلال الدين" شاه خوارزم "علاء الدين محمد" التف حوله كل القبجاق. أما "جلال الدين" فهو قد ولد لأم من التركمان. والقبجاق لا يستطيعون أن يهضموا التركمان. ولم يتبق سوى القليل حتى يشتعل النزاع.

- وأنت إلى أى جانب تقف؟

- إننى أحب "جلال الدين". كما أن احترامى لوالده لا حد له. ومهما يكن من أمر فقد خاض بنا لسنوات طويلة من نصر إلى نصر. ولكنه فى الآونة الأخيرة تبدل سلوكه وتصرفاته من حال إلى حال. لقد أصبح عصبيًا إلى حد كبير. وصار يقدم على الأفعال التى لم يكن يفعلها من قبل بتأثر من والدته "تركان خاتون". كما أن الشائعات التى تقول بأنه سوف يقوم بعزل "جلال الدين" من ولاية العهد ويعين فى مكانه ابنه الأصغر "أوزلاق شاه" Ozlak Sah المولود من أم قبجاقية، يكدر معدتي.

- وفى هذه الحالة...

فأجاب دون تفكير:

- بالتأكيد سوف يكون مكانى إلى جانب الأمير "جلال الدين". إن "أوزلاق شاه" لا يزال رضيعًا، ولابد لنا من رئيس عاقل يقودنا.

- أنت على حق.

- وأنت ماذا تقول؟

- أنا شقي. لو أنني وقعت فى أيدى سلطان خوارزم أو وقعت فى أيدى أى حاكم آخر فعقوبتى لن تتغير. ستضرب عنقى فى كل الأحوال. ومع ذلك فلست أرغب فى أن أموت قبل أن أنتقم وأثأر لأمي.

- هل هذا هو كل ما فى الأمر مثلاً؟

- وماذا هنالك من شئ آخر؟

- لماذا تكدر نفسك بحادث مر عليه سنوات؟

وتحير "صارى لاكود". لم يكن قد فكر فى مثل هذا مطلقاً. كان كل شئ لديه ينحصر فى الأخذ بالثأر لأمه، فقال:

- لا أعلم.

- نعم إنه حدث وقع منذ سنوات. وما كان قد كان، فما الذى يدعوك لأن تصبح عاصيًا متمردا وتبنى حياتك على الانتقام؟. تعال، ونكتب إلى الجيش فلو كان الحظ حليفك، فمن الممكن أن تجد آنذاك الذين قاموا باختطاف أمك ويقعوا فى يدك. إن هدفك لا يجب أن ينحصر فى كل وقت على الانتقام والأخذ بالثأر وحسب. إنها مشاعر سيئة. صدقنى إن... الإنسان الذى يؤجل ويؤخر فى الأعمال العاقلة، يقع فى البلايا والمصائب، وتسود الدنيا فى ناظريه.

- مثلما تقول دائما...

- لنأخذ قسطاً من النوم إن أردت.

- نعم لنأخذ قسطاً من النوم.

وناما. ووضع كل منهما جذع شجرة صغير تحت رأسه. لم يأخذ "تيمور ملك" البطانية التى كانت فى سرج الحصان. ونام مثل الآخرين دون غطاء. لقد كان مرهقاً. فنام على الفور.

***

القسم الثانى

عندما أعلن عن أن "والدة السلطان" تسير فى الطريق المفروش بالمرمر والذى يمر عبر أشجار الدلب الضخمة وأشجار النخيل ذات الأوراق الكثيفة، فإن كل واحد من أفراد الحراسة أخذ فى الاختباء فى مكان على حدة. وبينما كانت "تركان خاتون "تتجول فى الحديقة الفخمة لقصرها، فانها كانت تنفر من النظر إلى وجه العسكر.

وبالرغم من أنها كانت فى عمر متقدم، فإنها كانت على قدر كبير من الهمة والنشاط. كان وجهها يشبه وجه فتاة من حيث التناسق كما أن بشرة يديها كانت مشدودة. لقد كان واضحا من أحوالها أنها أمضت حياتها وقضت عمرها فى صفاء ونعيم.

لقد كانت تغطى رأسها بإيشارب يشبه الثلج فى بياضه وقد شغل بحبات من الذهب والفضة، وكانت كلما أرادت أن تظهر ملاحتها وظرافتها فإنها كانت تقوم بإسدال إحدى أطرافه من كتفها الأيمن ليصل حتى خاصريها. وأما على قمة رأسها فكان تاج صغير لكنه مصنوع من الذهب المعقد بأحجار غاية فى النفاسة.

وكانت هنالك وصيفتان تسيران على مسافة ثلاث خطوات خلفها وتقومان بحمل أطراف الذنب الطويل للعباءة الفضفاضة

الحمراء اللون والتى كانت تضعها على ظهرها. وعلى بعد خطوة واحدة من الخلف كانت هنالك أيضا الخادمة "كلنهال "وهى تسير من ورائها. وداخل الطاس الذهبية التى لم تكن تفارق صدرها كان ماء الورد الذى كانت تستخدمه "تركان خاتون "بكثرة.

وعندما كانت "تركان خاتون" تمد يديها على حبة ذرة، كانت "كلنهال "تهرول مسرعة، وتمد يديها بالطاس الذهبى وهى تقترب منها. فى حين كانت رائحة جميلة تنتشر من بين الأشجار. وعلى حين كانت شمس الربيع تتسلل من بين أوراق النخيل، كانت جماعات الأوز العراقى يتلألأ ريشها الذهبى وهى تسبح فى الحوض. كانت "تركان خاتون" تدلك جبهتها بماء الورد الذى ينساب على راحتيها، وقد رفعت رأسها إلى أعلى بقدر ما يمكنها وصوبتها نحوالسماء. وبصوت يحمل ذبذبات شرهة، تساءلت:

- وهل هنالك من امرأة غيرى على وجه الأرض تمتلك القوة والمقدرة أكثر منى يا "كلنهال"؟

وكعادتها دائما فى كل وقت، فإن الخادمة أحنت قامتها واستكملت حديثها، وقالت بكل الاحترام:

- لا يوجد يا سلطانتى، ليس هناك فى هذه الدنيا من سلطانة بنفس قدرتك وقوتك!

- بالتأكيد لا توجد، فأنا الأم لسلطان خوارزم.

وفجأة سمع صوت صلصلة مهماز. فخفضت "تركان خاتون" رأسها، وقالت بصوت هامس:

- لابد من أنه ابنى.

والحقيقة أنه بعد قليل دخل شاه خوارزم "علاء الدين محمد" مع معيته وحاشيته. كان على رأسهم فارسان، أحدهما "طونكوج خان" من بكوات وأحرار القيجاق، والآخر "تيمور ملك"...

وما إن رأت "تركان خاتون" "تيمور ملك" حتى اكفهر وجهها، وقالت:

- هذا الشيطان مرة أخرى.

كان السلطان "علاء الدين محمد" يمتطى جوادا رمادى اللون. وكانت هنالك أحجار كريمة على صدر الحصان. كما كانت عدة لجامه هى الأخرى مشغولة بالصرمة الذهبية والفضية. وفى قنزعة. وفى طرفها جوهرة عظيمة تتلألأ.

كان القفطان الذى يرتديه السلطان مصنوعا من الحرير وكان يتموج فى كل حركة يتحركها السلطان. كما كان للسيف مقبض من الذهب ويتلألأ هو الآخر تحت ضوء الشمس.

ومن الخلف سكن الحراس الذين يحملون رماحا طويلة وهدأت حركتهم. وبالرغم من كل شىء فإن "تركان خاتون" كانت تقشعر من

الخوف. ولوكان لدى ابنها معرفة بما تريد عمله، لكان قد أعمل الرماح ورمى بالجثث للكلاب. ولكن لم يكن هنالك أسباب تدعوللخوف. ولوكان هنالك من مشتغل بالمكائد، فإنما تكون هى واالدة السلطان، لقد كان "علاء الدين محمد" يحب والدته كثيرا.

- "سلام عليك يا أمى المحترمة، سلام عليك أيتها الفاضلة، سلام عليك يا سلطانة سيدات العالم".

ولقد كانت "تركان خاتون" فى الحقيقة تتأثر كثيرا من ذلك الصدق والأخلاق ومن إظهار ذلك الحب والتعبير عنه. وقد قامت بانحناءة خفيفة من ركبتيها وقابلت تحية ابنها بالسلام.

- سلام عليك يا سلطان العالم. كم أنا سعيدة ومحظوظة بأن أشعر بشرف أن أكون أما لمثلك يا فاتح العالم. فألف شكر لجناب الحق جل وعلا.

سارا جنبا إلى جنب فى الطريق المرمرى الذى يوجد بين الأشجار، ودخلا سويا إلى القصر.

وعلى الفور اتخذ الحرس وضع الاستعداد على جانبى الباب. وجلس "تيمور ملك" تحت شجرة من الأشجار. أما الخان القبجاقى "طونكوج "فقد ظل قائما بين الحرس.

دخل السلطان "علاء الدين محمد" مع أمه إلى الصالون المفروش بأثاث ثمين. ومالت "تركان خاتون" ناحية ابنها، وقالت:

- تفضل هنا يا سلطان السلاطين، حتى نشرف بتشرفك، وحتى نتعلم من علمك.

وتوجه السلطان صوب أمه، وقال:

- أنا مصغ إلى أمى المحترمة.

- استمع إلى يا شمس الدنيا، استمع جيدا إلى أمك الأرمل المسكين. لقد عشنا أسوأ أيامنا مع والدك. كم كان إنسانا محترما حتى أنه ولد على ظهر الخيل، كما مات على ظهر الخيل. ولكنه مع ذلك ترك لنا دولة عظيمة. رضى الله عنك، فقد زدت من عظمة هذه الدولة. لقد جعلت الأعداء يركعون. كما أنك لويت معاصم لم يكن يظن أنها يمكن أن تنجدل، واحنيت رؤوسا لم يكن يعتقد أنها تنحنى.

وسعى "علاء الدين محمد" جاهدا لكى يحل لغز ما أرادت أمه أن توحى كلماتها به، ولكنه لم يتوصل إلى أية نتيجة.

- لقد صرت الآن سلطانا أوحدا على إقليم خوارزم. ولا يوجد على وجه الأرض سلطان آخر أكبر منك ولا أقوى. ولكن قد يأتى اليوم الذى يظهر فيه من يطمعون فى أخذ هذا البلد من بين يديك. ويجب أخذ الاحتياط والحذر من الآن فى مواجهة هؤلاء.

فانتفض السلطان من مكانه محتدا، وقال:

- من ذاك الذى يجرؤ على أن يصوب بصره على مملكتى؟ لوكانت لديك أية معلومات فلتقولينها على الفور.

فانتفضت أم السلطان هى الأخرى، ووقفت أمام ابنها وقالت:

- لا تغتم يا ولدى فلم يحدث من ذلك شىء حتى الآن. إننى أبحث فيما يمكن أن يحدث فى المستقبل.

- ماذا يمكن أن يحدث؟

- عليك أن تكون أكثر إحساسا وإدراكا من كل شىء يصدر عن أى شخص. إنه واضح لديك. إن عظماء الدولة وعلماءها هم تحت إمرتك. إنهم يحيطونك علما بأشياء كثيرة. أما أنا فإننى مجرد امرأة أرملة مسكينة، ويحيط بى كثير من الجهلة. أحيانا أتذكر أنك إذا لم تحضر فإننى من الممكن أن أنفجر من القلق والضجر.

وحتى السلطان محمد شاه خوارزم كأنه لم يستمع إلى كلماتها، فكرر السؤال:

- هل هنالك من يمد بصره إلى عرشى يا أمى؟

- الآن لا يوجد يا ابنى السلطان، ولكن من الممكن أن يحدث. كن حذرا ممن هم حولك.

- من؟

- الأكثر قربا منك.

إن الأقرب إلى هو ابنى "جلال الدين".

وابتسمت "تركان خاتون" ابتسامة غامضة. وأحنت قامتها، وقالت:

- لا أعلم.

كان الشاه "محمد" يؤمن بحقيقة أن ابنه أصيل ولم يكن فى وقت ما طماعا، حتى أنه يسعى إلى أمر كهذا أو يقدم على خطوة كهذه فى فترة يتمتع فيها بالصحة والعافية، ولكن الفأر كان قد سقط فى صدره.

وها هى "تركان خاتون "قد نبهته إلى هذا الأمر الآن. وتابعت حديثها قائلة:

- يا سلطانى يا صاحب الشوكة. أنت مضطر لأن تستمر سلالتك على حكم إقليم خوارزم. ولقد كان حمل هذا بالأمس يقع على عاتق أبيك. ولقد اجتاز الامتحان بنجاح ورحل عن دنيانا. والآن فإنك على أية حال ليست لديك الرغبة فى تلطيخ تاريخك مستقبلا ببقعة سوداء بمثل إغلاق وإنهاء عصر الشاهات. وعليك فى هذه الحالة أن تستمع إلى، استمع إلى أمك العجوز التى لا تطمح إلى شىء سوى تحقيق الفائدة لك. إن أمك من عائلة "القبجاق". وأنت الآخر من سلالة القبجاق. وإذا كان القبجاق بالأمس قد وقعوا أسرى لنا فإنهم اليوم هم أصدقاء لنا بالكامل. ونحن فى حاجة إلى

أن نحميهم. ومن الطبيعى أنهم هم أيضا سوف يحمون عرشك وتاجك ويفدونك بأرواحهم.

كان السلطان محمد فى وضع لا يمكنه من فهم أى نوع من التفكير الذى تفكر به أمه. كان يظن أن تحت كل كلمة قالتها معان أخرى. ولم يتمكن من حل رموزها، ولم يستطيع أن يسبر غور كلماتها.

- ماذا تريدين أن تقولى يا أماه؟ أرجوأن تتحدثى بصراحة.

- إننى أتحدث بغاية الصراحة، يا بنى يا صاحب الدولة. عليك أن تحمى القبجاق فى مواجهة التركمان حتى يحميك هؤلاء أيضا. إنهم يرغبون فى أن تكون تلك الأرض للخوارزميين للأبد، كما أنهم يريدون أن تزداد مساحة هذه الأراضى، ولتكن باقية إلى الأبد. إنهم صادقون بالنسبة لك ومخلصون، وعليك أنت أيضا أن تضعهم فى الأماكن التى تليق بهم. وعليه فسوف يحمونك. إننى أشعر أنك على وشك أن تقوم برحلة جديدة. فيا أيها الأسد إذا أراد الحصان أن يقفز فمن يستطع أن يقف فى طريقه، ومن المؤكد أن الغزو من حقك. وسوف تصل بجنودك إلى انتصارات عظيمة. إنك الإسكندر الأكبر فى عصرك، بل أنت أكثر منه شوكة وعظمة.

وهز الشاه "محمد" رأسه مصدقا على ما قالته.

- لقد أصبت كبد الحقيقة بما قلته يا أماه...

- من المؤكد أن ما قلته هو الحقيقة بعينها، ولكن لا يمكن التخمين مسبقا بمن سوف تستقدمهم للحرب. ومولاى عز وجل هو وحده الذى يرى ويعرف أين يكون الصواب؟ وليمنحك الله من قوته وليختم حياتك فى ميدان الحرب.

وساد الصمت. وامتعض "علاء الدين محمد" من أمه. لقد توقف عند ما عسى أن يكون هنالك حتى تبحث فيما بعد موته؟ فجأة وصل إلى حالة وكأنه يمسك بيديه برودة الموت. وبدا وكأن ملك الموت يتجول وسط الغرفة.

وقال بصوت بارد:

- نعم.

- منحك الله القوة، ليحيل آلامك إلى. لقد أصبحت نصف ميت بعد وفاة والدك، لو رأيت أنك تتألم لمت تماما.

كانت أمه كلما ذكرت الموت، فإن "علاء الدين محمد" كان يجفل بشكل واضح، وكان يتلفت بقلق وخوف.

وكانت تتحير عندما تتأمله. مالذى حدا به إلى أن يكون هكذا، ماذا حدث لرجل لا يخشى من شىء حتى عندما كان الموت يتراءى أمام عينيه فى الحروب. وعلى أية حال فإن ذاك كان هو حب الحياة. ومهما يكن كان عليه أن يهزم هذا الخوف ويقهره.

وقال وهويجتهد لجمع شتات نفسه:

- استمرى، إننى أستمع إليك يا أماه.

- فى ذاك الوقت سوف يؤول العرش إلى "جلال الدين". "جلال الدين" هذا الذى يتحد مع التركمان ويشعل أتون الفساد. لن أقول إننى قد تحمست كثيرا، ولكن لا شىء يصير من الكلام. والحقيقة أن هناك فائدة فى معرفتك. اعلم أن عليك أن تدبر بما يناسبه. إن أقدس مهمة لنا هى إيقاظ ابننا وتنبيهه... والآن فإننى أتوجه إليك بسؤال سألته لنفسى مئات بل آلاف المرات. ترى، ألا يوجد هنالك من هو أجدر بالقيام بشأن بلادنا من بعدك سوى "جلال الدين"؟

- من هو؟

- ها هنا تكمن مثل تلك المسألة؟ من هو؟ ومن يمكن أن يكون؟ إن من يجيب على تلك التساؤلات هم علماء بلدنا.

وأدخلت يديها فى صدرها، وأخرجت حرزا ملفوفا بالمشمع. وبعد أن فتحته بأنامل مرتعشة. قدمت إلى ابنها خطابا مملوء من أعلاه بمجموعة من الخطوط والكتابات.

- الإجابة من علمائنا ها هنا. اقرأها!..

وتناوله السلطان. ومن ثم ألقى نظرة عليه وأجال بصره فيه.

ثم أخذ يتمتم قائلا: أهكذا؟ أعلى هذا النحو يفكر علماء بلدنا..ها! إنهم يرون أن العرش لا يليق بجلال الدين وإنما يليق بابنى الصغير "قطب الدين أوزلاق شاه". حسنا، فماذا عساى أن أفعل بجلال الدين؟ لقد قمت بتصيبه وليا للعهد منذ حين.

وارتسمت ابتسامة على شفاه المرأة المسنة. لقد أوصلت ابنها إلى وضعية ذابت وتلاشت فيه مقاومته. وقالت:

- إنه شىء سهل وبسيط. يمكنك أن تقوم بتعيينه واليا على إحدى المقاطعات البعيدة. وإذا حدث ذلك فسوف ينتهى. وعلى هذا النحو تتم المهمة. ويتم التخلص من "جلال الدين" الذى بدأ فى إحداث خطر عظيم، وترتاح أنت، وبذلك لا يفر النوم من عينيك فى الليالى.

وتفحص الشاه محمد والدته بإعجاب، فال:

- أماه من أين عرفتى أن النوم يفر من عينى فى الليالى؟

وأجابت "تركان خاتون "بصوت يملؤه الشفقة، فقالت:

- أنا أم يا سلطانى صاحب الشوكة. لا تغفلن عن إحساس الأمومة، وفى ذات الوقت فإننى أم للسلطان. أن تكون امرأة أما للسلطان يفرض ذلك عليها عددا من المسئوليات والالتزامات. وتكون من مهامها الانشغال بكل شىء يتصل بابنها، وحتى ما يتعلق بنومه. ومن مهامى أيضا أن أقوم بحل مسألة فرار النوم من عينيه.

ومن ثم أخذت تسرف فى التهديد من أجل تقوية اقتراحها السابق، وقالت:

- إذا ما قمت بعزل "جلال الدين" عن ولاية العهد، وثبت ابنك الأصغر "قطب الدين أوزلاق" فى مكانه، فلسوف يتحد القيجاق جميعهم، ولسوف يتركون وطنهم. وعليك أن تفكر فىَّ أيضا، فكما تعلم فأنا واحدة منهم، أنا قيجاقية. والله إن الفقراء والمعدمين يتعذبون من ورائه وأنا أسير مضطربة ومشتتة الفكر.

ووقع الشاه محمد فى دوامة من الحيرة والتردد. إن كل شخص يعرف إلى أى مدى يتمتع "جلال الدين" بحسن الكفاءة القتالية. وفى حال القيام بعزله عن ولاية العهد، فسوف يكون من الممكن أن يحرم من مساعدة آلاف من التركمان. وأكثر من ذلك فإن "جلال الدين" من الممكن أن يحشد هؤلاء من خلفه إذا أراد وحتى من الممكن أن يعلن الحرب ضده. إن التركمان فى غاية الشجاعة. ويشهد على ذلك بلاؤهم فى ساحة القتال. أما القبجاق فإنهم يفرون فى حال تغير موازيين القوى وعندما يتعرضون لشدة. ولكن من ناحية أخرى فإن والدته منهم. وهويعرف مدى القوة والنفوذ الواسعيين لهذه السيدة عليهم. إن خانات القبجاق يسرعون بتنفيذ أوامر السلطانة الوالدة وهم مغمضوا العيون.

كانت "تركان خاتون" تقرأ علامات التردد البادية على وجه ابنها. فأسرعت بأخذ الجرس الذهبى الموضوع على الطاولة التى

توجد بجانب العرش وهزته عدة مرات. وعلى الفور دخل أحد الرجال. وكان يمسك بيده طفلا صغيرا يرتدى ثيابا أنيقة ويبدو أنه فى السابعة من العمر. وحضنت "تركان خاتون "الطفل. وذهبت إلى ناحية "محمد "وقالت:

- ها هويا سلطانى! "قطب الدين أوزلاق شاه" ولى عهدك، ألن تحبه؟

وانتفض شاه خوارزم كمن أفاق من حلم. وعندما رأى ابنه الصغير يقف أمامه، كان كمن تحير أوأصابته الدهشة. ومن ثم لملم شتات نفسه وأخذ يداعب الصبى الذى كان بلون الذهب، وقال:

- ما شاء الله، تبدو وكأنك قد كبرت كثيرا.

فابتسمت السلطانة الوالدة، وقالت:

- بالتأكيد، لقد كبر بنى الحبيب بسرعة حيث إنه يعيش تحت رعاية وحماية جدته. ولسوف يكبر بسرعة أكبر بعد أن يصبح وليا للعهد. وفى فترة زمنية قصيرة سوف يصبح على رأس الجيوش. ولسوف يقودهم من خلال إدارته لهم بما يكفى من اللياقة من نصر إلى نصر. وأنت الآخر سوف تمضى البقية الباقية من عمرك على عرشك بكل راحة.

وبدا "محمد" شاه خوارزم وكأنه كبر كثيرا. وبدأ يتحدث دون أن يفكر فى معنى كلامه، وقال:

- إنكِ تقولين الصدق.

وبفرح شديد اتجهت "تركان خاتون" إلى الرجل، وقالت:

- اخرج بسرعة وأعلن أن السلطان "علاء الدين محمد" حاكم إقليم خوارزم وصاحب الشوكة قد عين ابنه الصغير "قطب الدين أوزلاق شاه" وليا للعهد. انطلق وبسرعة...".

وخرج الرجل بسرعة. وظل الشاه محمد يحملق فى وجه أمه. وقد تورمت وانتفخت أوداج "تركان خاتون". فقد انتظرت بكل شغف صوت الرجل الذى أرسلته. ثم غشيها السكون والراحة عندما سمعت:

- أيها الناس، أيها البكوات، أيها الجنود، لا تقولوا سمعنا أم لم نسمع، إن السلطان صاحب الشوكة السلطان "علاء الدين محمد" قد قام بتعيين ابنه الأصغر "قطب الدين أوزلاق شاه" وليا للعهد اعتبارا من هذه الساعة.

ثم سمع صوت جرس صغير. ومن ثم علا صوت المنادى...

- أيها البكوات أيها الجنود أيها الناس، لا تقولوا سمعنا أو لم نسمع...

ولم يستطع "خوارزم شاه محمد" أن يفيق من غفلته سوى عند سماعه لهذا الصوت. لقد نفخ الصوت أذنيه لفترة من الوقت. وبدا وكأنه قد أصابه الذهول. وفتح يديه على الجانبين، وقال متمتما:

- يا للقدر!...

وسار نحوالنافذة. وأزاح الستار ونظر إلى الخارج. كان "تيمور ملك "يقف فى ذهول تحت النافذة.

كان يجول بعينيه حواليه. وكان هنالك حشد من الفرسان القبجاق يبدون من بين الأشجار وهم يقفون أو يتجولون. لقد كانوا جميعهم مسلحين. وكان كل منهم تظله غيمة من الدهشة.

ترى هل هنالك من حيلة أودسية قد حيكت ضده؟ لقد نظر إلى أمه. وكان "أوزلاق شاه" الآن بين أحضانها. لقد أخذته من يديه ووضعته على صدرها بشوق كمن تخشى من أن يأخذوه. ثم أدار بصره صوب الحديقة مرة أخرى.

كان "تيمور ملك" كحجر قد انفلق. كانت ساقاه متوترتين، وثبت ناظريه على فرسان القبجاق. لقد كان بداخله فراغ. كان يثق بأنه بسبب غير معلوم سوف يتغلب على حشد هذا الرجل المنفرد وذاك الجمع من فرسان القبجاق. كان ذاك من قبيل العادة القديمة بالنسبة له. كان "تيمور ملك "يرى أنه وهوبجانبه يبعد كثيرا عن كل الأخطار. ولهذا لم يكن يرغب فى الانفصال أوالابتعاد عنه.

ترى كيف سيواجه قراره الجديد هذا؟ كان يفهم من خلال الاستغراق العميق الذى يبدوعلى وجهه أنه لم يكن مسرورا. ولم يكن من الممكن الانتظار منه أن يكون مسرورا. كان "جلال الدين" من أصدقائه المقربين جدا. ولو قام "جلال الدين" بالتمرد والعصيان،

فترى إلى جانب من سوف يقف "تيمور ملك"؟ لا شك فى أنه كان سيقف إلى جانب "جلال الدين". أزهق الله روح هذا القرار!. لم يكن يعرف من أين أتى على خاطره قرار اختيار تعيين "أوزلاق شاه" وليا للعهد؟. لم يكن وقع اختياره طيبا على نفسه، حتى أنه لم يفكر مطلقا فى مجرد صدور قرار بهذا. ولكن مع الوقت انفتح على المقربين منه. لقد استخدمه كطعم من أجل أن لا يقوم "جلال الدين" ببعض الخروقات. ولكن ها هى أمه لم تستطع القيام بالوقوف ضد أمر واقع. والحاصل أن كل شىء قد وقع وانتهى فى لحظة واحدة.

الآن لا يمكنه التراجع. إن السلطان تخرج من فمه كلمة واحدة. ومهما حدث من شىء فى المستقبل، فإنه صاحب الحق فى أن ينفذ قراره. ولربما جاء الوقت الذى يختار فيه "جلال الدين" مرة أخرى.

ثم عاد إلى أمه بثبات، وقال:

- "تركان خاتون، ما تحقق من شئ على غير رغبتك، والآن هنالك عدد من طلباتى. نادى على خانات القبجاق، ولنتباحث..."

وقامت السيدة العجوز بتناول الجرس الذهبى مرة أخرى وهزته وهى فى حال من الفخر والاعتزاز الذى تولد من استطاعتها التغلب على ابنها. وقالت للرجل الذى دخل وهى تأمره:

- خذ خاناتى إلى الصالون...

وبعد قليل دخل أحرار القبجاق وخاناتهم متهادين متمايلين فى مشيتهم. وسلموا ومن ثم اتخذوا أماكنهم التى أشير إليهم بها. وأسدلت "تركان خاتون "النقاب على وجهها، وظلت هى وابنها واقفين على قدميهما.

وتفحص "السلطان محمد" وجوه الرجال الحاضرين واحدا واحدا. ثم ثبت عينيه على أحد البكوات وهوأكبرهم سنا.

ثم دخل فى الكلام، وقال:

- خانات القبجاق. لقد نفذت لكم رغباتكم. وفى مقابل هذا لدى طلب عندكم. تعلمون أن "الخليفة الناصر" الذى يجلس فى بغداد يحض رعيتى ويحثها على التمرد ضدى دون توقف. كما أنه يثير الاضطرابات على حدودي. وإننى لا أستطيع أن أجد الأمان مع سعيه الدائم بالعداوة مع أمتى وقومى. ولقد تقرر القيام بشن حرب عليه. ويجب علينا أن نحطمه وأن نجد لنا حليفا صادقا. وإلا فإنه لن يكون من الممكن بقاء دولتنا.

ونهض خان القيجاق المسن من مكانه. وبعد أن سعل مرة أو مرتين، دخل فى الكلام بصوت متقطع، وقال:

- إنك على حق يا سلطانى! ولكن خانات القيجاق يفكرون فى أن الأولى هوتخليص بلادنا. إننا نسمع أن جيش "القره خطاى "حول بلادنا إلى خرائب، كما سمعنا بأنهم سبوا نساءنا. إنهم يخربون

مراعينا، ويهدمون بيوتنا، وعليك أن ترسل جيوشك إليهم أولا ليكونوا طوع أيدينا. وعليهم أن يدفعوا هذا البلاء عن وطننا، ومن ثم نذهب إلى أى مكان تشير به علينا.

استمع الجميع إلى هذا الطلب، وقالوا:

- علينا أن نطهر أيدينا أولا، ومن ثم نخرج إلى حرب بغداد.

صك السلطان على أسنانه. وتوجه مرة أخرى نحوالنافذة. وكان فرسان القبجاق مايزالون متزاحمين. والآن لم يكن "تيمور ملك "يرى بين الحشد. فشعر السلطان بالقشعريرة. لقد أصبح الآن محاطا بالأعداء وهوجد وحيد. كانت تلك هى المرة الأولى التى يشعر فبها بمثل هذا الشعور. والواقع أن ذاك هوالحادث فعلا. كان الجنود الذين يقفون فى الخارج ينتظرون أمرا من "تركان خاتون". وبإشارة واحدة كانوا سيهجمون على القصر، وإذا لزم الأمر كانوا سيقودون السلطان من ذراعيه ويسوقونه من أمامهم.

لقد فهم هذا، فنظر إلى الخانات. كانت على وجوههم معانى الإصرار والثبات. فصدق الأمر الواقع مرغما لا حيلة له، وقال:

- حسنا، ليكن ما تريدون ".

فتصايح الخانات جميعا وفى نفس واحد:

- ليعيش سلطان العالم، ليعيش الشاه محمد...

أشارت السلطانة الوالدة إلى كاتبها بإيماءة من رأسها. فنهض الكاتب. وتوجه صوب السلطان. وجعله يمسك القلم بيده، وعرض أمامه ورقة مليئة بمجموعة من الكتابات.

- ما هذا؟

- ذاك هوأمركم الذى أصدرتموه باعتلاء "قطب الدين أوزلاق شاه" عرش السلطنة من بعدكم. لقد دونا أوامركم. وها هو ينتظر توقيعكم.

اصفر لونه. وبدأت يداه ترتعشان. كان قد دخل حينئذ ذاك الطريق الذى لم يكن على باله. وقرأ بطرف عينيه ما هو مسطر فى الكتاب.

سيكون ابنه الأصغر من بعده شاها على خوارزم. وحتى يكبر ستكون "تركان خاتون" الوصية عليه.

كان القلم المصنوع من البوص ينزلق من يده هنا وهناك. ووقع. ثم نفخ فى خاتمه وطبعه فوقه، وختمه. وأعاد الورقة إلى الكاتب. ثم قامت "تركان خاتون" بالتوقيع أيضا. وكتبت تحته ما يلى:

"تركان خاتون سلطانة كل نساء العالم اللائى يعشن على وجه الأرض".

وتفرق المجلس. وانصرف السلطان وخرج وهو فى وضع كمن قد غاب عنه نصفه وكمن يسير وهو نائم. إنه لم يدر بخلده حتى القيام بتوديع أمه. وعندما رآه جميع فرسان القبجاق عند الباب فإنهم بدأوا فى الصياح والقيام بالتظاهرات، مرددين:

- ليعش سلطاننا طويلا!...

- أدام الله دولته!...

- جعل الله سيفه قاطعا!...

ولكن الشاه محمود لم تأخذه تلك الأدعية التى كانت تصدر من طرف اللسان. وامتطى فى وثبة واحدة صهوة جواده المزين والذى كان يمسك به سائسان.

والآن لم يكن هنالك من أثر لـــ "تيمور ملك" بين الموجودين. وسأل "طونكوج" خان القبجاق الذى كان بجانبه:

- أين "تيمور ملك"؟..

فكان الرد بكلمة واحدة:

- لقد ذهب... ".

...

رأى "تيمور ملك" الوضع التى آلت إليه أمور "تركان خاتون" فى القصر، وعندما سمع بعزل "جلال الدين"، ولفترة من الوقت تخبط

وتعثر، وتحير، ولم يكن يدرى ماذا سيفعل ولا ماذا سيقول. ثم ابتسم بمرارة، وبلل شفتيه الجافتين بلسانه، وألقى بنظرة أخرى حواليه. وكان كمن يتمتم فى سره قائلا:

- المتآمرون...

ومن ثم امتطى صهوة جواده، وسار فى طريقه. كان فى نيته أن يذهب إلى "جلال الدين" المتواجد فى القصر الذى يقع فى مدخل المدينة ليراه ويقص عليه ما حدث.

كان الحصان يسير بسرعة غير آبه بالزحام. وفجأة سمع من يناديه باسمه..

- تيمور ملك!...

وكان قد صعد من بين ظلال المنازل وهويسير نحوه...

- من أنت؟

- أنا "صارى لاگود"...

لم يندهش "تيمور ملك" أبدا. كان يعلم أن هذا الشقى ذاالقلب الطيب سوف يأتى إليه يوما ما، ويلتقى معه. فقال له:

- سر بجانبى.

عبرا من الشوارع الضيقة. كان التجار يقومون بمدح بضائعهم بفيض من اللغات والألسنة على المشترين الذين أتوا وتربعوا أمام

المحال. ومن آن لآخر يأتى صوت ديك وهويصيح، وفى أحيان أخرى يقابله صوت كلب ينبح. لم تكن المدينة على علم حتى الآن بخبر تغيير ولى العهد، وإلا لكان من المؤكد أن الفوضى ستعم. وإلا لكانوا كذلك قد احتشدوا وتكدسوا وتجمعوا فى مجموعات وتباحثوا بشأن الموقف الجديد وسعوا إلى إسماع العسكر ذلك.

كان يُسمع صوت تحكمى يصيح قائلا:

- أريد النصف.

عاد، ونظر إلى الناحية التى جاء الصوت منها. وجد ثلاثا من العسكر وقد أخذوا أحد التجار وأحاطوا به وكانوا يصيحون:

- لن نرضى بأقل من نصفه...

وهز "تيمور ملك" رأسه يمينا ويسارا. لقد كان هؤلاء هم الموظفون القائمين على جمع الضرائب للشاه "علاء الدين محمد". ولكن مسألة رغبتهم فى الحصول على نصف البضاعة لم يكن ليستوعبها العقل. وساق حصانه تجاههم. وعندما وصل إليهم توقف، وأخذ يستمع إلى ما يجرى لبعض الوقت...

- بالتأكيد سوف تمنحنا نصفه. إن هذا هو أمر السلطان...

- ثق بأننى لوأعطيتك نصفه سيجوع عيالى كبيرهم وصغيرهم. إننى أعمل بالتجارة لسنوات طويلة، واستخرج منها رزقى، فكيف يصدر السلطان أمرا كهذا؟...

- واى! لقد واتتك الجرأة لأن تقف ضد السلطان... ها!

- حاشا؛ من ذاك الذى يتجرأ عليه؟ فقط أردت أن أقول إن حضرة سلطاننا لا يمكن أن يصدر قرارا كهذا لا يتسع للعدالة.

- واى! أنت وصمت سلطاننا بالظلم.. ها!

- أستغفر الله، لم أقل ظالما. ولكن الحقيقة هى أن السلطان لوكان قد أصدر أمرا كهذا، لكان ذلك هوالظلم بعينه...

- واى!...

رفع الجندى السوط الذى كان فى يده عاليا فى الهواء، وانهال به على وجه التاجر مصدرا صوتا عاليا احتجاجا عليه. ثم رفعه للمرة الثانية، ولكنه لم يتمكن من انزاله فى هذه المرة. لقد أسرع "تيمور ملك" ومد يده وقبض على طرف السوط. فالتفت الجندى بغضب. وصوب عينيه اللتين يطق منهما الشرر إلى "تيمور ملك". وصاح فيه قائلا:

- اتركه وإلا أوسعتك به ضربا.

ثم فجأة رجع إليه صوابه. لقد لاحظ أن ذاك الذى أمامه ما هوإلا أحد البكوات. فأحنى قامته، وقال:

- عفوا سيدى ابن الأصول... لم أستطع أن أتعرف عليك.

أشار "تيمور ملك" إلى التاجر بذقنه، وقال:

- ماذا تريدون من هذا الرجل؟

- نريده أن يدفع الضرائب...

- كم ستأخذون منه؟...

تردد الجندى لحظة، ثم نظر إلى المتجر...

- نصف هذا...

- ما معنى نصفه؟.. من أمركم بهذا.. أى أن تأخذوا نصف البضاعة التى يملكها كل تاجر؟

- سيدنا السلطان.

- أظهر لنا ذاك الأمر!

ودس الجندى يده فى صدره، ومد يده إلى "تيمور ملك" بالورقة التى أخرجها...

- ها هو...

قرأ "تيمور ملك" الورقة بعناية. كان مقيدا بها أن يؤخذ من التجار ضريبة بما يتناسب مع بضائعهم، ولكن لم يكن هنالك من أمر يدور حول أخذ نصفها.

- لم يقل هنا أنه ستؤخذ نصف البضاعة.

- لقد أعطيت لنا الصلاحية...

- ألم تفكر فيما سيفعل هذا الرجل لو أخذت أمواله التى معه؟

- ليس من مهامى التفكير فى مثل تلك الأمور.

- حتى ولوبقى جائعا عاريا؟

- نعم حتى لوبقى جائعًا عاريًا أيضًا.

أدار "تيمور ملك" بصره إلى "صارى لاگود" بيأس وقنوط، وقال:

- عاقبتنا وخيمة يا "لاكود". إن دولة على هذا الوضع لا يمكن أن تقف طويلاً على قدميها.

ثم التفت مرة أخرى إلى الجندى، وقال:

- لا تكن قاس القلب عديم الرحمة. إن الفظاظة وقساوة القلب ليستا من شيم المسلمين. عليك أن تفكر فى أخيك كما تفكر فى نفسك على أقل تقدير.

- إنه ليس أخى حتى أن...

- ياه؟...

- أنا من القبجاق، أما ذاك الرجل فهومن التركمان...

أحس "تيمور ملك" أنه يرتعش. لقد بدأت بذور العداوة التى زرعت بين الأعراق تؤتى نبتها.

رفع من صوته، وقال:

- إننا نعيش على الأرض ذاتها. وحتى لولم يكن هذا، يكفى أنكما مسلمين. إن أخوة الدين هى أقوى من الأخوة الخالصة.

هز الجندى كتفيه. وزم على شفتيه. ونظر إلى التاجر بثبات لكى يظهر له أنه لم يعط لما سمعه أية أهمية.

وفارت الدماء فى دماغ "تيمور ملك"، وزمجر قائلاً:

- أغرب عن وجهى، وإلا سحقتك تحت أقدام فرسى.

انتصب الجندى، وقال:

- أنا عبد السلطان.

- وأنا أيضا عبد لله، وقلت لك سأحطمك!

- ولكنى أتلقى أوامرى من قائدى، وشرط أن يكون هوالآخر من القبجاق.

وفى جذبة من "تيمور ملك "للسوط الذى كان لايزال ممسكًا به من طرفه، أخذه من يد الرجل. وطوح به فى الهواء فى حدة وغضب. وبنفس الحدة انهال به على ظهر الجندى. والتف السوط على الرجل مثل الأفعى.

- انصرف من أمامى، أغرب عن وجهى.

ونظر إلى الجندى بغضب، ومد يده إلى سيفه، وقال:

- الدماء تطهر هذا.

كان يُظن ويُعتقد أن مسألة ضرب "تيمور ملك" لجندى وسط جموع الشعب لن يمر بخير من قائده. وسحب قدمه اليمنى من الركاب. وصوبها بحركة قوية صوب صدر الرجل، وقال:

- صعلوك متشرد...

سقط الرجل على الأرض خائرًا. وفى اللحظة ذاتها ساق "تيمور ملك "حصانه.

وصعدا هو فى المقدمة ومن خلفه "صارى لاگود" إلى حيث يوجد "جلال الدين".

كان الأمير يجلس على أريكة بسيطة، وكان يلاعب صقره. ونظر إلى صديقه بعيون يملؤها التساؤل، وقال:

- إن شاء الله أخبار خير يا "تيمور ملك"...

وصعد "تيمور ملك "وهو يتقدم. ثم ألقى السلام.

- ليكن الخير دائما يا "جلال الدين". ولكننى لم آت هذه المرة بأخبار طيبة.

- من ذاك الذى معك؟

- ها...هذا؟ شقى "قره قوم" المشهور "صارى لاگود"...

- واى!...

- لقد نحا عنا جانبا، ثم انضم إلينا، وأبدى الندم...

- عفا الله وحط عنه ذنوبه...

وجلسوا..

- والآن تكلم يا "تيمور ملك "ولننظر، ماذا لديك من أخبار سيئة؟

أخذ "تيمور ملك" نفسًا عميقًا. ورفع قليلاً من حاجبه الأيمن. وأسند ظهره للخلف، وقال:

- والدك السلطان عزلك عن ولاية العهد.

تحير "جلال الدين" وتعجب. ونظر إلى عينى "تيمور ملك"، وسأل:

- متى؟

- قبل قليل، وأعلن قراره فى قصر السلطانة الوالدة.

فكر "جلال الدين" فترة من الوقت. ومن ثم نظر إلى صديقه وارتسمت على شفتيه ابتسامة خفيفة، وقال:

- من جعله يحل محلنا؟

- أخيك غير الشقيق "قطب الدين أوزلاق شاه"...

- معنى ذلك أن "تركان خاتون "قد وضعت والدى بين راحتيها. ماذا عساى أن أفعل؟ إن هدفنا ليس الموقع أوالمكانة حتى نستاء. هل لنا ما يشغل بالنا سوى خدمة بلدنا وديننا وأمتنا؟. نحن نعلم أنك يا صديقى تناضل كجندى تحت إمرة "أوزلاق شاه " كما ينبغى. كما أننا نناضل سويًا تحت راية والدى...

كان "تيمور ملك" ينظر إليه بتقدير. وقال:

- إن تلك ليست هى المشكلة. إن "أوزلاق شاه" لا يزال صغيرًا للغاية. وأظن أنه حتى ذاك الوقت ستكون الوصاية لتركان خاتون. هل تعلم ماذا يمكن أن يحدث حتى هذا الوقت؟

إننى أخمن. إن كل الدولة تختلط فى أمورها تحت إمرة امرأة، ولن يسر ذلك الجند. وربما يتمرد التركمان. أوتنطلق أبواق خانات القبجاق فى كل أنحاء البلاد.

- فيم تفكر؟

- فيما تفكر فيه... أتمنى أن يكون هذا القرار خيرًا على البلاد. ومع ذلك لا يمكننى أن أفهم. ما هى الفائدة التى رآها والدى السلطان من أجل الإقدام على مثل هذا التغيير؟ وأيضا للخروج إلى الحرب فى يوم الوقفة. علاوة على ذلك، فإنه على حين ترد الأخبار التى تفيد برؤية عدد من المهاجمين ذوى خيول صغيرة على طول الحدود، فإننى لا أستطيع أن أفهم ما هذا العمل.

ولم يجر "تيمور ملك" جوابًا، بل ولم يستطع. لقد أسند رأسه على صدره.

كان يجرى التحرى عن هؤلاء الفرسان صغيرى الحجم كثيرى العدد، كما أنه لم تكن هنالك من فرصة للبحث فى من هم وإلى أى جنس ينتمون. هل كانوا من الأعداء، أم من الأصدقاء؟ وما هومرادهم؟ لم يكونوا يعرفون عن كل هذه شيئًا. وهم سوف يعرفون هذا مع الوقت بكل تأكيد.

ثم توجه الى "صارى لاگود"، وقال:

- وأنت ماذا لديك من أخبار يا "صارى لاگود"؟ قل لنا لننظر فيها.

أجاب "صارى لاگود" باحترام. قائلاً:

- نحن ندعو لك بالصحة يا "تيمور ملك". لقد قلت: إننى سأجدك فى يوم ما. ولقد أودعت كلامك هذا أمانة فى قلبى وأخفيته كشعلة متقدة. كم من الوقت مضى على فراقنا؟ ثلاثة أشهر، ها أنذا قد جئت. وفى انتظار أوامركم. أقسم أنك إذا قلت فلتمت فداء لك ولسلطاننا "جلال الدين" فإننى سوف أفعل.

ولاطفه "تيمور ملك"وهز كتفيه، وقال:

- إننا نشبه بعضنا بعضًا وستكون هنالك فى القريب حاجة ماسة لمن هو مثلك من الأصدقاء الأوفياء. عشت. خدماتك فاقت حدود القبول.

ولم يجر "تيمور ملك" جوابًا، بل ولم يستطع. لقد أسند رأسه على صدره.

كان يجرى التحرى عن هؤلاء الفرسان صغيرى الحجم كثيرى العدد، كما أنه لم تكن هنالك من فرصة للبحث فى من هم وإلى أى جنس ينتمون. هل كانوا من الأعداء، أم من الأصدقاء؟ وما هومرادهم؟ لم يكونوا يعرفون عن كل هذه شيئًا. وهم سوف يعرفون هذا مع الوقت بكل تأكيد.

ثم توجه الى "صارى لاگود"، وقال:

- وأنت ماذا لديك من أخبار يا "صارى لاگود"؟ قل لنا لننظر فيها.

أجاب "صارى لاگود" باحترام. قائلاً:

- نحن ندعو لك بالصحة يا "تيمور ملك". لقد قلت: إننى سأجدك فى يوم ما. ولقد أودعت كلامك هذا أمانة فى قلبى وأخفيته كشعلة متقدة. كم من الوقت مضى على فراقنا؟ ثلاثة أشهر، ها أنذا قد جئت. وفى انتظار أوامركم. أقسم أنك إذا قلت فلتمت فداء لك ولسلطاننا "جلال الدين" فإننى سوف أفعل.

ولاطفه "تيمور ملك"وهز كتفيه، وقال:

- إننا نشبه بعضنا بعضًا وستكون هنالك فى القريب حاجة ماسة لمن هو مثلك من الأصدقاء الأوفياء. عشت. خدماتك فاقت حدود القبول.

ودخل الغرفة واحد من الحراس، وأدى التحية وهويضع يديه على صدره، وقال:

- لقد أرسل السلطان رسولاً، وهويريد "تيمور ملك".

- اذهب يا "تيمور ملك"، إننى لا أضع أية احتمالات بأن يفكر أبى أبدا أى نوع من التفكير السىء.

- وأنا كذلك...

ونهض على قدميه.

- ابق أنت هنا يا "لاكود" مع "جلال الدين"، وأنا سأذهب إلى القصر وأعود على الفور.

ثم عاد أدراجه بحركة قوية، ومن ثم خرج من الباب.

...

- تعالى يا "تيمور ملك" ولنر، اجلس ها هنا هكذا أمامى.

وجلس "تيمور ملك". كان يجاهد كى لا يظهر حنقه وغضبه، ولكن كانت هنالك مرة أخرى ألف قطعة تسقط من وجهه.

- ماذا يفكر "جلال الدين" بشأننا؟

وهنا جفل "تيمور ملك". إن معنى قيامه بزيارة إلى "جلال الدين" أن لديه أخبارًا للسلطان. ومن ثم أجاب دون لجوء إلى الانتظار:

- إن لدى "جلال الدين" أملا، يا سلطانى. إنه يأمل أن يكون الخير في قراركم.

- ياه... وأنت؟

وتوقف "تيمور ملك" للحظة، ثم أدار رأسه إلى الشاه "محمد"، وقال:

- إن تفكير حقير مثلى لا قيمة له.

- أنت مستاء وغاضب.

- حاشا أن يكون هنالك استياء على سلطانى، ما هى حدودى؟

- لقد فورت رجلى ولكن...

لقد كان يستفسر عن الجندى الذى ضربه فى السوق.

- الله يعلم يا سلطانى.

- ألم تشعر بأنك قد وقفت ضد أمرى؟

- إنما أردت فقط أن أحول دون حدوث ظلم.

- أمن أجل هذا تشاجرت مع موظف الضرائب الذى يتبعنى؟

- لو أن جنديًا تجاوز حدود الأدب مع رئيسه، لكان الجلد هوالأجدر به.

ولم يستطع السلطان أمام تلك الإجابات أن يمنع نفسه من أن يبتسم. وقال:

- اصغ إلى يا: "تيمور ملك". إنك تعلم أننى لا أميز عليك أبنائى الذين هم من صلبى. ولهذا السبب فإننى أكافئك على ذنبك الذى اقترفته. إننى أمنحك ثقتى بلا حدود. وقريبًا سوف أقوم بشن الحرب للضرب على أيدى القبجاق. ومن بعد ذلك أرغب فى القيام بحرب ضد بغداد. إن "الخليفة الناصر" يسعى للعمل ضدنا. ونحن ننظر فيما يجب علينا عمله نحوه، ومن ثم نسعى إلى القضاء على يأجوج ومأجوج.

- من ذاك "يأجوج ومأجوج" الذى ذكرتم؟

- لا أعلم، غير أن الأخبار تأتينى على هذا النحو من على طول الحدود. إن الذين يتواجدون على الحدود يعيشون فى قلق وخوف. إنهم يتحدثون عن قطيع من الجنود الذين يمتطون صهوة خيول صغيرة. نبدأ بجيش "القره خطاى" ومن بعده "الخليفة "ثم الفرسان الصغار! لنعرف كلاً منهم حدوده. ولسوف أثبت أنه لا يوجد سلطان أكبر منى فى العالم.

- يد تمتاز على يد يا سلطانى. مادام أنكم لستم على علم بمدى قوته، فلماذا تصغرون من شأن العدو؟

احتد "الشاه محمد"، وقال"

- إذن أنت لا تؤمن بأننى "سلطان العالم"؟

ورد "تيمور ملك" بهدوء، وقال:

- كان "سيدنا عمر" رجلاً يحاسب نفسه بأن يقول لها فى كل صباح "يا عمر لا تنس يوم الحساب، ولا يأخذنك الغرور". كان يعلم إلى أين يمكن أن يقوده الكبرياء والغرور. لهذا لم يكن يساوره الغضب، وأمضى حياته حاكمًا بالعدل. وقد كان موفقًا.

- ماذا تعنى بذلك؟ أتريد أن تومىء إلى أننى ظالم؟

- من يمكنه أن يتجرأ على قول شىء كهذا؟ إنما أردت فقط أن أذكر غير متجاوز لحدى بعدم التناسب سواء من الظروف أوالتقاليد للانخداع بالكبرياء. ومن ثم فإن أخذ نصف أموال أحد التجار بدعوى الضريبة لا يعد شيئًا سوى أنه اغتصاب.

- يعنى أنك تفكر على هذا النحو؟

- تعلم يا سلطانى، أن هذا العاجز طوال حياته كان يقول ما يفكر فيه ويدور بخلده. حتى ولوكان ذلك تحت أصعب الظروف... والآن فإننى أفعل الأشياء عينيها. وآمل فى أن أنال عطاياك.

ثم نهض على قدميه وضم يديه إلى صدره، ثم ألقى التحية والاعتذار.

واستغرق السلطان فى التفكير. ومد يده إلى ذقنه، وأخذ يجذب فيها. لم يكن لأحد سوى "تيمور ملك" ليجرؤ على قول مثل هذا الكلام

له. فقط كان "تيمور ملك" يمتلك شهرة فى مجال الكلام بصوت عال وبتهور فى كل شئ يعرف أنه صحيح. ولم يكن هنالك من فوائد يجنيها من ذلك إلى جانب أنها كانت من المحظورات جدًا. وإلا لكان قد تم كبح جماح مهمته طبقًا لبعض القرارات المنفعية.

ثم سحب يده من ذقنه، ومن ثم اعتدل على العرش وهويجمع أطراف القفطان الحريرى.

- أنت كما أنت فى كل وقت يا: تيمور ملك"، حاضر الإجابة ومتهور كعادتك فى كل وقت. وغالبًا ما سوف تنال بعد قليل الكثير من محبتى بسبب حالك هذا.

- حفاوتكم وحسن قبولكم يا سلطانى.

- إننى أعلم مدى ارتباطكم بنا. وأنا واثق من أننى لو أمرتك بالموت لفعلت ذلك. إنك لست مثل التركمان ولا القبجاق. إنك ترتبط بمن تحب ولا تتردد لحظة فى دفع حياتك ثمنا لما تؤمن به.

- إذا كان الأمر كذلك، فلماذا تحب القبجاق الآن يا سلطانى؟

- هنالك جرح فى قلبى، ولكن ماذا عساى أن أفعل؟ إن أمى منهم. إنها آخر تذكار لنا من جدنا "تكش خان". إنها حينما ترملت كانت فى شرخ الصبا. لقد قامت بتربيتنا، ومنحتنا من قوتها القوة. إنها بذلت كل هذا القدر من الجهد. ولقد هددتنى بالذهاب والعمل مع القبجاق فى حال أقدمت على الانفصال عنهم. ولقد فكرت فى أن

"جلال الدين" ابنى كما أن "أوزلاق شاه" هو الآخر ابنى. وبعد رحيلى ماذا يتغير؟ سواء حل هذا أم ذاك محلى. وعلى حين يقوم "جلال الدين" بمحاربة الأعداء وإيقافهم عند حدهم على التخوم والثغور، فإن "أوزلاق شاه" هوالآخر يقوم بإدارة إقليم خوارزم بالعدل.

وهز "تيمور ملك" رأسه على الجانبين، وقال:

- يا سلطانى، قيام سلطانين على أمر بلد واحد هولهيب يشعل مرجل الفساد. من غير الممكن أن يقوم ولداك بإدارة شؤون الدولة سويًا.

- "جلال الدين" يصبح القائد الأول.

لوى "تيمور ملك" قامته، وقال:

- الحاصل أن هنا تكمن المشكلة. بمعنى أنه من المؤكد أن ولدكم "جلال الدين" لن يذهب إلى ديار أخرى آخذا التركمان من خلفه. ومرة أخرى فإننى سمعت من فمكم أنه سيظل فى خدمتكم كعبد صادق. والحقيقة أننى لوكنت فى مكانه لما كنت أظهر أوأبين هذا المعنى أوالمفهوم. وذلك الموقف يظهر أنه يليق حتى بالسلطنة.

- ربما كنت على صواب، يا "تيمور ملك". لقد حدث ما حدث. ولن نعود إلى الوراء.

ولوعدنا فى قرارنا، فسوف تظهر الخلافات، ويقع الأخ فى أخيه. إن التركمان مع القبجاق هم أبناء هذه البلاد، وهم أخوة فى

الدين، آه لو علموا مدى رغبتى فى ترضيتهم والتوفيق فيما بينهم وأن يعيشوا فى أخوة. إننى أمضيت السنين لتأسيس تلك الأخوة والتوفيق فيما بينهم. وفى كثير من الأوقات كان القبجاق هم الذين لا يهدؤن. إنهم لم يتوقفوا عن أفعالهم آخذين شجاعتهم من كون أمى تقف فى صفهم. والآن فإنهم يرغبون أيضا فى أن يذهبوا إلى بلادهم، وعلى أن أتخلص منهم أولاً.

- يااااه!...

لقد صدرت من فم "تيمور ملك" تلك الكلمة المعبرة عن الدهشة بغير إرادته. إنه لم يتمكن من أن يستوعب عقله تلك الدرجة من الجرأة. وعلى هذا النحو ظلت نظراته الحائرة مسلطة على وجه السلطان "محمد".

- نعم يريدون هذا. ولك الحق فى هذا العجب وتلك الدهشة؛ فإذا لم أحقق لهم ما يريدونه سيتحولون إلى تدبير الدسائس والمكائد المختلفة، ولن يدعو البلاد تنعم بالراحة أو السكينة.

- وهل بقيت إلا الحقيقة يا مولاى حتى!..

- مرة أخرى أنت تقول الحق. ولكننى لم أستطع أن أجد أى نوع من الأسباب التى أدت إلى ذاك الشغب.

- لو أصدرت فرماناً فلأقل أننى علمت أنه قدرك.

- لننظر فيه هكذا.

- يا سلطانى إنكم منذ فترة طويلة لم تخرجوا إلى الناس. كم كان الماضى جميلاً، لقد كان رجالك يقفون وراءك ويسيرون من خلفك، وكنت تتجول فى الأسواق. وكان الناس يقومون بالهتاف والتظاهرات.

- يفعلون ذلك اليوم أيضًا.

وابتسم "تيمور ملك" بمرارة شديدة، وقال:

- شعبكم، يفعل ذلك. ولكن هنالك هوة كبيرة تفصل فيما بينهما. بالأمس كانوا يفعلون ذلك من القلب، أما اليوم، فهم يفعلون ذلك خوفًا من سياط المحافظين القبجاق.

ومرة أخرى وضع السلطان يده على ذقنه، وقال:

- أأنت تقول هذا؟

- نعم أيها السلطان، لوقابلت الناس فلسوف تفهم ذلك منهم أيضًا.

- إننى أطلق الرجال بينهم.

- هذا عينه هو سبب من أسباب الفساد. إن رجالك يكفلون دخول المواطنين الأبرياء فى الزنازين من خلال ما يقدمونه من إخباريات خاطئة وكاذبة. إنهم يستخدمون هيمنة الدولة فى مخاصماتهم أومنافعهم الشخصية.

- إنك لم تقل مثل هذا أبدًا.

- ومرة أخرى لم أكن لأرغب فى الكلام حتى أننى أجبرت. إننى الآن لم أستطع أن أسكن وأهدأ من عذاب وجدانى، ولم أتمكن من أن أتمالك زمام نفسى. إننى لا أعرف كيف أحسب عدد التجرآت التى صدرت منهم ضدكم، حتى ولو كانت عقوبتى هى الإعدام. إن كل رجائى هو ألا تسقط دولة خوارزم فى طريق الهلاك. إننى أعد الموت أفضل لى ألف مرة من أن أرى ذلك يحدث.

- تكلم يا: "تيمور ملك".

- إن الضرائب باهظة يا سلطانى، لقد فاقت قدرة الناس على التحمل، إنهم يدعون الله على الأوضاع بالسوء، إن الكلمات السامة التى تنصب من أفواههم بالدعاء منذ وقت طويل تنهمر الآن بغزارة وكثافة. كما لم يتم الخروج إلى الجهاد منذ فترة طويلة، وازداد عدد السكان. ويتم إقامة حمامات للخانات فى حين أن بطون الناس خاوية ولا تشبع. ونحن نسقط من فقر إلى فقر والذين يمثلون الدولة....

- نعم...

- سأقول إنهم يحتمون فى ظل عفوك، وهم يعيشون فى غفلة.

فجفل السلطان. ومد يده بشكل آلى نحوالمطرقة الذهبية. لقد تذكر أمر الجلاد من هذين اللذين يقفان على أهبة الاستعداد خلف الباب المزخرف من جانبيه. وكان من الممكن آنذاك أن تفترش

الأرض بالدماء بكلمة منه وأن تزهق الأرواح فى خلال دقيقتين بشان ذاك الرجل الذى كان واقفًا ويتحدث. إنه الآن قد تغير وأصبح يرى وهو مشدود ومنتصب.

كان حدوث ذلك فى الإمكان، وكان ذلك يتتابع فى عقله. ومع ذلك لم يفعل، وبتعبير أصح لم يقدم عليه. فعلى الرغم من أن كلمات "تيمور ملك" كانت قد جرحته، لكنها كانت الوسيلة لإيقاظه من غفلته. كانت الحقائق التى لم يكن يريد أن يفهمها تقع على رأسه مثل المطرقة. إن الحقيقة هى الحقيقة فى كل مكان، وكان من الواجب إظهار الاحترام لها.

- معك الحق يا "تيمور ملك"، وإذا شئنا الدقة فهناك الكثير من النقاط التى أنت على حق فيها. إننى أعيش فى بلاء لم يرد مثله على رأس أى سلطان آخر فى الدنيا. الجنود الذين يمتطون الجياد الصغيرة والذين لا نعرف من هم_من جهة، ومن جهة أخرى "الخليفة الناصر" الذى يحفر لنا بئرًا، ومن جهة ثالثة والدتنا وأصدقاؤها من القبجاق، ومن جهة رابعة "جلال الدين" والتركمان. لا حظ لنا، والفقر يزداد، والأمة بدأت فى الإحساس بالفوارق. حسنًا، ولكن ماذا عساى أن أعمل؟...

إن السلطان العظيم الذى دانت له الدول، فتح يديه على جانبيه عاجزًا لا حيلة له، ثم أحنى قامته.

بيد أنه قد جاءته من صروف الأيام الشىء الكثير. إنه هزم أعداءه واحدًا تلو الآخر. وضم لبلاده بلادًا، ووسع حدوده إلى أقصى ما يمكن.

كان الكثير من الخانات والخاقانات يجبرون على الانحناء أمامه. وكان قد بدأ يرى فى نفسه أنه أصبح غازيًا عظيمًا للعالم أعظم من الإسكندر ذاته. ولكنه الآن وأمام "تيمور ملك" لم يكن أمامه من طريقة للخلاص دون الاعتراف بعجزه. فهل من الممكن أن يحدث هذا؟

وقال بهمهمة وبصوت ضعيف يمكن أن يسمعه هونفسه فقط:

- لقد وجبت الحرب.

وأكثر من هذا، لقد كان ذلك يشبه أنينًا يأتى من الأعماق. لقد كان ضعيفًا كمثل آخر نفس يخرجه إنسان أوشك على الهلاك. كان من اللازم أن يشعل الحرب فى مكان ما. كان يرى أن ذلك هوالسبيل الوحيد لخلاصه. كان من اللازم أن يقدم على شىء ليثبت فيه قوته. وفى هذه الحالة فإن الدولة ستنهض فى أرجائها وتصبح كما كانت عليه فى الماضى، وينسى الناس الخصومات التى فرقت بينهم، ويصبحون على قلب رجل واحد.

رفع رأسه. واستعد من أجل أن يقول شيئًا. وعندما رأى الباب يفتح، تراجع عن ذلك. وانتظر. ودخل أحد الحراس وهويسلم؛ قائلاً:

- إننى ألتمس عفوكم يا سلطانى. إن أحد السائحين الذين قدموا من بلاد بعيدة جدًا يرغب فى الالتقاء للتباحث معكم على وجه السرعة...

وأشار السلطان محركًا يديه وكأنه كان يتكلم:

- أنا الآن مشغول. ألا تريد أن تراه أنت؟

- وأنا قلت كذلك يا مولاى، ولكنه لا يريد أن يستريح. لقد أتى بأخبار عن الفرسان ذوى الخيول الصغيرة، وكان من الضرورى أن يخبركم بها على وجه السرعة.

اهتز سلطان خوارزم شاه "علاء الدين محمد". فما دام الأمر يتعلق بالبحث فى الجنود ذوى الخيول الصغيرة فإن ذلك يكون مبعثًا على الدهشة والعجب. وقال:

- أحضره ولننظر فى أمره. ولنتباحث معه فيما يريد.

فخرج الرجل. ونهض "تيمور ملك" مفكرًا فى أنه ينبغى عليه أن يترك السلطان وحده.

- هل لك أن تأذن لى يا سلطاني؟

- اجلس، اجلس فى المكان الذى أنت فيه يا "تيمور ملك "ليس هنالك من شيء نخفيه عنك...

- أمرك يا سلطانى.

ثم جلس وانتظر.

وبعد قليل دخل اثنان من الجند إلى حضرة السلطان وإلى جانبهما كان يسير رجلاً تبدوعليه ملامح التعب والإرهاق. ومن ثم انتظروا وهم يحيون السلطان ويسلمون عليه.

وأشار السلطان "علاء الدين محمد" بحركة من يديه إلى الجنود، ثم توجه إلى الرجل، وقال:

- ما اسمك؟

فأجاب باحترام، قائلاً:

- إنهم يطلقون على اسم "قوتلق" يا سلطانى.

- من أى بلد أنت؟

- إن بلادى هى إقليم خوارزم الذى يستظل بظلكم، ولكن فى الأصل أنا من "قونيه". وقد عشت لفترة طويلة فى "همدان" سابقًا. لقد حصلتُ العلم. ورأيت كلاً من "حلب، الشام، المدينة ومكة. ثم توجهت إلى "كاشغر". وتجولت فيها مكانًا مكانًا. وفى يوم من الأيام كنت فى طريقى إلى "الصين". ومررت على "سور الصين العظيم". وعلمت أن الصين تتعرض لأعداء غدارين ولا أمان لهم.

- من كانوا؟

- سأشرح يا سلطانى، لوأذنتم لى. نعم، إن ما يتعرض له أهل الصين من عدو لا أمان له شىء لم نتعرف عليه حتى الآن، فلم نسمع وحتى لم نعرف.

وفى هذه المرة اشتد صوت الشاه "محمد" سلطان خوارزم، وقال:

- قلت لك تكلم.. يا!..

- إن "جنكيز خان"!

- من، من؟...

- جنكيز.. جنكيز خان... إنه يذكر بهذا الاسم. إن اسمه الأصلى هو"تيموجين". إنه كان قد بدأ حياته مع الأشقياء. ثم مع الوقت توجه إلى الجبال متحدًا مع عدد من "التتار" الذين التفوا من حوله. وبعد فترة تمكن أحد خانات الصين من أسره، ولكنه هرب وأقسم أنه سوف يأخذ بثأره من الصينيين. وبالفعل أخذ فى الانتقام والأخذ بالثأر... إن الخانات والخاقانات الذين يظن أنهم لا ينهزمون قد انهزموا أمامه وصاروا يقبلون بحكمه عليهم...

- معنى هذا أنه قوى إلى هذه الدرجة؟

- إن الصينيين عندما يتحدثون عنه فإنهم ينتفضون من الخوف والفزع. إنهم فى الصين يقومون بالدعاء الكثير وتقديم القرابيين

إلى "بوذا" من أجل أن يدفع هذا البلاء من بينهم. ويقولون إن "بوذا" نفسه يعاقبهم مع "جنكيز خان". ومن أجل هذا، فإنهم يقفون منه موقف الاحترام والتقدير.

- ياللعجب؛ لقد كنت أريد أن أتعرف على هذا الرجل الذى يقابل بالخوف والاحترام فى الوقت ذاته. هل قمت بالتباحث معه أومقابلته؟

- استطعت أن أتحادث مع أحد القواد.

- وكيف كان ذلك الرجل؟

- كان طويلاً ضخم الجثة... تصرفاته جامدة، كأنه فى كل لحظة على استعداد لأن يفترس أحدًا. إحدى عينيه عمياء. وهم يطلقون عليه اسم "صوبوتاى". وكان من بين الذين يحبهم "جنكيز خان" كثيرًا. وسمعت أنه يظهر فى الحروب كثيرًا من النفع والفوائد. كما يقال إنه فى الوقت ذاته كثير الظلم.

- هل تحدثت معه؟

- لقد رغبت فى الاستفسار عن كثير من الأشياء، ولكن تصرفاته الجامدة جعلتنى أرتجف من داخلى. وفى لحظة نسيت كل ما تعلمته وضاع ما كنت قد وعيته فى عقلى. بقيت متجمدًا أمامه.

- أكنت خائفا؟

- ربما يا سلطانى...

- وماذا سمعت أيضًا؟

- إن "جنكيز خان" كان فى زحام من حوله كأنهم رمال الصحراء. وكانت لهم خيول صغيرة، ورأيتها بعينى رأسى. إنها سريعة الحركة، سرعتها تصل إلى درجة لا تتيح لعقول الناس أن تسكن أو تستقر. وفى أثناء الحرب، تقذف بشرر عجيب. وهم يتحدثون بلغة لا نعرفها نحن.

- كيف هذه اللغة؟

- إنهم يطلقون عليها اسم "المغولية"، وهى لا تشبه اللغة الخوارزمية فى شىء.

- ألا تشبه العربية أو الفارسية مثلاً؟

- لا تشبه أيًا منهما يا سلطانى. لقد تمكنت من تعلم القليل منها فى نحوسنتين.

- واى، أنت أيضا تعرف شيئًا من هذه اللغة!

- فى ظلكم يا سلطانى.

- حسنًا، وإذا جعلتك رسولاً لى إليهم، فماذا تقول؟

- أوامركم على رأسى، ولكننى أتيت من الطريق. وطلبى هوأن أوصل خبرهم إلى سلطانى رأسًا، ولتكن فى شكل معلومات، فلربما تم اتخاذ بعض القرارات على ضوئها.

- أحسنت، أحسنت بما فعلت. استرح الآن. ولسوف أصدر قرارى فيما بعد.

وتناول الطرقة الذهبية، وقرع بها مرتين على السطح الذهبى. وأشار إلى الحارس الذى دخل نحوضيفه، وقال:

- خذه، واجعله يستريح. وعندما أستدعيه لتأتوا به إلينا فى التو والحال. وكل ما يطلب أويريد عليه أن يفعله بكل حرية. ولتعاملوه خير معاملة.

ومن ثم خرجوا به إلى الديوان القونيوى.

ومرة أخرى يبقى السلطان مع "تيمور ملك" وحديهما. ولم يغب عن إدراك السلطان سكوت "تيمور ملك" وعدم التحدث بأية كلمة. وسأل عن السبب فى ذلك بصوت عذب قائلاً:

- أنت لا تتكلم يا "تيمور ملك" فإذا كان من سبب لذلك فيلزم إعلانه...

- فى الوقت الذى يتحدث فيه سلطاننا وجب علينا التزام الصمت والسكون.

- ولكنك تغرد مثل البلبل فى الأوقات غير الملائمة.

- إننى أفعل ما أراه مناسبًا فى الوقت المناسب يا سلطانى.

- ماذا تقول فى الكلام الذى قاله الرجل؟

- ماذا يقال؟ إن الرجل يتحدث عما رآه. ويتحدث عن الرجال الفرسان، ويفهم من أن الفرسان الصغار الذين يتحدث عنهم هم من رجال جيش المغول. والآن لم يعد هنالك من شئ إلا أن نعرفهم. ولكننا مضطرون لأن نحصل على معلومات صحيحة فيما يتعلق بتشكيلاتهم.

- هل تظن أننى أرغب فى محاربتهم؟

- لم أقل شيئًا كهذا، فقط أنت الذى تقرر ما تريده إذا أردت القيام بالحرب.

- إننى سأقاتل ضد الخليفة.

- لماذا تدخل نفسك فى شيء كهذا يعرضك لأن يقف كل العالم الإسلامى فى مواجهتك؟

سابقًا لم يكن يجهل بأنه يمتلك حق توجيه السؤال إلى السلطان. ولكن اليوم كان قد قرر أن يفرغ كل مالديه من أفكار أمام السلطان وفى مواجهته. إن "تركان خاتون" كانت قد أفسدت أعصابه بما فعلته وانتهت إليه فى القصر.

كان خيرًا أن السلطان لم يغضب. فقط وجه رأسه صوب الأرض. فكلما كانت الحقائق تقال فى وجهه، كلما كان ذلك يدعوه إلى التفكر بعمق أكثر وذلك بعكس الأوقات الأخرى. ومرة أخرى غاص بيده فيما بين خصلات ذقنه، وجمع بعضًا منها، وقال متحدثًا:

- ليس فى حياتى. ومن ثم لماذا، إن إقليم خوارزم هوالأقوى بين أقاليم العالم الإسلامى. إنهم مضطرون لأن ينقادوا ويخضعوا له. بقى أنه لم تعد هنالك من معاهدات أبرمت فيما بيننا. إنهم لا علاقة لهم بى ولا أعرف بماذا سيفكرون ولا كيف سيتحركون.

- وهل إذا تفوقوا عليكم؟..

- سأحطمهم وأستولى عليهم...

- على أخوتنا...

- أنا لا أسمى من يرفع السيف فى وجهى أخًا..

- بالرغم من الحديث الشريف الذى يقول: "اختلاف أمتى رحمة "؟

واضطر السلطان إلى الصمت والسكوت. لقد ذاق الهزيمة مرة أخرى فى مواجهة "تيمور ملك". لقد استرشد بعقله وشاوره. وكان يستصوبه. كان يقول له "نعم". "لو هجمت على الخليفة لاستثرت لعنة الأمم الإسلامية عليك. وحتى سوف ينقضون عليك. ولسوف تتحمل أنت أوزار تلك الحرب لأنك كنت السبب فى اشتعالها. ومن بعد، فإن الإمبراطورية السلجوقية كانت ستتقوى يومًا بعد يوم، وتلك هى الحقيقة والواقع. ألا يلفت نظرك مدى التهافت على هذا؟.

وعلى حين كان يتحدث مع عقله بهذا، فإنه كان يهمس بإحساسه على العكس من ذلك تمامًا.

- كلا، إن عقلك يتوهم. إن الخليفة هو على رأس أعدائك. لربما يكون هو الذى يحرض المغول ليهاجموك. والآن يقوم بتحريض بكوات "الجيش الذهبى". وعليك أن تلقنهم درسًا. إنك سلطان كبير. ولا يجب عليك أن تكون لعبة فى يد الخليفة. عليك أن تقاومه. حتى ولوكانت جيوشه فى كثرة أسراب النمل. عليك أن تضم كلاً من "بغداد"، و"مكة"، و"المدينة". وعليك أن تزحزحه عن "الموصل"، لتذل الخليفة الناصر ولتحل محله شخصًا يكون لك سندًا. فى هذا الوقت فقط ستكون الدولة وأيضًا السلطنة فى الحفظ والبقاء.

وسأل عقله:

- وماذا تقول فى هذا العمل أيها العقل؟

- أقول لا تكن سخيفًا. إن بقاء كل من سلطنتك أودولتك محض هراء. لا شىء على وجه هذه الأرض قابل للبقاء أوالدوام. وأنت أيضًا كذلك. الإسكندر الأكبر، ألم يحكم لفترة طويلة فى ظل النجاح والفلاح؟ أين هوالآن؟..

وتخبط لفترة بين الأفكار المتناقضة. أخذ يتأرجح بين العقل والهوى، ولم يتحكم من الوصول إلى قرار. فنهض، وقال:

- "تيمور ملك "إننى سعيد من خدمتك لى، لكننى لا أستصوب مواجهتك لأعمالى بمثل هذه الدرجة. اليوم وحده اهتزت رقبتك

فيما بين رأسك وكتفيك خمس مرات على الأقل. انتبه، ربما يمكنك أن تصادف لحظة غضب منى. وحينذاك تضطرنى إلى أن أتخذ قرارًا يجعلنى نادمًا طوال حياتى.

فهز "تيمور ملك "رأسه على الناحيتين. وطلب الإذن. وسلم على سلطان خوارزم بكل احترام، وخرج، ومضى فى حال سبيله.

***

إنه لم يستطع أن يعرف حتى كيف وصل إلى منزله. وتمدد على إحدى الأرائك. كانت الأفكار تغلى فى عقله. كان فى عجب من أمر أصبح فيه "السلطان محمد" لعبة فى أيدى خانات القبجاق. هؤلاء الرجال الذين يبحثون عن ثغرة يمكن أن يختبئوا فيها عندما يذكر "الهوت" ماذا فعلوا حتى أنهم نجحوا فى أن يؤثروا على السلطان إلى هذا الحد؟ لاشك فى أن والدة السلطان "تركان خاتون" قد لعبت دورًا كبيرًا فى هذا الشأن. تلك المرأة التى استطاعت أن تعزل "جلال الدين" واستطاعت أن تجعل من صبى فى حجم أصبع اليد وليًا للعهد، من يعلم ماذا لديها من قدرة يمكن أن تفعل بها ما تشاء؟

انقطع عن أفكاره مع انفتاح الباب. ونظر إلى رجليين يقفان على عتبته، وسأل:

– ماذا تريد يا "طوغاى"؟

كان "طوغاى" هو الخادم الوفى لـ "تيمور ملك". وأشار إلى الرجل الذى يقف بجانبه، وقال:

- إنه يريد محادثتك يا سيدى.

ورمق "تيمور ملك "الرجل بنظرة على هذا النحو. كانت ملابسه مختلفة. لم يستطع أن يستمر على حاله من الوقوف على قدميه من التعب. وتمتم قائلاً:

- نعم... نعم. لابد من الحديث معك.

- من أنت؟...

- إنهم يطلقون على اسم "حسن". وأنا من "سمرقند". وأنا على علم بالقراءة والكتابة.

- تعال هنا...

ودخل الرجل. ومسح على ذقنه. ومسح حبات العرق التى كانت قد احتشدت على جبهته.

- لقد حدثت أشياء سيئة فى "سمرقند "يا "تيمور ملك".

- من أين عرفت باسمى؟

- إن اسمك معروف لدى كل شخص فى "سمرقند". والغرور من الشيطان. إننى لا أقول بأننى أمتدحك. هذا ما كنت سأشرحه:

لقد رفع "عثمان خان" والى "سمرقند" عصا الطاعة وتمرد.

واعتدل "تيمور ملك" كالبرق. ولم يستطع أن يصدق ما سمعته أذناه للحظة.

- هل تعى ما تقول أيها الرجل! إن "عثمان خان "هو صهر لسلطان خوارزم. فكيف يتمرد؟

بدا الرجل وكأنه لم يسمع أوحتى لم يعر أى اهتمام لما قال.

- تمرد، نعم. لقد استولى على مال وملك الأمة. وقد أثار الذعر فى المدينة مع "القره خانيين" الذين جمعهم من حوله.

إن المدينة تنادى "بالأمان"، إدركوا "سمرقند" وخلصوها.

- لماذا أخذ منكم أموالكم وأملاككم؟

- يقول إن: إدارة "السلطان محمد" لم تصلح للعمل سوى أنها زادت من غناها غنى. وقد جرد التجار الشعب الفقير. وسحق الصناع قدر المستطاع. وأصحاب الأراضى الكثيرة عملوا عبيدًا عند من لا يملكون الأرض.

وصب كل الاستجداء الظاهر فى عينيه المغرورفتين بالدموع على حدقة العين التى فى مواجهته، وقال:

- لقد ساعده وسانده الفقراء فى السابق، وحققوا من ذلك القوة. وفى النهاية فتحت أعين هؤلاء. ولكن الفعل يمر عبر فعل آخر. لقد

هبت رياح الظلم الكامل والوحشية المفرطة فى "سمرقند". إن الأطفال يقذف بهم فى النيران وهم على قيد الحياة وأمام أعين أمهاتهم. وتعمل السيوف فى النساء الحوامل. وتطلق السهام على الأغنياء المسنين.

- واى المحتال عديم المروءة!...

- رجال العلم عندنا، والمعلمون يتم جمعهم وأرادوا منهم أن ينكصوا عن العدالة وأن يعملوا بما يناقض الدين الإسلامى. ومعظمهم سيق إلى الخازوق.

- واى عديم التربيةّ!...

- لقد قلت ما علمته يا سيدى، وعقب ذلك هناك عمل سوف تعرفه. إن سيفك يلف صيته نواحى "سمرقند" وما يحيط بها. والعلماء أوكلوا إلينا تلك المهمة. كنا عشرة أشخاص. ولقد تم القبض على زملائى. والآن وقد عرفت الموقف والوضع.

وصوب "تيمور ملك" عينيه ناحية الباب، وكان يفكر بعمق. لقد مر وقت طويل على هذه الحال. ثم نهض من مكانه. وخرج من ذاته التى كان ينتظرها. لقد استطاع أن يجعل السلطان يعدل عن الذهاب إلى إقليم القبجاق. وعلى حين تتقد نيران الفتنة قوية فى "سمرقند" فإن الذهاب إلى أيدى القبجاق كان سيفعل العكس من منطق السلطان على أية حال.

صاح قائلاً:

- أيها الحارس، وأشار للتركمانى الذى دخل إلى الرجل وقال:

- خذه، وأمن له وسائل الراحة.

- تحت أمركم يا سيدى.

- أنا ذاهب إلى السلطان...

وخرج.

...

عندما أخبروا السلطان "محمد" بأن "تيمور ملك" قد عاد ورجع، كان أثناءها مشغولاً بقراءة "كتاب التهنئة "لأبى تمان. وقد أصابته الحيرة من سبب عودته ومجيئه. فأغلق الكتاب وتركه على المقرأة. وقال آمرًا:

- تعال ولننظر.

ودخل "تيمور ملك" بعجلة جعلته يقلب مراسم التشريفات رأسًا على عقب. وذهب ناحية "السلطان محمد "بخطوات واثقة. وبحركة قوية قام بوضع ذراعيه على صدره، وقال:

- وعليكم السلام يا "تيمور ملك"، فى الحقيقة أنت تصيبنى بالحيرة. لقد خرجت منذ قليل من هنا. والآن اجلس ولننظر.

ولم يستطع "تيمور ملك" أن يصبر حتى يجلس.

- إن الأحداث تتطور على هذا النحو بغاية السرعة حتى أنه يا سلطانى رأسى تصاب أحيانًا بالدوار. ومع الأسف فإننى حضرت إلى مجلسكم لكى أخبركم بخبر سىء.

واصفر وجه السلطان، وبلل شفتيه، وقال:

- ما هو هذا الخبر السىء، إن لم يكن "جلال الدين"؟

وقطب "تيمور ملك "وجهه، وقال:

- لا تفكر فى أشياء سيئة بخصوص ابنكم أيها السلطان. إن كونه يتمرد على أبيه لا يمكن أن يمر حتى بطرف عقله. إن كل أمله فى أن يصبح جنديًا مخلصًا لكم. والمشكلة ليست تلك.

- ألن تقل؟

- إذا أذنتم أيها السلطان.

- قل...

- جاء من "سمرقند" رجل مضطرب. وأخبرنا بأن صهركم قد أعلن التمرد عليكم.

فانطلق السلطان من مجلسه محتدًا، وقال:

- كله كذب! إن صهرنا "عثمان خان "لا يفكر فى التمرد علينا. أبدًا، لا يمكن أن يحدث ذلك فى أى وقت...

- وأنا أيضًا أفكر كذلك أيها السلطان.

- وإذا كان الأمر كذلك فلماذا تثير المتاعب.

فأحنى قامته، وقال:

- وجدنا أنه من المناسب إخطار سلطاننا، وإذا كنا قد أخطأنا فنطلب عفوكم.

ثم انحنى انحاءة خفيفة، وقال:

- إذا أذنتم لى أيها السلطان.

فأشار "السلطان محمد" بحركة من يده ليوقف "تيمور ملك"، وقال:

- إلى أين؟ لقد ألقيت علينا كلامًا، وتريد الآن أن تنسحب. هل هدفك أن تكدر صفو ذهنى، أم أن تضمن سيرى ضد صهرى؟

أصاب الشحوب وجه "تيمور ملك"، وكان يرتعد من حرصه، وقال:

- إنك تعرفنى أكثر من والدى أيها السلطان، فهل تظنون بأنه فى إمكانى أن أضمر نية كهذه فى حقيقة الأمر؟

- ماذا يمكننى أن أقول سوى، إنك تجرم صهرى..؟

- لستُ أنا يا سلطانى. إن الرجل الذى أخبرنى بذلك هو الذى يجرمه. ستجدون أنه من "سمرقند".

- إننى أريد أن أقابله.

- رهن إشارتكم، فورًا...

- حسنا إننى فى انتظار إحضاره...

وخرج "تيمور ملك" وهو يسلم على السلطان. وبقى "الشاه محمد" وحيدًا. لم يكن مطمئنا إذ حاول أن يصدق بينه وبين نفسه إلى أى حد يمكن أن تواتى صهره الجرأة للإقدام على شيء كهذا.

- ما هذا الذى يحدث لى. قالها السلطان متأوهًا. وتابع يحدث نفسه:

- القره خطاى من ناحية، والتركمان والقبجاق من ناحية ثانية، ومن ناحية ثالثة خاقان هؤلاء الفرسان الصغار والمسمى بـ "جنكيز خان"، والخليفة الناصر من ناحية رابعة، والآن يأتى الدور على صهرى "عثمان"؟

وقام بطرق الصحن الذهبى بالمطرقة الذهبية بحرص شديد.

ودخل أحد الحراس، وانحنى.

- اذهب على الفور واستدع "نيشابور" خان القبجاق إلى هنا.

وبعد أن خرج الحارس قام بإصلاح هندامه وأصلح الملابس التى عليه.

لم يكن يرغب فى أن يراه "نيشابور" على هذا الوضع البائس أو المضطرب. وما إن رآه يدخل عليه حتى أشار له بمكان الجلوس، وقال له:

- تعال هنا، يا خان القبجاق، واستعد من الآن لأجل ألا تصاب بالدهشة لما سوف تسمعه من بعد. يقولون إن صهرى "عثمان خان" قد تمرد علي.

وعلى حين كان "نيشابور "يهم بالجلوس فى المكان الذى أشار به عليه توقف، وسأل مترددًا:

- ع... ص...ى يا سلطانى؟

يقولون "عصى"... ولم ألتقى بعد بمن نقل هذا الخبر. وقد بعثت بـــ "تيمور ملك "من أجل أن يحضره.

ص٥٠

ابتسم "نيشابور" ابتسامة خبيثة وخفية. وبرقت عيناه كمن أراد أن يكتشف شيئًا مهمًا. وجلس على الأريكة، ومن إن اعتدل فى جلسته حتى قال:

- إنهم يريدون أن يمثلوا عليك لعبة يا سلطانى.

- من يريد أن يمثل لعبة؟

- إنه "تيمور ملك" على كل حال. إنه فى الفترة الأخيرة مدلل منكم وسليط اللسان عليكم. يقوم بضرب موظفى الضرائب، وهويتفوه بكلمات لا يمكن أن تكون ذلة لسان بحقنا وبحق إداريى الدولة، وحتى كل هذه قد وصلت إلى مسامعكم، وأنتم إلى الآن تقومون على حمايته.

- إن "تيمور ملك" قائد عظيم.

- ممكن. ولكن القائد أى قائد ليس من حقه أن يتصرف ضد السلطان.

- لقد حقق "تيمور ملك" شهرة بأنه لا يحذر من كلامه.

- إلى حد ما هى نقطة صحيحة، ولكن لا يجب أن تصل تلك الكلمات إلى درجة الإثارة.

- إننى لا أظن أنه يفكر فى شىء آخر سوى التفانى فى خدمتنا.

ونظر "نيشابور" إلى السلطان بشىء من الارتياح، وقال:

- إن قلبكم الطيب هذا هو الذى يجعلكم لا ترون الألاعيب التى تجرى من حولكم، أيها السلطان. إن "تيمور ملك" قد بنى مع ابنكم "جلال الدين" مؤامرة منذ وقت طويل، إنهما يريدان أن يشعلا مرجل الفساد. كما أنهما يسعيان لدفعكم إلى القيام بمحاربة والضرب على يد القبجاق. وما ذاك إلا لأن كلا من "تيمور ملك "و"جلال الدين" من التركمان. إنهما يحقدان علينا. وهما لا يقابلان مواطنينا بالترحيب. والآن فإنه بإعلانكم ابنكم الصغير "قطب الدين أوزلاق شاه" المولود من امرأة من القبجاق وليًا للعهد لم يكن ذلك من دواعى الحظ السعيد بالنسبة إليهما. إنهما يفكران فى إثارتكم بأقصر الطرق من أجل أن تتخلوا عن إدارة الدولة.

وفتح الباب بسرعة. وظهر على عتبته "تيمور ملك". ومدد ساقيه، وأرخى ذراعيه على الجانبين. وكانت قبضتاه مشدودتين. وصاح قائلاً:

- كاذب!...

وكان "نيشابور" وكأن الدماء قد تجمدت فى عروقه. امتقع لونه تمامًا. فى حين كان "تيمور ملك" يدخل رويدًا رويدًا ويحمل فى يده سيفه. وفهم "السلطان محمد" أن الموقف قابل لأن يتطور إلى الأسوأ. فرفع يديه، وقال:

- اصمتا! من أين لكما تلك الجراءة على أن تتشاجرا فى حضورى؟ إنكما تضطرانى لأن أسلمكما إلى الجلاد.

توقف "تيمور ملك". وتذكر أنه من بين القواد النادرين الذين يتواجدون فى حضرة السلطان ويؤذن لهم بالدخول بسيوفهم. ولقد قرر ألا يخلخل أو يهز من هذا الاعتماد. فضم يديه إلى صدره وبادر بالقول:

- سلام أيها السلطان العظيم.

- سلام أيها القائد الكبير. هل أحضرت الرجل؟

- إنه هنا...

وأصدر إشارة برأسه فدخل الرجل. كان يقف وهويرتدى زيًا جديدًا ومؤقتًا. وكان واضحًا أنه اتخذ استعداده على وجه من السرعة. وقام بتقبيل ذيل ثوب الملك، الذى قال له:

- ماذا يطلقون عليك؟

- يطلقون على اسم "حسن"، وأنا من "سمرقند".

- ويقولون إن صهرى "عثمان خان" قد تمرد على، هل هذا صحيح؟

- نعم يا سلطانى.

وانسحب "تيمور ملك" لكى يغلق الباب. وبذلك يتمكن من الاستماع إلى ما يقال.

كان السلطان يلقى بسؤال على سؤال، وكان يحاول أن يفهم إلى أى درجة من الصحة يكون هذا الخبر. وكانت سحنة الخان القبجاقى تتلون من لون إلى آخر فى كل ثانية.

إنه كان يفكر فى أنه فى حال ما إذا ثبت صحة هذا التمرد الذى وقع فى "سمرقند"، فإن السلطان سوف يوجه جيوشه إلى هنالك، وسيظل إقليم القبجاق تحت سيطرة "القره خطاى" إلى الأبد.

وبعد أن عرف "السلطان علاء الدين محمد" كل ما أراد أن يعرفه بالكامل، قال:

- اعلم أنك ستصبح عدمًا إذا ما كانت هنالك ذرة من الاختلاق فيما ذكرت.

- إننى أقسم لك يا سلطانى أن كل ما قلته هوصحيح تمامًا.

وبدا السلطان وكأنه يحدث نفسه قائلاً:

- كفى ما هنالك من متسع فى عقلى للعصيان، إننى فى حيرة من أن الكل يخرج على بادعاء جدلى وكأن كل شخص هوعلى نفس ذلك المستوى. إن الله تعالى لم يخلق الناس متساوين إلى هذا الحد الذى... ثم عاد إلى "تيمور ملك"، وقال:

- يمكنك أن تذهب يا "تيمور ملك". وخذ معك صاحب الخبرية. لقد تلقينا اليوم خبرين سيئين. ونرجو من الله أن يجعل عاقبتنا الحسنى.

وبعد أن صوب نظرة حادة إلى الخان القبجاقى جعلته يغوص فى مكانه، أشار "تيمور ملك" إلى "حسن". وسلما سويًا على السلطان، ثم خرجا. وكان يقول لنفسه فى الطريق:

- السلطان يقول إنه تلقى خبرين سيئين، أما أنا فقد تلقيت ثلاثة أخبار سيئة. أولها استبعاد "جلال الدين" عن ولاية العهد...

***

القسم الثالث

تحققت رغبة "تيمور ملك". فلم ينخدع "السلطان علاء الدين محمد "بخانات القبچاق. فخرج متوجهًا صوب "سمر قند " حيث تقع بلاد القبجاق. كان فى غاية الغضب. وعندما يقع فى يده صهره "عثمان " ومن حرضوه، فإنه كان سيغرقهم فى الماء. لم يكن ليهضم بأى حال من الأحوال آن ذاك الذى أنعم عليه ونال منه كل فضل وإقبال ينقلب من بعد ويرفع ضده عصا الطاعة.

عبروا من خلال طرق طويلة، ومن صحراء صعبة المدارك. وفى نهاية المطاف استطاعوا أن يروا ذات صباح أسوار المدينة. وصوب السلطان إصبعه نحوالأسوار، وقال:

- انظر يا "تيمور ملك" كيف ستهدم تلك الأسوار الصعبة ونهدمها كما لوكانت أبراجا ورقية تحت أقدام خيولنا.

- أنا متأكد وواثق من ذلك يا سلطاني. وامتقعت وجوه القيجاق. كانوا يمتقعون لدى سماعهم كلماته. ومع ذلك لم يكونوا يفقدون آمالهم. بسبب ما وبعد أن يخرج جيش للقتال فإنه يمكن أن يحل بسمرقند، ومن ثم يصبح شئ جميل للغاية أن يضع القيجاق أيديهم عليها. وفى هذا الوقت كانوا يأملون فى أنهم سيستطيعون خداع السلطان.

ودون مرور وقت طويل حاصروا المدينة. وجعلوا الجنود فى وضع الاستعداد.

صاحوا على "عثمان خان "وأيقظوه من غفلته، ومـا إن رأى هذا المشهد حتى صار كمن أصابه مس من الجنون. ولم يكن "شـاه خوارزم "يأمل فى أن يمر هذا الأمر بمثل هذه السرعة. ومعنى ذلـك أنه مازال على قوته التى كانت فى السابق. كان يمضى فى الهجـوم يمينًا ويسارًا ودون وعى. وضرب بالسوط عددًا من الأشخاص، كما أمر بالبعض الآخر بأن يتم إعدامهم.

وعاد إلى غرفته ومن ثم أخذ يفكر تفكيرًا عميقًا. ثم عاد وأخذ يتفرج على جيش حماه.

وسُمع صوت يقول:

- أيها الزحام ويا أيها الحشد.

وعند ذلك سمع خبر عن وصول ثلاثة من الأشخاص ببنيـان القلعة وهم يحملون فى أيديهم البيارق البيضاء بلغت القلوب الحنـاجر من شدة الخوف. فصعد إلى أفضل وأصح مكان فى القلعـة. ونظـر طويلاً إلى الأشخاص الثلاثة القادمين. وتمتم بكلام إلـى "سـركش" المرشد الذى كان يقف قائمًا بجانبه، قائلاً:

- إنهم فى الغالب ينفذون أمرنا بالإعدام.

- ماذا تقول، وما هو العمل؟

- لا داعى للقلق يا سيدي.

- كيف يكون ذلك، انظر إلى هؤلاء الرجال الذين يحاصرون المدينة.

- ليكن، فمهما يكن فالسلطان هوصهركم. يمكن أن يقوم بالعفوعنك. أما نحن فلن نسلم من قطع رقابنا.

- لوأننى عشت، فسوف تعيش أنت أيضًا.

- لنصمت الآن، ماذا يقول الرجال؟

كان الخوارزميون الثلاثة الذين يحملون العلم الأبيض قد وصلوا إلى أسفل البرج الذى كان "عثمان خان "متواجدًا فيه. وأخذ الرجل الذى كان أقرب إليه يرفع يده وبدأ فى الحديث، قائلاً:

- أيها الجنود! تعالوا لتأخذوا الخبر عن "عثمان خان". لقد جئنا لنتحدث إليكم شخصيًا.

فسأل "عثمان خان" "سركش "قائلاً:

- هل أتحدث؟

فقال "سركش":

- لا شىء فى أن يخاطب خان جنده. ولكن لتأمرنى وتأذن لى وأنا أتحدث.

- أعطيتك الأمر ، فلنتحدث.

فمد "سركش" رأسه من المزاغل (الفتحات) وقال و هو يصيح:

- ماذا تريدون؟

فقال الخوارزمي:

- من أنت؟ نحن نريد "عثمان خان" أو من ينيبه لنتباحث معه.

وانحنى "عثمان خان" جانبًا من أجل أن يبدو بشكل جيد، وقال:

- أنا "عثمان خان". و"سركش" هو رجلى المعتمد. فلتتحدث معه.

وعلت ابتسامة ساخرة على شفاه الخوارزميين الثلاثة. ورفع قائد الفرقة صوته وقال:

- اسمعوا جيدا. إننى أبلغكم أمر أكبر سلطان فى العالم صاحب الشوكة "علاء الدين محمد". عليكم أن تسلموا القلعة الآن وفورًا، ومن يعمل عكس ذلك ويقدم على العصيان فلن تسلم رقبة من ضرب السيف، وستدمر المنازل، وسترمى بجثثهم إلى الكلاب. سندع فسحة من الوقت لكى تفتح الأبواب واحدًا واحدًا، وإذا لم تفتح فسوف تتحقق الأمور التى ذكرناها.

وامتقع وجه "عثمان شاه" وصار فى لون التراب، وجف حلقه، ومن ثم نظر إلى "سركش"، وقال:

- إذا لو استسلمنا؟

- فى تلك الحال ربما يمكن أن يخفف سلطاننا حكمه فيكم.

- ربما... هه...

- نعم... ربما...

وأدار الرسل وجوههم دون أن يتكلموا بأى شىء آخر. وصك "عثمان خان" على أسنانه. وقال:

- يقول لى الشيطان أن أرمى هؤلاء بثلاثة سهام!

فقبض "سركش"على ذراعه، وقال:

- حذار أن تفعل، هه! علينا أن نتيقظ للشيطان، فسوف تكون تلك هى آخرتنا جميعًا.

- حسنًا ولكن يا "سركش" تراهم كيف يتحدثون باستهزاء.

- يعنى أن هؤلاء لا يظنون أننا يمكننا أن نقف فى طريقهم؟

- نعم إنهم يفكرون تفكيرًا سليمًا.

فقال "عثمان خان" بغضب:

- ماذا تقول يا هذا... هل تريدنى أن أسلمك إلى الجلاد؟

- استمع أيها الخان، إن الناس لا يشايعوننا. وهؤلاء الذين يحيطون بنا هم عبيد مصلحتهم؛ إنهم لا يفكرون فى شىء سوى ملء جيوبهم. لقد ظلمناهم قدر الإمكان، وسلبناهم أرضهم وثرواتهم.

ولا يرى من شخص لديه الرغبة فى أن يحارب من أجلنا فى هذا الموقف فإنهم سيقيمون الأعياد ليس من أجل مجيء "سلطان خوارزم" ولكن إذا جاء "جنكيز خان" نفسه. إن كل طلباتهم وحاجتهم تتحصر فى التخلص من رؤوسنا.

- هؤلاء ناكرو الفضل والنعمة!

- لقد ظلمنا يا سيدي، لقد اقترفنا ظلمًا كثيرًا. وحتى وحتى....

وفتح "عثمان خان "يديه وهوفى حال من العجز، وقال:

- حسنًا، وماذا نفعل الآن؟ هل نسلم أنفسنا كالحملان؟

وأجاب "سركش" على سؤاله بسؤال:

- ألا يمكنك إلا أن ترى الموت بعينيك أيها الخان؟

وتحير "عثمان خان" وتعلثم، وكان كمن يئن قائلاً:

- إننى مازلت فى شرخ الشباب.

- إذا كان الأمر كذلك فليس هنالك من حيلة أو وسيلة سوى الاستسلام. اذهب إلى السلطان واطلب العفو، فلربما يرق قلبه بالرحمة. وحتى لو لزم الأمر فأرسل السيدة زوجتك إليه فى مجلسه. ولتقم هى بطلب العفو، ولتسع هى إلى طلب العفوعنك وعنا. ليس من الممكن إيجاد وسيلة أخرى لتخليص أرواحنا سوى هذا.

- غالبًا أنت على حق.

وعلى الفور توجه إلى القصر. وصعد إلى حيث توجد زوجته. كانت الفجوة فيما بينهما في ازدياد منذ أن أعلن تمرده. كانت بنت شاه خوارزم "خان سلطان "تجلس مع بعض الخادمات الأوفياء بعد أن انسحبت إلى الداخل من القلعة. وعندما رأت زوجها أمامها فجأة جفلت. وظنت أنه إنما عاد لكى يقتلها. وذهبت على الفور إلى حيث الخنجر الذى صنع مقبضه من الذهب والذى كانت محتفظة به في متناول يديها.

وبدأ "عثمان خان" يقترب وهويبتسم، وقال:

- لماذا تجفلين يا سلطانتي، ألست أنا زوجك؟

ولم تجر المرأةِ الشابة جوابًا. وانزوت قليلاً إلى الركن أو الزاوية.

وبدأ "عثمان خان "في الحديث محاولاً أن يعطى لصوته نبرة تبعث على التصديق وتدعوإلى الشفقة، وقال:

- لقد وضعنا رأسنا على وسادة واحدة لسنوات طويلة. وأمضينا سويًا الأيام بحلوها ومرها، ورزقنا بأطفالنا. ومنذ فترة وهنالك فجوة فيما بيننا. والله شاهد على، أن قلبى لم تدخل إليه إمرأة سواك. كان كل تفكيرى فيك، وكان كل حبى موجه إليك. ولكن المنافقون لم يتركونا وشأننا. لقد أفسدوا فيما بينك وبيني.

تحدثوا إليك بالسوء عني، وتحدثوا لى بالسوء عنك. وبالنسبة لى لم أكن أصدقهم، فهل ترين كنت أنت تقدرين على فعل الشيء ذاته؟ كنت أتردد فى المجيء إليك لكى لا أعلم.. "

ولكن المرأة لم تجر أيًا من ذلك أية أهمية. وقالت بصوت بارد كالثلج:

- ماذا تريد، قل ما تريده.

وفجأة خمد "عثمان خان". لم يكن يخطر بباله أن يقابل مثل هذا. وكان يقول لنفسه مهما يكن من أمر فإن هنالك من النساء، لديهن بعض من الضعف، ولوكنت على دراية بالاستفادة جيدًا من هذا الضعف، لكنت قد تمكنت من إرسالها إلى أبيها، ولأمكنني أن أنال عفوه من دلالها عليه. إن هذه الخطة قد انقلبت الآن رأسًا على عقب.

أصبح كمن تحطمت بعض قوته. فاقترب منها خطوتين، وقال:

- "خان سلطان" يا عزيزتي. إن رأسى أمانة لديك، ولوأردت سوف أقتل، وإن شئت سوف أعيش. اذهبى إلى والدك السلطان واطلبى منه أن يعفوعنى...

وثنى ركبتيه. ورفع يديه بحذاء كتفيه وضمها إلى بعض. ثم أحنى رأسه، وقال:

- لقد ارتكبت خطأ. لقد أهملتك من جانب هذا الخطأ. وأنا الآن أفهم كل هذا الألم الذى سببته لك جراء سيرى فى طريق الخطأ. إنهم لو أذابوا الرصاص فى أذني، ولو أنهم قاموا بتقطيع جسدى كل يوم قطعة قطعة، ولوكانوا قد ملأوا عيناى بالأسياخ، لما كنت قد فكرت فى هذا الموقف. إننى أرجوك أن تذهبى إلى والدك، وتطلبى منه العفو عنى. إنه يحبك ولا يحب أن يكسر خاطرك. ماذا يحدث؟ افعلى هذا وليكن ذلك من أجل ذكرى الأيام الجميلة التى قضيناها معا.

ورفعت "خان سلطان" رأسها بصعوبة شديدة. كانت قد انتهت إلى أن الذى يحدث أمامها ما هوإلا تطبيق لعدالة الله عز وجل. مر وقت طويل على زوجها وهو جاث على ركبتيه أمامها، ثم مرغ وجهه فى التراب، وقبل قدميها، وهو يرجوها ويتوسل إليها من أجل أن يعفو والدها عن قيامه بهذا العصيان.

وفتحت يديها، وقالت:

- يا ربى، كم أنت كبير!

ثم عادت إلى "عثمان خان"، وقالت:

- لا يليق بك يا "عثمان خان" أن تتوسل من أجل روح. ثم تابعت:

- انهض على قدميك، واذهب إلى والدى وقل له ما قلته لي، فلربما نسى كل الذى حصل ويعفو عنك.

وفهم "عثمان خان" أن تخبطاته لن تؤدى به إلى فائدة تـذكر. إن "خان سلطان" لن تتمكن من ترقيق قلبه مهمـا فعلـت. وخـرج وهويسير بخطوات مهتزة. وقال للمتمردين الـذين ينتظـرون علـى الباب؛ موضحًا موقفه الذى آل إليه بكلمه واحدة:

- لا أمل.

وبدأوا جميعًا فى السير قائلين:

- ألم تقبل؟

- كلا، لقد قلت لها: اذهبى إلى أبيك وتوسلى إليه عله أن يعفوعنا. وغالبًا ليس هنالك من شىء آخر يمكن عمله.

- إنهم يستعدون للحملة والعمل العسكري. وقبل أن تنتهى المهلة المحددة. عليكم أن تذهبوا بسرعة.

وأجاب "عثمان خان" على المتمردين وهويهرب بعينيـه مـن نظراتهم:

- سأذهب، أيها المتمردون، فلم يتبق لنا من حيلة أو وسيلة.

وبعد قليل خرج أحد الخيول الاحتياط من القلعة وعلى ظهـره ما يشبه التابوت. كان الناس ينظرون إلى رحيل الرجل بملل نظـرًا لما أصابهم منه من ظلم كبير. وكانوا يرغبون فى الضحك ولكن ذلك لم يكن مناسبًا فى مثل هذا الوقت العصيب. وبالرغم من كل شـىء

فإن أسلوب وقاعدة الشفقة العميقة كانت حلت بهم لدرجة لا يمكنهم معها أن يضحكوا من بعده حيث إن تفكير تابعيه كان ينصب على أنهم من المسلمين، وحتى لوكان هو قد وصل إلى هذا الحد من الظلم...

وخرج "تيمور ملك" بفضول كبير يستطلع الأمر بعد أن علم بأن "عثمان خان" قد خرج من القلعة بفرس احتياطي. كان هنالك ستة أشخاص بجانبه. وانتظر مجيء الرجل على أحد المرتفعات. عند اقترابه لمح تابوتا مربوطًا على ظهر الحصان، وارتسمت على شفتيه ابتسامة، وقال متمتمًا:

- إن المتمرد يأتى ليطلب العفو.

أخذه دون أن يتكلم، وتوجه به إلى حيث خيمة السلطان.

وما إن رأى "عثمان خان" صهره حتى ارتمى على الأرض.

وتمرغ بوجهه على قدميه لبعض الوقت. وقد نظر كل من "تيمور ملك "ومن معه من البكوات بألم إلى ذاك الرجل الذى حقر من نفسه من أجل تخليص حياته.

لم يشعر أى واحد منهم بشىء من الحقد عليه. ومرت عدة دقائق وهم على هذا الوضع. وفى النهاية تحدث السلطان "علاء الدين محمد "ببطء والكلام يخرج من فمه كلمة كلمة:

- يا "عثمان خان" لا يسلم "خان" على "سلطان" هكذا، لقد ساهمت فى بناء الخانية.

كان "عثمان خان" يبكى، وقال بصوت متقطع:

- عفوًا يا سلطاني، أنت سلطان كبير، وأنت عظيم، ويمكنك أن تسحقنى كنملة صغيرة.

ونهض السلطان وهويقول:

- كنملة أم كعقرب؟

- سلطاني...

- قل، أيها الجاهل!...

- إن تابوتى مربوط على ظهر حصان. وبداخله سيف بتار. وإذا لم تمنحنى عفوكم فإننى على استعداد لأى شىء تفعله يا سلطانى فلكم كل الحق فى الاختيار. إن رقبتى أمامكم أيها السلطان هى أرق من الشعرة.

وهكذا فإن تلك الكلمات قد أدرت عطف وشفقة السلطان "علاء الدين محمد". وخرج من الخيمة، ورأى الحصان. وأمرهم أن ينزلوا التابوت الذى كان على ظهره. كما أمرهم أن يفتحوه. كان بداخله سيف قاطع. كان يعلم أنه بتار. وأخذه بيده ومن ثم عاد لبضع خطوات متراخيات ودخل. وتوجه إلى "عثمان خان" وقال:

- كيف حال ابنتنا؟

- تدعو لكم يا سلطاني.

- وإذا ما وصمت بالعار؟

- ومن يجرؤ على ذلك، يا سلطاني؟ إنها مع حاشيتها تقف داخل القلعة.

- فلتذهب للتو وتفتح أبواب القلعة أمام جنودي، ولسوف أصدر قراري في شأنك فيما بعد.

وانسحب "عثمان خان" إلى الخلف وهويزحف من الخيمة. وكما جاء عاد إلى القلعة صامتًا وبلا ضجيج.

كان يطير من الفرحة لأن روحه قد أنقذت. ترى هل تأخير البت في أمر عقوبته يعني أن الأمر سيطول أوأنه سيلغى؟ إن السلطان صهره لم يعط أية ضمانات له. فقط أمره بالانتظار. وإذا ما أصدر قرارًا بالإعدام؟ في ذاك الوقت فإن سلالة القره خان الذين ينتمي إليهم سوف تجتث من جذورها. ومن المحتمل أن يتمكن من إقامة دولة على هذه البسيطة، ولا حتى ستكون هنالك أمة لهم.

وبينما هو يفكر على هذا النحو، فإن أبواب القلعة قد تم فتحها مرة أخرى. وملأ جنود الخوارزميين القلعة مثل الثلج المتهدم.

وتوجه السلطان صوب القلعة من الداخل. والحقيقة أن مقابلته مع بنته كانت جد حزينة. حتى أن "تيمور ملك" لم يمنع نفسه من

الدموع التى فرت من عينيه واضطر لأن يحول رأسه إلى الجهة الأخرى من أجل ألا يظهر دموع عينيه.

كانت السيدة الشابة من بين الذين أحيطوا علمًا بأن أرواحهم ستزهق، ومع ذلك لم يدر بخلدهم أن القلعة ستستسلم دون حرب. وعندما رأت أباها فجأة يقف أمامها كانت كمن سيصاب بمس من الجنون من شدة فرحها. وقالت وكأنها تصيح:

- والدى السلطان. وتركت نفسها بين ذراعيه وأخذت تبكى بحرقة.

امتلأت عينا السلطان بالدموع. وأمر كل من كان بالغرفة بالخروج لأنه لم يرغب فى أن يرى الرجال دموع عينيه. وأخذ يتحدث مع ابنته لوجه ساعة من الزمن.

وعندما خرج كان يغلى من ثورة الغضب. لقد طلبت منه ابنته "خان سلطان" ألا يعفو عن زوجها. ففى حال عفا عنه، فإنه سيقوم بالتمرد والعصيان مرة أخرى.

قالت إنه قلل من شأن الخوارزميين، وأعلنت أنه من المؤكد إذا ما أتيحت له فرصة سوف يكرر ما حدث ليقيم دولة للقره خانيين.

وغضب السلطان. وأمر "تيمور ملك" الذى كان منتصبًا على الباب شاهرًا سيفه:

- عليكم بـ "عثمان خان" احضروه.

وأخذ "تيمور ملك" حاشيته، وتوجه صوب شوارع "سمر قند" الواسعة.

كان "عثمان خان" قد اتخذ كافة استعداداته فى ذلك الحين. لم يكن ليأتمن لشفقة السلطان على روحه. كان سيفر مع المتمردين الذين معه. وربط خزانته بأحد الجمال، وجعله يفلت من باب القلعة الخلفي. كان يريد أن يترك القلعة دون هدوء أوسكون للفوضى.

لم يكن ليقف وينتظر مثل الحمل قرارًا يصدر بحقه. إنه سيقوم بتأسيس دولة قره خانية إذا ما أتيحت له الفرصة فى المستقبل، ها هو فى ذلك الوقت سيجعل شاه خوارزم يتقيأ دمًا.

ولكن استطاع "تيمور ملك" أن يعثر عليه ويجبره. لقد لحق به وهو يهم بالخروج من الباب الخلفي. فصاح عليه:

- قف.

فلم يتوقف "عثمان خان". وعلى الفور أخرج المتمرد سهمًا من كنانته وصوبه ناحيته. توجه إلى "تيمور ملك "وأطلق السهم. انحنى "تيمور ملك" بسرعة. ومر السهم من فوق رأسه وهويئز ويطن، ومن ثم ارتشق صدر أحد الرجال.

ونخس "تيمور ملك" حصانه بالمهماز، وهويقول:

- آآها!......

وفى لمح البرق ارتطم بالمتمرد. وقال له:

- انهد أيها الملك المهرج!..

فسحب "عثمان خان" سيفه. وكان يصيح بكل ما يمكنه قائلاً:

- الغوث... الغوث يا جنودي!

ومع الوقت أخذت مجموعة من الحراس القره خانيين فى التكوين والتشكل. كان هؤلاء الذين ينتظرون القيام بالحراسة على الباب الخلفى للقلعة فى كل وقت. كانوا يستعدون من أجل تسهيل الموقف على "عثمان خان" ليفر على أية حال من الأحوال.

وعندما سمعوا صوت "عثمان خان" بدأوا فى التحرك. وهجموا على رجال "تيمور ملك"وهم يعوون. كانوا متفوقين من حيث العدد. ولكن "تيمور ملك "لم يهتز أو ينخدع من هذا. كان تفكيره ينحصر فى عدم إعطاء "عثمان خان "الفرصة لكى يفر من بين يديه. لم يحدث له حتى الآن أن حنى هامته أمام السلطان. وكان لا يريد أن يحدث ذلك الآن أيضًا. وأخذ يصيح محمسًا جنوده:

- اضربوا أيها الأسود!

ثم سحب سيفه وأخذ يعصف بهم.

وبعد قليل تحطم الحشد الذى يحيط بـ "عثمان خان". أما رجاله فقد كانوا يتقيأون دماً على القره خانيين.

- اضربوا أيها الأبطال، لا تدعوا الفرصة لهم لالتقاط الأنفاس!

- وحتى قطيع الكلاب لا يكفى حتى أن...

- خذ هذه أيضًا، وتذوق طعمها!..

كان التركمان يضربون بسيوفهم فى غاية السرعة، كانوا يحيرون أعداءهم بما يضيفونه من ألعاب حربية مختلفة.

كان "تيمور ملك" قد اقترب تماماً من "عثمان خان". زمجر فيه صائحًا:

- دع سيفك!

وأطلق "عثمان خان" ضحكة مخيفة، وقال:

- تعال، وخذه!

- ستلقى حتفك، أيها الأحمق!

- دون أن أقتلك أصلاً...

- ألا تكفى هذه الشدة حتى...

- خذ!...

وكرر "عثمان خان" هجومه بسرعة. فساق "تيمور ملك" حصانه إلى ناحية، وفى الوقت ذاته انحنى وقفل راجعًا.

- إنك لم تستطع أن تخدعني، خذ هذه لك...

وبسرعة رفع سيفه وبنفس السرعة هوى به على رأس الرجل التى كانت تعلوها خوذة وقد انسحقت الخوذة وكأنها علبة من الصفيح. وتدفقت الدماء من أنف "عثمان خان "لتقع فى فمه. ومن ثم سال على الأرض.

ونظر "تيمور ملك" وهوفى حيرة ودهشة، وقال:

- الله الله! وإلا لكنت قد ضربته بالسيف بصورة غير مناسبة.

وانحنى على جواده. وقام برفع "عثمان خان" وكأنه كان يمسكه من حزامه. وأخذه على ردفيه. وتوجه بالحديث إلى رجاله، قائلاً:

- انهوا العمل مع هؤلاء، وتعالوا إلى الداخل من القلعة.

ورفع المتمرد ركضًا على الحصان من أجل أن يصل به حيًا إلى حضرة السلطان، وعبر الشوارع بسرعة جهنمية، ووصل إلى داخل القلعة.

وأنزل "عثمان خان" من على الحصان وهو يحتضنه. وتسلق درجات السلم كما لوكان قد أخذ على عاتقه ألا ينخدع بتلك الدماء التى كانت تسيل من أعلى رأسه. وصعد إلى مجلس السلطان. ومدد ما كان يحمله على كعوب رجليه.

- وجدته أثناء قيامه بالهرب. وجعل رجاله يهاجمونه. وتقاتلنا، ووصلنا إلى هذا الوضع.

ونظر السلطان "علاء الدين محمد" طويلاً إلى رجله، وسأله قائلاً:

- أما زال على قيد الحياة؟

فانحنى أحد الحضور فى المجلس، ثم أخذ يستمع إلى دقات القلب. وقال:

- لا يزال حيًا.

وتحول السلطان برأسه إلى الناحية الأخرى، وقال:

- العصاة دائمًا ينالون العاقبة التى تليق بهم.

ثم توجه إلى الجنود، وقال لهم آمرًا:

- احضروه.

وقاموا بحمل جسد "عثمان خان "الذى كان مغشيًا عليه - من على الأرض، وحملوه إلى الخارج.

توقف السلطان فترة من الوقت دون أن يتكلم. كان يبدو وكأنه قد غرق فى بحر من الأفكار. ثم نهض على قدميه بتثاقل. وأمسك برأسه وهو واقف وقال مستفسرًا من كل الحضور وعلى حين غرة:

- ماذا تعتقدون فيما يجب أن يكون عليه عقاب أهالى سمرقند؟

وعلى الفور بدأ "طونكج" أحد خانات القبجاق فى الحديث، قائلاً:

- يجب أن يعدموا عن بكرة أبيهم.

وصدق على كلامه "نيشابور" قائلاً:

- نعم الواجب يقتضى عمل ذلك، حتى لا يتجرأ أحدهم مرة أخرى ويشق عصا الطاعة.

كان "تيمور ملك" صامتًا، وكان ينظر إلى اثنين من خانات القبجاق باشمئزاز.

وفى هذه المرة وجه "السلطان محمد "كلامه إليه وحده، وقال:

- ماذا تقول يا "تيمور ملك"؟

- إن خانات القبجاق متعجلين للغاية، وأنا لست على رأيهم. لقد عانى الأهالى تحت وطأة الظلم. ويجب حكمهم بالعدل، وبذلك يعود إلينا صفاؤنا. وحتى العصاة فإنهم يندمون.

- أنت تفكر فى العفوعن العصاة؟

- إن العفو بإرادة سلطانى شىء ممكن.

ووضع السلطان يده على ذقنه، وقال:

- ربما يمكننى أن أعفو عن الشعب، ولكن العصاة أصلاً! سوف نضرب أعناقهم.

- إذا كان الأمر كذلك، فإن معنى هذا يا سلطانى أننا نشعل بمحض إرادتنا النيران تحت إناء الفساد والذى سيغلى لسنوات عديدة.

- ماذا تريد أن تقول؟

- ابن كل متمرد سيقتل، سيصبح عدوا للسلطان وللدولة، ينشأ كل أب وكل قريب وهوملىء بنوازع الانتقام، وعندما تتاح لهم الفرصة فلسوف يهاجموننا.

وارتسمت على وجه السلطان ابتسامة مرة وخفية تساوى في مرارتها السم والتى لم يكن "تيمور ملك" قد رأى مثلها على وجهه وحتى ذلك الحين.

- وفى هذه الحال فان أولادهم وأقرباءهم سيقتلون أيضًا.

- هذا شىء مفجع للغاية!

وتدخل "طونكج خان" دون أن يأخذ الإذن قائلاً:

- يا سلطاني، إن هذا الرجل الذى يقف أمامكم، حاشا إنه ينصب من نفسه معلمً التعقل لكم؛ ولابد من أن يعرف حده.

ونظر "تيمور ملك" إلى "طونكج خان" بابتسامة جامدة، وقال:

- هل وقع عليك إعلامى بحدى يا "طونكج "؟

وضرب السلطان برجليه فى الأرض بشدة، وقال:

- اسكتا لا معنى لهذا التلامس فى حضوري. ألا تخشيا على رأسيكما؟

وارتعش "طونكج" وانكمش على نفسه، وثبت فى مكانه. ولكن "تيمور ملك" لم يفعل الشىء نفسه. لقد أجاب بصوت محتـرم ولكنـه صلب، قائلاً:

- عفوًا..، إنها رأس تفدى الدولة والأمة، ولكنها تسقط بسيف كافر.

ثم انسحب إلى الخلف. وتصرف طالبًا الخروج.

- قف، يا "تيمور ملك"!

وبهذا الأمر توقف على العتبة منتصبًا، وقال:

- أمرك يا سلطاني،

وتردد السلطان للحظة. ثم نظر لـــ "تيمــور ملــك" بــصورة توحى بالحزم والاتزان، وقال بصوت حاد:

- لقد بدأت فى الأيام الأخيرة تتخطى حدودك. وكان من الضرورى أن أسلمك للجلاد منذ وقت طويل، ولكن خدماتك التى أسديتها إلينا فى الماضى منصبة أمام نظري. اذهب، وسلم نفسك إلى السجن. ولسوف أنظر فى الحكم بشأنك فيما بعد. ولكن لا تدع الأمل يساورك، فمن الممكن أن يكون القرار هوالموت.

ضحك "تيمور ملك" ضحكة مريرة. وسلم على "علاء الـدين محمد" وهو يضم يديه إلى صدره، وقال:

- لنمت فداء لك، يكفى أنك تعيش من أجلنا يا سلطاني!

وغادر الصالون دون أن ينبس ببنت شفة.

ونظر خانات القبجاق بعضهم البعض فى ذهول ودهشة. إنهم لم يستطيعوا أن يستوعبوا مثل هذه الجرأة وذلك الأسلوب من الفهم.

ولكنهم كانوا مسرورين على أية حال. إن "تيمور ملك" الذى رأوه كأكبر عدولهم، ربما يكون قد زج به فى السجن تمهيدًا لقتله.

***

عندما رأى رئيس السجن والمعروف باسم "قره جاويش" "تيمور ملك" يقف أمامه، حتى انطلق متخليًا عن أن يصلح من قميصه، وسلم قائلاً:

- تفضل يا قائدى.

كان يعرف "قره جاويش" من وقت طويل. لقد ضربا سويًا بالسيف لسنوات طويلة، كما أنهما خاضا غمار الوغى معًا، ومع ذلك فإنه لسبب ما لم يكن فى أى وقت يكن أحدهما للآخر شعورًا بمحبة أخوة أوحتى صداقة. والآن فإنه كرئيس للسجن ما إن رآه أمامه حتى انطلق دون أن يتحكم فى نفسه من أن يفكر قليلاً قائلاً له: هذا جزاء تصرفك. ثم قال له بصوت مرتفع:

- والآن فإننى لست القائد حقيقة وإنما أنا "قره جاويش".

- هل يمكننى أن أسأل لماذا؟

- اسأل ما شئت، وسأقول إنه تم إرسالى إلى هنا لعزلى ولإغلاق السجن.

- هذا غير ممكن.

- ماذا هنالك فى هذه الحياة غير ممكن حتى يا "قره جاويش". ها هو كل شىء يحدث.

- إن للسلطان عندكم خدمة.

- ليس هنالك من خدمة عندى للسلطان فى الحقيقة...

- أوإلى من؟ كل هذا القدر من السنين من أجل من أعملت السيف فيهم؟

- هل تعتقد أنه من "علاء الدين محمد"؟

- نعم، هل هنالك من أحد غيره يستحق الخدمة؟

- نعم...

- من ذلك الذى وجدته أكبر وأفضل من السلطان؟

- إنها الأمة!..

- الأمة؟ واى... على روحك، معنى ذلك أنك ألقيت بنفسك إلى التهلكة من أجل الأمة. أليس كذلك؟ ها...ها...ها...! أعذرنى، لم أستطع من أن أتمكن من نفسى. إنك تتحدث بشىء لطيف وظريف للغاية، غالباً تود أن تمزح.

وهنا لمعت عينا "تيمور ملك".

- أنا فى غاية الجد. فالسلطان هو الآخر فى خدمة الأمة.

وبدت الدهشة على وجه "قره جاويش"، وقال:

- اسكت فهنالك من ينصت...

- لست أبالى حتى على هذا...

- لقد أثرت امتعاض السلطان كثيرًا، هذا مفهوم.

- فقط كنت أتألم.

- تألمت، لماذا؟

- ليس بالمنطق وإنما بالأحاسيس وهويصدر القرارات. ومثل هذا السلوك كما لو أنه سيفتح عليه أعمالاً كثيرة فى المستقبل.

- كيف تتحدث يا "تيمور ملك"؟

- إننى اتحدث بالصدق، كما يرد من أعماقى وفى نفسى...

وخيم الصمت. وساد صمت عميق وطويل للغاية، وكان يسمع من آن لأخر أقدام البراغيث التى تسير غاوية رائحة على حوائط النادى. والنهاية كسر رئيس السجن جدار الصمت. وأخذ يهز فى شاربه المتدلى، ويقول:

- والله، بالله... إن كلامك غاية فى الصدق مثل ما هو مكتوب فى اللوح المحفوظ.

سكوت يخيم على المكان مرة أخرى... بل، ولكنه لزج هذه المرة. وربما كان هذا البلل وتلك اللزوجة ناجمة من رطوبة السجن ورائحة العفن التى تغمر المكان.

- منتهى الصدق، أو أن ذلك الذى يقول الصدق فى هذا البلد يتعقبونه من تسعة قرى. أليس كذلك يا "تيمور ملك"؟

- لو أن الأمر كذلك، لقتلته أنا أيضًا.

- لقد كدرت السلطان...

- أظن أنه الذى كدر صفوى.

- أعلم، أعلم، لقد كنت على هذا النحو منذ وقت طويل، لم تكن تخفى كلامك عن أحد. وكنت لا تحذر من فتح عينيه على العقد، مهما يكن الأمر. وفى الغالب كان السلطان يتحملك من هذه الناحية...

- غالبًا...

- ولكن صبره نفذ...

سكوت آخر... ولكنه هذه المرة استمر وقتًا قصيراُ للغاية. إنه صوت متشقق يبعث على القشعريرة وهو عندما يتردد صداه فى الممر فإنه يجعل الشخص يولى الأدبار.

فسأل "تيمور ملك":

- ما هذا؟

- إنه صوت درويش. إنه محبوس منذ عام. إنه يصبح هكذا كلما غاب عنه رشده. وعلى أية حال فإن صوته من أجل الاستنجاد بالأصدقاء...

- وما ذنبه؟...

- ذنبه؟ قف ولننظر. إننى غالبًا ما سوف أتذكر. ماذا كان يا ربى؟... ها... وجدته؛ لا شيء، ليس مذنبًا! إنهم يطلقون عليه اسم "عبد الكريم"، إنه يعرف كل شيء. هل تريد أن أغلق عليك الحجرة التى يوجد فيها؟ إنه رجل متشرد. ها هو بعض من التشرد الذى زج به فى القفص. إنه رجل نصف نصف يقظ الآن. إنه يتحدث بلا وعى عن أن يأجوج ومأجوج سوف يسطع نجمهم وأنهم سوف يستولون على هذه البقاع. وهو لا يتخلى عن أنه لم يقل ذلك من أجل السلطان. كما أنه يبحث فى مسألة أنه سوف يموت فى جزيرة منعزلة.

- ياه!...

- هكذا هو الحال يا "تيمور ملك"، من يبقى هنا لفترة طويلة ولا يؤخذ عقله؟ ها هو ذا مكان غريب وعجيب. حتى أنا لست مسرورا هاهنا. ألا يريد الإنسان أن يرى شمسًا كهذه؟ ولكن أين؟ إنه شيء ليس بإمكانى. إننى محكوم على بالبقاء هنا، مثلى فى ذلك مثل المحكوم عليهم. والفرق بيننا أننى أقضى محكوميتى هنا فى مقابل المال.

- إذن لتغلق على الباب أيضًا لأكون بجانبه.

- الدرويش المجنون؟

وبدأ صوته يخرج متحشرجًا:

- الدرويش المجنون أوعبدالكريم، مهما يكن، اغلق على الباب معه. هل هذا محظور عليك عمله؟

- أبدًا، ماذا يمكن أن يحظر؟ إن المحكومين المصفدين فى الأغلال نغلق عليهم مثل هذا النوع من الحجرات، وأنا لا أضرب عليك الأغلال.

- لماذا لا تفعل ذلك؟

- ماذا دهاك أيها الرجل ذوالدم البارد؟ ياهو!...

- وأنت حرارة دمك يضرب من رأسك، عليك أن تنحى جانبًا أفكارك الصائبة.

- لنر أيها الفليسوف، تقدم..

- ماذا حدث لك أيها الرجل العجوز؟ قل، هل سوف تغلق الباب على مع الدرويش المجنون، أم لن تغلقه؟

- فى الحقيقة إن أغلقت عليك باب الحجرة فسوف يأخذ ذلك عقلك؟...

- ما معنى هذا؟

- لقد مرت علينا أحداث سيئة وأخرى طيبة. إن من يدخل على هذا السجن لا يخرج سليمًا بسهولة. إنهم ينسون ويذهبون. وأنا لن أتركك للموت بيداى..يا...

ولمعت الأضواء فى عينى "تيمور ملك"، وقال:

- هل أنت واع ومدرك لما تقول؟

- بكل تأكيد...

كان السجن يكشر عن أنيابه. فاستل "تيمور ملك" سيفه، وقال:

- إذا لم تنفذ أمر السلطان فى الحال، فإننى لن أتردد من قطع رقبتك وأطيرها فى هذا المكان.

وامتقع لون "قره جاويش"، وبدأت شفتاه فى الارتعاش، وقال متمتمًا:

- إننى أريد أن أخلصك.

- أى أنك تعارض أمر السلطان.

- حاشا...

- إذن فعليك أن توقفنى فى هذه الحال. فلقد أرسلت من أجلك هذا، انجز مهمتك.

تخلص "قره جاويش" من بعض التردد الذى أصابه، ولكنه لم يكن يقدر على الحركة. وأراد "تيمور ملك" سيفه. ومده وهو يمسكه من طرفه، وقال:

- خذ سيفى، إن المحكوم عليهم لا يحملون السيوف.

- ولكن...

فقطع كلامه، وقال:

- قلت لك انجز مهمتك.

ورأى القائم على السجن أنه لا حيلة له في الأمر. وكان الرجل يرى وكأنه قد صمم على أن يجعله يوقف نفسه كيفما كانت الحال.

ومد يده إلى السيف بحياء، وقال:

- اعطه لى...

وأخذ "تيمور ملك" نفسًا عميقًا وهو يستريح، وقال:

- الآن أنا تحت رحمتك وبين يديك. ولو سمحت ضعنى بجانب الدرويش المجنون...

أخذ "قره جاويش "فى شد شاربه وهو فى حيرة من أمره. وقام بدفع عمامته المتسخة إلى الخلف من رأسه. وقال:

- إيه... ما دام هذا هو ما تريد، فليكن. سر أمامى وننظر.

وسمع صوت صراخ حاد آخر تقشعر منه الأبدان. ووصل إلى مسامعهم صوت خوار من الأمام. ومع ذلك لم يكن يفهم شىء قط بدرجة واضحة.

وقال السجان:

- لوأردت فليس بإمكانك أن تدخل هذه الحجرة.

وهز "تيمور ملك" رأسه علامة النفى.

- إننى اريد أن أدخل.

- أنت تعلم.

وبعد قليل كانا يقفان أمام الحجرة. وقام رئيس السجن بفتح الباب الحديدى بمفتاح ضخم، وفتح الطريق أمام "تيمور ملك "منتحيًا جانبًا. وقال:

- هنا ليس هو القصر يا "تيمور ملك"، ومرة أخرى عليك بالهدوء. ولسوف أمد من طول السلسلة التى تكبلت من قدميك، وعلى ذلك يمكنك أن تتجول فى الداخل براحة أكثر. ولو أردت شيئًا فلتنادى علينا، ولا أتردد فى تنفيذ أوامرك بكل سرعة. والآن كل ما يمكننى أن أقوله لك هوكلمة واحدة:

- حفظك الله وخلصك.

ونظر "تيمور ملك" إلى السجان نظرة ثاقبة. لم يكن يتبين له أنه كان يبكى من خلال صوته المرتجف. ووضع يده على كتفه، وقال:

- سلمت يا صديقى. لم تكن من قبل كما أراك الآن.

وجثا "قره جاويش "على ركبتيه. وعثر على حلقة السلسلة بأطرافه. وسأل بصوت متناثر:

- منظرى ظالم للغاية، أليس كذلك؟

- نعم حقًا ما تقول، إننى لم أسر منك، والآن فإننى أرى أنك داخل هذا العمل الجاف تحمل قبًا رؤفًا.

- لم أكن كذلك منذ القدم، شجاعًا ومقدامًا. وفى الغالب فإننى قد تعلمت الأسى والألم مما يحدث هنا للسجناء من ألم. هذا هوكل الأمر، استودعك الله.

- إلى الملتقى يا "قره جاويش"...

ومرة أخرى نظر رئيس السجن إلى صديقه القديم للمرة الأخيرة، ثم قال مرة أخرى:

- ليخلصك الله. ثم غطى الباب وهو يحدث صريرًا، ثم أغلقه بالقفل ومن ثم انسحب وخرج.

إن باب الغرفة الذى كان يتمدد مثل القوس الفولاذى قد جعل أعصابه تتوتر. والمفتاح الذى غاص فى القفل أصبح وكأنه جله أو نقذوفة، حين وقع على رأس. وأما أحد الذين استيقظوا من نومهم، فإنه صاح كالمخمور:

- لماذا أنا هنا؟

لم يكن ليذكر ما هو الذنب الذى اقترفه. بيد أن السجانين كانوا يعدون من أجل أن يعاقبوهم على ذنوبهم. وإذا لم يكن مذنبًا، فما هوسبب تواجده هنا؟

استراح قلبه. لم يكن هنالك من أثر للأحاسيس المقبضة والتى تجعل هنالك شعورًا بعدم الراحة تمنحه للذنب والإثم. ومثل أى وقت فإنه كان مليئًا بحب الوطن والحمية على الدين. حسنًا، ولكن هل قاموا بإغلاق هذا الباب الحديدى- الذى يصدر صريرًا - عليه كمكافأ له على شعوره الطيب هذا؟ أبدًا، عليه ألا يفكر بمثل هذا. إن السلطان إذا وجد أنه مذنب، فمعنى هذا أنه مذنب. وعليه أن يذكر نفسه بهذا.

إن داخله كان يشتعل ولكن ليس بسبب إغلاق السجن عليه. لقد كانت هنالك أحاسيس عارمة تعصف به فى قلبه، كما تعصف به فى عقله.

كان يحزن لما آل إليه وضع الأمة وما وصل إليه حال البلاد. كان يفكر فى أن السلطان "علاء الدين محمد" - سواء كان معه الحق أم لم يكن - صار يزج بالناس فى السجن من قبيل العادة. كان يود ألا يكون ظالمًا، وكانت له الرغبة فى ألا يتحمل المصيبين، وأن يمنح الاعتبار للملتوين والمعوجين. ومن الطبيعى أن السلطان عليه أن يكون هو الذى يكافىء وهو الذى يعاقب. فقط لابد أن يستخدم هذين المفهومين بالعدالة حتى لا يقترب من خطوط الظلم. وكانت رؤية

"علاء الدين محمد" وقد أصبح الأن على شفا هذه الخطوط يسبب ألمًا واضطرابًا لتيمور ملك إلى أقصى مدى.

مما لاشك فيه أن السلطان قد انطلت عليه ألعاب خانات القيجاق. كما أنه قد انخدع أيضًا بحيث إن الذين يتكلمون بصدق وأمانة تامة كان يتم الزج بهم فى السجون وكانت تضرب عليهم السلاسل لمدة من الوقت. ترى هل كان الأمير "جلال الدين" فى عهد والده قد انتبه إلى ذلك وأنه كان سيحيل ذلك دون أن يكون ظالمًا؟ إن شعاع الأمل الوحيد فى هذا الوقت كان يصدر فى شخص "جلال الدين". ولكن لم يكن هنالك من احتمال كبير لأن يستمع إليه السلطان. لقد كان "جلال الدين "قد تم عزله من أجل أن يتم استبعاده من ممارسة أية أعمال من أمور الدولة. وكان ذلك يعد هوالآخر مصيبة أخرى. ولا قدر الله، إذا جد أمر من الأمور للسلطان محمد، فلسوف تظل الإدارة بكاملها فى يد ابنه الصغير "أوزلاق شاه"، وبالتالى تكون فى يده "تركان خاتون". وها هو ذا أمر لم يكن طيبًا على الإطلاق. إن بذور العرقية التى تنمو وتترعرع فى البلاد فى الوقت تموج وتهيج كل ناحية، سوف يعقب نتائج وخيمة. هنالك الفوضى من ناحية والعصيان من ناحية أخرى، ومن ناحية هنالك الجنود ذو الأحضنة الصغيرة التابعين لجنكيز خان... وعلاوة على هذا وذاك هنالك حشد من الذين تم الزج بهم فى السجون...

– هيييه!...

وصل هذا الصوت إلى مسامع "تيمور ملك". كانت هنالك ظلالة استكتب قريبة منه للغاية.

- أنت أيضًا وقعت فى يد الظالم... هاه!؟

- أى ظالم؟

- الرجل الذى سيصبح سلطانًا!

كان يصيح بتمرد:

- أليس هذا الرجل ظالمًا؟

- وااى!.. إذا كان الأمر كذلك فما هو عملك ها هنا؟ وإلا لكنت قتلت ذاك الرجل؟

- إننى لا أجرح ولا حتى ذبابة خارج نطاق الحرب.

- إذن شاركت فى أعمال السلب والنهب؟

- احرص على كلامك، إننى لست نهابًا ولا سلابًا.

- فهمت، فهمت، إذن أنت فى الغالب دخلت إلى حرم السلطان...

- قلت لك انتبه لكلامك، يا والدى...

- آذيته؟ أليس كذلك؟ إن لم يكن كذلك، فما هو الأمر أيها الرجل؟ إن لم تكن قد جئت ولديك الرغبة فى أن تحقق شيئًا بتؤدة وثبات؟

- لقد عرفت شيئًا جيدًا...

- هل جانبنى الصواب فيما أسمع!

- أبدًا، لقد سمعت الصواب.

- لقد أتيت إلى هنا بمحض إرادتك، أليس الأمر كذلك؟

- لقد أمر سلطانى، وعليه جئت إلى هنا.

- دون حارس

- أنا حارس، وهى أوامر سلطانى.

وأخذ الرجل العجوز فى التمسيد على ذقنه الكثة التـى نزلـت حتّى صدره. وخشخش القيد الذى كان فى رجله عندما أخذ يـسحبه. وركع على الأرض.

- هيبي.. يا إلهى! الذين يطلقون على اسم المجنون امنحهم وأحسن إليهم بالعقل هؤلاء عبيدك الذين يتظاهرون بالتعقل، ولا تعرضهم لأن تصفد أرجلهم فى الأغلال.

ومن ثم اعتدل مرة أخرى بتثاقل. وضرب بيده علـى صـدر "تيمور ملك"، وقال له:

- ما هو الداعى لذلك أيها الشاب؟

- السلطان يعلم.

وتراجع إلى الخلف قيد خطوتين.

- أنت مجنون؟

وأخذ "تيمور ملك" فى الضحك مما حدث:

- ربما، فالمجانين يطلقون اسم المجنون على العقلاء الذين يعيشون بينهم.

- أى هل ذلك لأنك ترى أنك قد أصبت بمس من الجنون من هؤلاء الذين يعيشون فى الخارج؟

- وإن لم يكن كذلك فلأنهم قد بدأوا فى التصرف بجنون.

- كان ذلك واضحًا.

- ما هذا الذى هو واضح؟

- فى ذاك الوقت كانوا يهوون فى ذلك الموقف إذا ما آمنوا بى. لم يكن السلطان محمد كسابقيه على هذا النحو. لقد بدأ الظلم. كما سحق الناس من جراء فرض الضرائب الباهظة. لقد منح القبجاق اعتبارًا واحترامًا أكثر، كما منحهم المزيد من الصلاحيات. لقد وقع برأسه فى البلاء حتى أنه لم يعد بإمكانه التخلص منهم. وحتى هو نفسه لن يتمكن من تخليص وإنقاذ رأسه أيضًا.

- أنت تتكلم بثقة زائدة، ولا يعلم الغيب سوى الله.

- آمنا، ولكن الحاصل أن الله تعالى يعلمنا مثلما نحن الدراويش ببعض الأشياء عندما أغمضنا أعيننا مع مادة العقل.

وسحبه من ذراعه، وقال:

- اجلس، حتى نبث بعضنا آلامنا. إنهم يطلقون على اسم المجنون، أو أين هم من الفراسة التى تفرق بين الولى والمجنون؟

- معنى ذلك أنك تقول إنك من الأولياء؟

- أبدًا، فقط أردت أن أوضح أن هؤلاء الذين يعيشون فى الخارج لا يفرقون بين الولى والمجنون. ولو قلت شيئًا لا تستوعبه عقولهم فإنهم على الفور سوف يصمونك بـــ "الجنون". ويأتى ذلك لأنهم يخشون من إقلاق راحتهم، وهم يسحبون أنفسهم عن التكاليف التى تنتج عن اتخاذ بعض التدابير.

- إذن ماذا قلت حتى يقولون عنك مجنونًا؟

- اجلس الآن، ولسوف أشرح لك.

وجلسا جنبًا إلى جنب. وبدأ فى الحديث قائلاً.

- لقد تجولت كثيرًا. وأنا فى الحادية عشرة من عمرى كنت آخذ حصانى وأسير فى الطرق. وحتى سن الخمسين، أى أن ذلك التجوال قد استغرق نحوأربعين عامًا دون توقف. وقد كان طريقى إلى بلاد "يأجوج ومأجوج"، حيث تعرفت على "جنكيز خان".

وقفز "تيمور ملك" من مكانه، وقال:

- أتقول "جنكيز خان"؟

- نعم، جنكيز خان. كان حتى ذلك الوقت يطلق عليه اسم "تموجين". كانت عيناه جسورة للغاية. وطبقاً لما قالوا عنه، فإنه عند ولادته كان يحمل بين راحتيه خثرة من الدماء. وتوقع الكهنة أن تسيل الدماء كثيرة على يديه. ولقد حدث وأراق الدماء... وهناك المزيد من الدماء ليسفكها...

ثم تنهد، وواصل حديثه قائلاً:

- لقد استثار فضولي، وبحثت، وسألت الناس عنه. وتعرفت على الذين يعرفونه، وتباحثت مع الذين تباحثوا معه، وحصلت على هذه المعلومات.

وبعد أن تفادى نوبة من السعال على وجه السرعة، تابع حديثه، وقال:

- لقد ولد فى العام الخمسين بعد الخمسمائة من عام الخنزير فوق أراضى "دولون بولداق" التى تقع على الساحل الأيمن من نهر "أوننون". وهو ينتسب إلى القوم الذين يطلق عليهم الصينيون اسم "التتر السود". والده كان يسمى "يسوكاى - بغاتور" وحينما وافته المنية كان "تموجين" فى الثانية عشرة من العمر. وعندما مات "يسوكاى - بغاتور" تغرقت القبائل والتى كان يترأسها. وبدأ "تموجين" الصغير يكسب قوته ورزقه مع أمه وإخوته من خلال صيد الأسماك من نهر "أوننون".

وعندما كبر "تيموجين" سعى لأن يجمع حوله مرة أخرى القبائل القديمة التى كانت تحت إمرة أبيه. ونجح فى أن يجذب عددا منهم إليه. وصعد إلى الجبال، وقطع الطرق، واشتغل فى قطع الطرق. وكلما مر الوقت كان عدد الرجال الذين يعملون معه فى ازدياد. وأعلن نفسه خانًا. وجمع جنوده وصفهم أمامه، وجعلهم يقسمون، قائلين:

- بعد أن أصبحت حاكمًا علينا، فإننا لن نخشى شيئًا، حتى لو خرج علينا الأعداء مثل حبات الرمال. سنحارب بجسارة فى الصفوف الأولى. وسوف نبذل أرواحنا فى سبيلك طواعية دون تردد. وإذا ما استولينا على امرأة جميلة أوفتاة مليحة أو أى نوع من أنواع الخيول، فلسوف نتركه كله لك.

وإزاء هذا قال "جنكيز خان" لهم:

- كل ما تستولون عليه من قطعان الخيول والأغنام، مع النساء والأطفال سوف أفرقه عليكم. سوف أرتب لكم صيد قطعان الماشية، ولسوف أسوق أمامكم حيوانات الغابة المختلفة. سوف أهد الجبال، وأفتح المدن. سوف أسلب لكم الأماكن التى تريدونها ولسوف أقتل حسب طلباتكم. ولسوف يصبح من حقكم الطبيعى أن تأخذوا خيول العدد والذى نهزمه وأن تمتلكوا نساءهم.

وأخذوا يصيحون فيما بينهم معلنين عن سعادتهم، وهم يقولون:

- لو.. لو.. لو..

وأقسموا بإله السماء.

- إله السماء، وما هذا؟

- إن المغول لا يؤمنون بأن الله واحد. فهناك رب للأرض وآخر للسماء وغيره من الآلهة التى يفرقون بينها بتلك المسميات.

- حاشا!...

- مع الأسف، ولنعد إلى موضوعنا الأصلى. نعم، لقد أقسموا. وازداد الذين معه زيادة كبيرة، وكثروا بشكل كبير. وقام "جنكيز" بتعليق ذنب تسعة قراريط كعلامة على الخانية أمام ضمته. ولقد تقاتل فى البداية مع قبيلة "بوير - نور" الذين هم من عرقه مع قبيلة "كراييت" المسيحية مظهرًا اتخاذه جانب الصينيين. ثم اتحد مع آخرين ووقف ضد الصينيين.

- ودارت حرب دامية استمرت عشر سنوات. وفى أوائل عام الدجاجة (١٢٠١) اتحد مع "جاموكا" أخوه فى الدم، وأعلنه حاكمًا بلقب "كورخان".

وبعد ذلك اتسعت الهوة بعد ذلك بين الأخوين فى الدم. وترك "جنكيز" من قبل الغالبية المؤيدة له. وهرب مع نفر قليل من الذين صدقوه. وانسحب صوب سواحل بحيرة بالجبيونه. وظل هنالك فترة من الزمن وهو مضطر للبقاء وسط الأوساخ ويشرب الماء المالح.

- وقد أعمل الحيل والدسيسة وأشاع النفاق والمنافقين بين جنوده "جاموقا" ومرة أخرى جمع الرجال، وفى هجمة استطاع أن يفتت شمل جيش "جاموقا". وتحول عدد كبير منهم إلى جانب "جنكيز". ومرة أخرى قوى شأنه. فكان يقوم بهجمات صوب الشمال والجنوب. وسحق من وقفوا فى وجهه. وسار هنا وهناك وهو يحرق ويهدم وليسحق. واضطرت القبائل المغولية الموجودة فى الشرق من الاعتراف به حاكمًا عليها.

وأخذ الدرويش المجنون نفسًا عميقًا، وتابع حديثه متسائلاً:

- هل حكايتى خنقتك؟ أيها المجنون الذى حضر برجليه إلى السجن...

ووجد "تيمور ملك" الفرصة مواتية للتدفيق بشكل أفضل فى الرجل بعد أن تعودت عيناه على الظلام بشكل جيد. كانت عيناه الزرقاوين تشعان بشدة. لقد كانت عينى الرجل غاية فى الذكاء وليستا عينى رجل مجنون. وقال له:

- تابع الشرح يا والدى الدرويش. استمر. إنك تقول أشياء كثيرة أردت أن أعرفها.

- إنها ذاتها الأشياء التى زجت بى فى السجن لأننى تفوهت بها. وعلى أية حال، فإنه لم يبق هنالك من شىء لم يفعلوه بى. استمع...

ابتلع ريقه، ثم قال:

- وفى عام النمر (١٢٠٦) شن هجومًا على قبيلة النايمان. وكانت هذه القبيلة أقوى القبائل فى المنطقة. وهزمها. وتفرق جيشها. ومن ثم وسع من حكمه حتى عزب بلاد المغول. وفى العام ذاته اتخذ لنفسه لقب الإمبراطور. وكان من أطلق عليه هذا اللقب هم الصينييون. بيد أن "جنكيز" لم يكن امثل كل إمبراطور فى فترة النشأة يجلس على مدينة واحدة. أنه كان ينام ويصحو فى الخيمة. وكان يدخل الحروب بشكل دائم ومستمر. لقد صارت الحرب هى مصدر متعته الأولى.

- لقد كان شجاعًا، مقدامًا، ولئيمًا. كان ينام على فراش على الأرض، وكان يلبس طرقة كثيرة الرقاع. كان يأكل ما يأكله جنوده. ولم يكن يفرق بين أى من أتباعه. وكان بمثل هذه التصرفات يحبب جنده فيه. وطبقًا لإيمانه الخاص فإنه كان من الممكن أن يعد من المتدينين. كان يصعد إلى أعلى مرتفع شديد الوعورة، ويؤدى أشياء يفهم منها أنه يناجى ويتوسل إلى إله السماء... كان واسع الدراية. كان يقول: إن الإنسان الذى يمكنه أن يدير شئون عائلته يمكنه أن يدير جيشًا. لا فرق هنالك بين ادارة عشرة أشخاص أو عشرة آلاف أو حتى مائة ألف شخص. أما ارتباط الابن بأبيه داخل جماعة ما، أوالأخ الأصغر بأخيه الأكبر، أوالعروس بحماتها، أوالمرأة بزوجها أوالجند بقائدهم، فإن مثل هذه الجماعة لا تقع على الأرض أبدًا.

- وبمرور الوقت بدأ يقترف الظلم من أجل أن يؤسس المجتمع الذى كان يرغب فيه. ومع ذلك فقد نجح فى أن يتحكم فى الجميع فى ظل هذا الوضع داخل إطار من النظام المطلق. هل تكن له التقدير والاحترام أم الكراهية والحقد؟

وجعد الدرويش المجنون من جبهته، كما أدخل أصابعه فى ذقنه، وأضاف:

- وحتى هنالك مسلمون يقفون معه. "دانشيد حاجب" على سبيل المثال. إنه كما لو كان الذراع الأيمن لجنكيز. لقد سمعت معظم القصة منه. كانت هنالك قافلة. وكان رجال جنكيز يقومون بعمليات سلب ونهب، وتجمعوا جميعًا حوله وأحضروه إليه. وسأله عددًا من الأسئلة. ولما علم أنه لا يحمل رأسًا فارغًا فإنه تخلى عن مسألة ضرب عنقه وأخذه ليكون فى خدمته. ومنذ ذلك الوقت وهو يلازمه ولا يفارقه.

- لا أفهم كيف ينفذ أحد المسلمين أمرا لعابد الأصنام!...

- ولا أنا أيضًا..! وكلما كنت أتوجه إليه بمثل هذا السؤال كانت عيناه تدمعان. وكان يقول إن ذلك راجع لأسباب عديدة. ولكن لم أجد بينهما واحدًا...

- هل رأيت جنكيز أيضًا؟

- مرة واحدة فقط.

- عرفه لنا...

- طويل، ولكن طويل للغاية... إن كل شخص فى بلاد المغول هو الآخر طويل. ولكنه أطول من أى شخص آخر. وكل جنوده يكنون له التقدير وإن كان قليلاً. "إن عيونه خضراء، ولكن أى عيون... إنها تتلألأ... أظن أن نيران جهنم تحترق بداخلها. وله ذقن بها بعض الخصلات.

إنها طويلة. وفى بعض الأحيان يشدها إلى ما خلف أذنيه. والآن فإنه يعد ذا فكر!..

- هذا غير مهم، لنصل إلى الأساس، إن قصتى لم تنته بعد. أشعر بداخلى وكأنك ستتخلص من هذا الأمر فى القريب العاجل. ولربما أصبحت فى حاجة ذات يوم لهذا كله. فلتتذكرنى. ونحن نستصغر "جنكيز خان" الذى يخصنا. وهذا خطأ كبير أيضًا، وهم على هذا النحو يشتغلون ويعملون...

- اشرح يا أنت...

- استمع جيدًا... طبقًا لما قاله "دانشمند حاجب" فإن "جنكيز خان" لا يقرأ ولا حتى يكتب. ومن ناحية اللغة فإنه لا يعرف سوى اللغة المغولية. وأنا كذلك أتحدث بهذه اللغة. إنها معرفة مشوشة ولكنها طيبة على أية حال. وجنكيز يتحدث بهذه اللغة. ولقد رأى الختم عند النايمان واستخدمه للمرة الأولى، ثم تبناه بعد ذلك. ولديه الآن

خاتم ذو ختم كبير يضعه فى اصبع (الشهادة) السبابة. وهو يبصم به فى أعماله. كما أنه يختم به تحت فرمانه، وكذا تحت إعلانات الحرب...حسناً، إنه فى معظم الوقت يهجم دون سابق إنذار.. يا.. ليس مهمًا.

"وأول وأكبر حرب شنها كانت علـــى دولـــة يطلـــق عليهـــا الصينيون اسم "هس هسيا" والتى نسميها نحن "طانغور". وقـــد نجـــح فيها. وقد استطاع إمبراطور "هس – هسيا" أن ينجو برأسه من القتل عندما جعله قريبًا له وذلك بإعطاء جنكيز إحدى بناته. ثم وقعت بعـــد ذلك معارك مع "البيكنج" وبعد ذلك بعام عاد مرة أخرى إلـــى بـــلاد المغول.

"فى ذلك العام هزم "آرسان خان" حاكم القارلق. وكانت تلـــك المرة الأولى التى يحطم فيها دولة إسلامية. كما أنه استولى فيما بعد على المكان المسمى "آلمالق" الموجود فى وادى إيلى. واستـــسلم لـــه الحاكم. وفى تلك الفترة استطاع أن يتحكم فى نواحى "خوارزم شـــاه" وما وراء النهر. وعلى هذا تشتت "القره خطاى". كذلك استولى على البقية الباقية وهزم "قوجلك "حاكم النايمان.

وأصاب التعب إلى حد ما الدرويش المجنون، وأخذ يمسح ذقنه بجلبابه الذى تدلت خيوطه من الجوانب. ومسح حبات العـــرق التـــى احتشدت على جبهته.

"والآن إلى هذا الحد. ولكن هنالك المزيد مما أشرحه".

اعترت الدهشة على وجه "تيمور ملك" من علم هـذا الرجـل وكيف يكون هنالك من عالم على مثل هذا العلم. وكان على عزم بأن يعرف ويتعلم المزيد من الأشياء. فقال:

- استمر، استمر، فأنا جد سعيد ومسرور.

وبدرت من العجوز ضحكة عالية، وقال:

- إننى أرى للمرة الأولى من لديه الرغبة فى الاستماع إلى الدرويش المجنون. إنك حيرتنى حقيقة، أيها الشاب. وحتى الآن لم يحن الوقت لكى أسألك عن اسمك.

- اسمى "تيمور ملك".

- هيه!..

- قلتُ "تيمور ملك".

- الآن تحيرت أكثر بكثير. تحيرت واندهشت بالتأكيد، لقد سمعت بهذا الأسم حتى فى الصين. إنه بطل، ماكر، لا يحذر عينيه من العقد... إنه "تيمور الكبير "القائد الخوارزمى... والمعنى أنه قد زج به فى السجن أخيراً؟..

- هذا ما حدث...

- إننى أحاول ألا أتعجب، يا...، إننى أبتسم مرة أخرى على تقلب قدرك. والسلطان الآن يقوم بالزج بمن يسيرون فى طريق الدين والملة!.. ها.. حسناً وما هو ذنبك إذن؟

- ذنبى...جرأة احتسبت ذنبًا...

- تسلق فى غير محله...أنت على الأرض فى الأساس، ولكن صعود أوخروج أوحيلة فهمت أواستقبلت فى غير محلها أو بلا مبرر، أفهمت؟

- نعم فهمت...

- إنه شىء صعب أيها الشاب، يمكن أن يموت الإنسان بسهولة من أجل الدين، ولكن من الصعب أن يموت من أجل شخص. إن السلطان عندما يجمع الجنود، يجعلهم يتركون القول بـــ "تعالوا لتموتوا فى سبيل الله". وحسب ما تعلمته من رئيس السجن فإنه قد أصبح ينادى بالقول: "تعالوا لتموتوا من أجل السلطان". هل هذا صحيح؟...

- صحيح، وكم هو شىء مؤسف أن يكون ذلك صحيحًا...

- كان الصفاء يسود القصور، وقد خلد الراحة والدعم حتى أنه لا يريد أن ينهض للحرب والقتال، أصحيح هذا؟

- آه صح...يا!..

- أوه! إن هذه الدولة تتحطم، يا صديقى...

- ماذا تقول؟

- ماذا علىّ أن أقول، إن تطور التاريخ هو ذا... هل قمت بشرح أمر "جنكيز" فى مكان فضاء. لقد قلت إنه ينام على فروالدببة،

وهويأكل مما يأكل الجند، كما أنه يلبس ما يلبسوه. ولهذا فإن الجند يحبونه، كما أنهم لا يتوانون عن تقديم أرواحهم فداء له. إذا ما أسلم سلطان نفسه إلى الراحة والدعة والحظ والحرير، فـ (آه) على حاله! إن معنى ذلك أنه يدفع بنفسه وملته إلى الهلاك.

- إنك تقول شيئًا مؤلمًا أيها العجوز، ولكن لا خلاف على ما تقول. فأنت على حق، من الأرض حتى السماء. ولكن الإنذار أوالتحذير لا يجدى نفعًا، ماذا عساك أن تفعل؟

- يكفى جرأة كهذه أن تودى بصاحبها إلى الحبس، أليس كذلك؟

- نعم تكفى، يا... إنها تكفى حتى إلى أكثر من ذلك، إلى الإعدام مثلاً...

- تنهار هذه الدولة...

- خذ نفسك من فمك.

- اصغ إلىّ. لقد تجولت كثيرًا، ورأيت الكثير، وتعلمت الكثير. فاحذر من التشاجر مع "جنكيز". إنه لا يوجد لدى هذا الشخص شيء يسمى الإنصاف. إن لديه القابلية لأن يكون فاتحًا للعالم، ربما، ولكن ليست لديه شوكة الحكام ولا وقار إمبراطور. إن التسلية الوحيدة بالنسبة له هى قتل الناس. ولا يشبع من مشاهدة الأبرياء وهم يقطعون ويرمون إلى النمور. ولو مهد الطريق أمام هؤلاء يومًا فلسوف يدافعون عن أنفسهم بعزم. الحجر يقوى فوق

حجر والرأس على الكتف. إن بخارى هى مهد العلم. أما جنكيز خان فهو عدو للعلم. إن الكتاب الذى يقع فى يده يقوم بحرقة. وهو الآن لا يحب المسلمين أبدًا. إنه يدخل مساجدنا بخيوله، ويجعل من أئمتنا سائسين لخيله. ويدنس عفة بناتنا. فهل يمكنك أن تتحمل مثل هذا، أيها القائد؟

وهب "تيمور ملك" من مكانه. ووضع يده على خصره كما هو معتاد، ولكن لم يكن سيفه معه، فقط أخذ يتمتم...

- حفظنا الله ووقانا!...

- إن شاء الله يحمينا. ولكن الانغماس فى تصرفات خاطئة يفتح الطريق أمام الكوارث. إننى أخذت أشرح كل هذا على مدى سنوات ولكن لم يستمع لى أحد.

وإلا فليس هنالك من سبب يدعو لعدم الجنون فى حقيقة الأمر. إن السلطان يغيظنى. ليس من أجل أنه ألقى بى فى السجن. وبقى أنه حتى لم يزد على ذلك. ومهما يكن...، فإن الذى يغيظنى هـو لمـاذا يخرج خارج إطار أوامر الدين الإسلامى؟...

- من أين علمت بذلك؟ إن السلطان "علاء الدين محمد "يقيم الصلاة، وهو يصوم....

وهز العجوز يده... وقال:

- لا، لا تفعل، يا والدى، ليتك لولم تفعل...هل الدين الإسلامى دين ينتهى هكذا بالصلاة والصيام حتى أن...؟ إنه نظام... نظام

للحياة... لو تم تطبيقه فلن تكون هنالك من مسألة لا يمكن إلا أن نحلها... وحتى جنكيز نفسه قد صنع له قوانيننا حسب اعتقاده. إن قانوننا هو "القرآن"... لا تفرق قيد شعرة، اسع إلى السلامة. الأشياء الضارة محرمة. حرام على أى شخص كل شىء لا يملكه. لا تكن شبعًا فى حين يكون جارك جائعًا... كم هى قاعدة علوية. اقرأ، تعلم العلم. لقد ذهبت إلى الصين من أجل العلم. كما ذهبت إلى "ماجين" ولكن عندما جئت إلى هنا ألقى بى فى السجن. وعلى مدى ما يقرب من العام وأنا أنسج فى شلات البلايا والمصائب ها هنا. أننى أعرف الحقيقة ولم أتمكن من أن أجد الشخص الذى أحكى له. لماذا وضعت فى السجن؟ حين يقال لنصنع الحاجب فهل تقولون هل أخرجنا العين؟ ولكن شكرًا لله، فلم أفوت علىّ صلاة على أية حال من خلال تيممي. إننى أمضى الوقت فى الكشف والاكتشاف. إن السجان يعطينى المياه على قدر حاجتى للشرب فقط. وحتى فى بعض الأحيان فإنه ينسى ذلك أيضًا...

وهز رأسه على الجانبين، وقال:

- لا شىء فى هذه الحياة أسوأ من النسيان، يا ولدى... لا شىء أسوأ منه أبدًا.

...

واصل شاه خوارزم "علاء الدين محمد" حياته وقد نسى "تيمور ملك". وعلى أية حال كان قائده الكبير يوجد فى ناحية من السجن وقد

قيدت رجليه فى الأغلال وفى الوقت نفسه يداوم على الحصول على الفيض من الدرويش...كان الآخر مشغولاً فى إقناع خانات القبجاق.

ومع مرور ستة أشهر لم ير من اللازم أن يتزحزح عن مكانه. ولم يكن يرى فى الخطابات التى كانت تأتى من والدته أنها تسبب إفسادًا لراحته، حيث إنها كانت من قبيل المداعبة.

كانت "تركان خاتون "تعلن أنها قد أصبحت فى الطريق لتنفيذ الأعمال فى "قوركان "وأنها سوف تسحق عددًا من البكوات الذين تمسكوا بالقيام بالتمرد - بواسطة ومساعدة القبجاق، وكانت تكتب أنها تنظر وتسهر على راحته.

ومع ذلك، لم يكن خانات القبجاق يفكرون على هذا النحو. وكلما مر يوم كانت الأخبار السيئة ترد من بلادهم، فقد كانت قلقة بشأن الذى يتعلق بالقره خطاى من أنهم انتشروا فى السهول وأنهم استولوا على المراعى الخضراء لخيولهم.

وذات يوم ذهب "طونكج خان" مع "نيشابور" إلى حضرة "علاء الدين محمد"، وكانوا فى مرة يشكون آلامهم. قال "طونكج":

- سلطانى، سيدى، ملكى... على حين يقوم "القره خطاى "بالاعتداء على بلادنا، ومنذ زمن طويل نقف مطأطئى الرأس فى المكان المسمى "سمرقند". إن أوامركم على الرأس والروح، ولكننا مضطرون الى أن نفكر فى بلادنا أيضًا، ولنقم بالحرب على هذا

الجانب أيضًا. ولنعلم أعداءنا حدودهم، ونخلص أبناء جلدتنا. وهذا شأن من شئون عظمتهم. وإذا لم تقم بحمايتنا، فمن يحمينا؟ فهل يليق بشأنكم أن تتركونا كاليتامى؟

كان السلطان يجيب بنفس الإجابات التى يقولها فى كل وقت:

- صبرًا، صبرًا... إن هنالك أعمال لنا لم ننتهى منها بعد. تعلمون أننا نفكر فى أن نجعل من "سمرقند" عاصمة لنا. إن القصور تشيد، ونقوم ببناء المساجد الكبيرة. فليس هنالك حتى قصر يمكن لنا أن نقيم فيه. والسلطان الذى لا قصر له ماذا يجدى معه من عمل؟

وما إن وصل بكلامه إلى هذا الحد، حتى دخل عليه ابنه "جلال الدين" مثل الصاعقة، وقال:

- سلام، يا سلطانى. إن السلطان الذى لا قصر له يجديه عمل عظيم. إن الذى لا يجديه عمل، هو سلطان لا أتباع له، لأنه عندما لا يوجد الأتباع لا تصير هنالك سلطنة.

وجد السلطان أن هذه المداخلة فى غير محلها. ونظر الى ابنه بثبات، وقال:

- أنت تتحدث مثل "تيمور ملك".

- إذا كان الأمر كذلك، فإن مكانى يجب أن يكون بجانبه، أليس كذلك يا سلطانى؟

وجفل السلطان. ربما تكون تلك هى المرة الأولى التى يتـذكر فيها "تيمور ملك".

وحزن بعض الشيء. ومال برأسه إلى الأمام. وأعطى الحـق لابنه. وقال:

- هل هذا أيضًا فى الداخل؟

- تحت ظلكم...

- لا يبدو أنه كان من أجل هذا. لقد كنا قد أردنا فقط أن نخيفه بعض الشيء. ومع ذلك فإننا بحاجة إليه. أصدرت أمرًا بأن يخرج. وليعد مرة أخرى لكى يقوم على خدمتنا.

كم من الوقت ظل ابن السلطان "جلال الدين" يتحمل فى داخله هذا الألم. لم يكن ليتمكن أن يجد الراحة لنفسه فى حـين أن أقـرب أصدقائه والذى مثل روحه وأكبر صديق له يعانى فى الـسجن. لقـد فكر فى كل هذا، وذهب لزيارته مرارًا وتكرارًا. والآن فإنه سـوف يأتى إلى جانبه.

وما إن سمع أباه وقد أصدر حكمًا بالعفو عنه، حتـى طوقـه بذراعيه. وقبله، ووضع رأسه عليه. فتبسم السلطان، وقال:

- لو علمت أنك تحزن عليه إلى هذا الحد، لكنا قد فكرنا فى وسيلة أخرى. لماذا لم تذكرنى؟ الحقيقة إننى حزنت. لقد قبضت على قائد من أفضل أولادى وألقيت به فى السجن بكلمة منى.

- كل ما تأمر به ينفذ أيها السلطان.

- إن هذا حقيقى، ولكن... ما العمل... قل، تكلم... ليفكوا أسره ويفرجوا عنه. ليتوشح سلاحه، وليأت إلى جانبى على وجه السرعة. فأنا بحاجة إليه.

وقف "جلال الدين" وألقى التحية ثم خرج. وأخذ طريقه مباشرة نحو السجن. لم تكن تسعه نفسه، وكان يعطى الصدقات لكل الشحاذين الذين قابلهم فى الطريق.

***

القسم الرابع

رياح خفيفة، كانت تنقل فتور السهوب. وكانت الشمس تغسل غابات الإستبس بأشعتها. كانت تلال الرمل تحصل فيها الثقوب من جراء سير جنود شاه خوارزم، كما أن البعض منها تتمحى تمامًا.

لم يصطبر شاه خوارزم "علاء الدين محمد" على إلحاح القيجاق، فخرج فى نهاية الأمر. كان فى نيته أن يمر على "قوركان"، Kurgan ثم تأسيس جيش قوى، وبعد أن يقوم بتطهير بلاد القبجاق من القره خطاى، يواجه هؤلاء الجنود الصغار الذين يحكم عليهم بأنهم هم العدوالذى يقف أمامه مع أنه لم يراهم وجهًا لوجه بعد.

وبعد أن حل ربيع عام ١٢١٦ زحف الحر بقدر ما إلى المكان. وأخذت الأشجار تخضر شيئًا فشيئًا، ووصل الأمر فى النهاية إلى أن تشع الشمس بحرارة لا تطاق ولا تحتمل.

بعد سير طويل دخلوا "قوركان ". وبالرغم م كل شىء كان الناس يبتهجون عندما يرون السلطان على رأس الجيش. كانت هنالك تظاهرات نابعة من القلب.

ومع ذلك كان وجه السلطان عابسًا. كان يفهم لدى النظرة الأولى أنه لم يكن مسرورًا من أعماقه لما أقدم عليه من تحمل. ترى هل كان يخشى من عدوه المجهول؟ هل كان يفكر فى راحته وهدوء

أمره بعد أن صار الآن عجوزًا كما كان يقال؟ لم يكن كل ذلك معروفًا. ولكن الشيء المؤكد أن كلا الأمرين كان له دور فيما يحدث. فى الحقيقة لم يكن السلطان يرغب فى الحرب، ولكنه كان يرى أنه مضطر إلى الإقدام عليها. كان مضطرًا لأن يحقق مزيدًا من الانتصارات الجديدة من أجل ألا يفقد احترامه فى عيون الناس.

انسحب إلى قصره. على مدى ثلاثة أيام لم يكن يقوم باستشارة أحد فى أى موضوع كان. وفى اليوم الرابع أمر حاشيته بأخذ الاستعدادات اللازمة. وعندما علم بأن الاستعدادات قد اتخذت خرج من القصر. وذهب الى قصر والدته.

كانت "تركان خاتون" تنتظر أن يأتى ابنها لزيارتها فى وقت ما. وكلما طال هذا الانتظار كانت أعصابها تتوتر ومن ثم وقعت طريحة الفراش.

وعندما تلقت خبر مجئ السلطان لزيارتها وعلى حين غرة، أصابها المرض بشكل أسوأ. وتألم ابنها لحالها وعلى حين كانت ترقد على سريرها فإنه كان يرغب فى أن يقبل قدميها أوأن يحبوعلى ركبتيه أمامها. وبهذا كان سيرضى غرور أنوثتها.

حينما دخل السلطان "علاء الدين محمد"، فإنه فى الحقيقة لم يتمكن من إيجاد مكان يقف / يجلس فيه. لقد حملت كل الكراسى خارجًا. وانتصب واقفًا رغم أنفه، وقال:

- السلام أيتها المرأة العجوز.

وكان ردها عليه:

- عليكم السلام يا "علاء الدين محمد" أكبر سلاطين العالم. ما الذى حدا بك إلى القيام بهذه الزيارة للأم الأرمل المسكينة وقد مر هذا الوقت الطويل وأنا فى الانتظار؟ أو لربما قام التركمان بعمل شىء كدر صفوك مرة أخرى؟

- لا ليس الأمر هكذا، لقد كنا قد تعبنا ومن ثم ارتحنا. كيف حال صحتكم؟

- فى غاية السوء.

- وهبك الله الصحة والعافية.

كانت "تركان خاتون" تشعر بمتعة كبيرة وهى تجعل ابنها يقف على قدميه.

وتحدثا لفترة من الوقت وهما على هذا الوضع. وبعدها، أصاب شاه خوارزم الوجع فى ركبتيه. فسألها قائلاً:

- هل لى أن أجلس على سريرك؟

فأشارت له "تركان خاتون" على مكان وهى مضطرة لعمل شىء صغير وكأنها قد أحسنت مرة أخرى بأنها قد جعلت سلطاناً كبيرًا يقف على قدميه لهذا الوقت، وقالت له:

- اجلس يا سلطانى، اجلس بالقرب منى هاهنا. احكى، ما هو السبب الذى دعاك إلى مثل هذا التريث؟ لقد كانت عيناى دائمًا ترقب الطريق.

وجلس السلطان على طرف السرير بالكاد، وقال:

- إن سمرقند مدينة جميلة. لقد وجدت أنه من المناسب أن أجعلها عاصمة لملكنا. ومن الطبيعى أنه عندما تصير عاصمة، فإنه يجب عمل بعض الأشياء.

- تكون مناسبة لعظمتكم.

فابتسم، وقال:

- بالتأكيد...

- فلماذا تنتظر أكثر من ذلك حتى تخلصنا؟

وثبت السلطان نظره على طرف قدمه. وأخذ يتحدث بوجوم:

- من المحتمل أن تشتعل الحرب مع عدو لم نعرف كنهه حتى الآن. وطبقًا لما قيل، فإن "جنكيز خان "لا يحمل فى قلبه حتى ذرة من الرحمة. أما ابنه "جوجى خان" فهو أسوأ منه وأمر. إن جنوده هم أكثر عددًا من حبات الرمال التى توجد فى الصحراء!...

ونظرت السيدة إلى ابنها بابتسامة ساخرة، وقالت:

- هل أنت خائف؟

فجفل سلطان خوارزم، وقال:

- الخوف؟ ماذا يعنى ذلك؟ كون كلام على هذا النحو يصدر منك ولا أحد غيرك يكفى لأن يطير العقل. أنت أمر.

- هل تريد أن أقوم بتفسير كلامك على وجه آخر؟

- فقط على سبيل الاحتياط والتحفظ... نعم الاحتياط والتحفظ. إن الحرب هى عمل يلزم التدبير، وهى عمل يلزم الجرأة. ونحن لدينا الجرأة والشجاعة، ولله الحمد. أما إذا لم يكن لدينا الاحتياط فإن الشجاعة نفسها تصبح لا شىء ولا تفيد أى عمل...

واعتدلت السلطانة الوالدة على مرفقها، وقالت:

- إن عينك مثبطة يا سلطانى.

- لا شىء من ذلك. وأنت تعرفين هذا جيدًا، إن عيناى غير مثبطة. من الذى أوصل البلاد إلى هذه الحال؟

- أنت...

- أهكذا، لماذا أنتِ قلقة؟

- إن قلقى ليس من ناحية كبرك. وبالتأكيد سوف تكسب الكثير من الحروب.

ثم رفعت عيناها إلى السقف، وقالت:

- فقط، أخاف من أفكار التركمان. إنهم يلقون فى روعك ويقنعونك بعدم جدوى حرب كهذه. وفى هذه الحالة، فإنك تمتنع عن محاربة القبجاق.

استدار السلطان محتدًا، لقد كسر غروره، وقال:

- أمى، أمى! عليكِ أن تعلمى جيدًا أن "شاه خوارزم علاء الدين محمد" ليس من السلاطين الذين يتقلبون ويتلونون بكلمة من هذا أو ذاك. لقد قررت فى خلال شهر سوف استجمع قوى الجيش ومن ثم أخرج.

وارتسمت على شفاه "تركان خاتون" بسمة ماكرة وقالت:

- سلمت يا سلطانى! هذا هو القرار الذى يليق بك. مهما تكن قوة "جنكيز" فإنه سيضطر للانحاء أمام قوتك. وسوف تسحق القره خطاى. اذهب إذن، فالنصر سيكون فى انتظارك ".

وأجال السلطان "علاء الدين محمد" ببصره فى أرجاء الغرفة. وعندما لم ير ما يبحث عنه، سأل والدته قائلاً:

- إننى لا أرى ابنى "أوزلاق شاه" إن شاء الله يكون بخير، ولا يكون قد حدث شىء!

- أى حال من الأحوال يمكن أن يكون موضع احتمال حتى أنت يا سلطانى؟ إن حفيدى يعيش فى حماية ورعاية الأم الأرمل وهى تقوم بكل ما يريد وتسهر على رعايته. سوف أحضره فى الحال.

وأخذت المدقة الذهبية التى كانت على ناحية وهزت الجرس. وأمرت الحارس الذى دخل إلى الغرفة بأن يحضر "أوزلاق شاه".

وبعد قليل دخل ولى العهد الصغير. كان القفطان الذى يرتديه والمشغول بالصيرمه والحرير يصل إلى ما بعد رسغ قدميه. وكانت العمامة التى يضعها على رأسه قد ثبت فيها قنزعة ذات طرة. ووقف أمام والده منتصبًا. ثم ضم ذراعيه على صدره، ولوى رأسه بخفة:

- سلام يا سلطانى!

- سلام يا "أوزلاق شاه".

ثم أخذه من يديه وسحبه إلى جانبه. وأخذ يدعو له قائلاً:

- أطال الله فى عمرك يا "أوزلاق شاه".

وطلب الإذن من والدته. وخرج. وغادر القصر فى مقدمة معينه.

وعلى الفور جمع مجلس الحرب فى اليوم التالى، وأخذ يشرح أفكاره. وقال إنه يجب أن تقوم الحرب ضد القبجاق. ومن أسلوب حديثه كان يفهم أنه كان قد اتخذ قرارا بالحرب منذ وقت طويل. ولم يتأخر بكوات التركمان الذين كانوا فى الاجتماع عن الحديث لبعضهم. لقد أثرت أم السلطان عليه مرة أخرى. وقد جعلته يأخذ بالقرار الذى أرادته هى. وإذا كان الوضع كذلك فلا فائدة ترجى من الحديث.

ولكن "تيمور ملك" لم يكن يفكر على هذا النحو. فبعد أن تخلص من السجن فإنه لم يستطع أن يخرج الدرويش المجنون من رأسه.

ونهض على قدميه، وقال:

- إذا أذنت لى يا سلطانى، فلدى شىء أريد أن أقوله.

- قل يا "تيمور ملك"...

- لقد نقلت لكم ما سبق وأن قاله لى الدرويش المجنون. وإننى الآن أشك فيما إذا كان هذا الرجل هو مجنون أم هو أحد الأولياء. لقد قال إن...

وقام السلطان برفع يده إشارة إلى سكوت "تيمور ملك"، وقال:

- ليس هذا هوالوقت الذى نهتم فيه بالمجانين، يا "تيمور ملك". إن كنت ستتكلم عن العقلاء فلتتكلم...

وفهم "تيمور ملك "أنه إنما أراد أن يسكته، وهنا لم يأبه مرة أخرى، فواصل حديثه قائلاً:

- إن بدايتى بمثل ذلك الكلام له سبب عندى، يا سلطانى. وإذا أجبرتنا اليوم على عدم الكلام فإن المسئولية لما سيحدث فى الغد ستكون على عاتقكم بالكامل، وسوف تتحملون كل تباعتها على كاهلكم وحسب. فهل تريدون ذلك؟

كان "تيمور ملك" يريد أن يلفت النظر إلى أهمية مشورته. ولكن السلطان لم يكن يرغب فى ذلك، فقال:

- كسلطان، فمن المؤكد أنه وحده المسئول عن كل التصرفات.

وكان هذا المعنى يأتى مناقضًا تمامًا لتيمور ملك، فقال:

- تخطئون يا سلطانى، إن السلطان مسئول أمام الله تعالى قبل كل شىء.

ولقد اهتز كل الموجودين فى حضرة السلطان وارتعشوا حتى النخاع. كم من المعاناة أكثر من السجن نالها "تيمور ملك "من جراء كلامه الصريح بمعنى أنه لم يتهذب بعد. وعلى حين كان بكوات القبجاق ينظرون إلى بعضهم بعضًا وهم يصكون على أسنانهم، كان التركمان يهزون رؤوسهم بما يمكن أن يواجهوه من مختلف التوقعات.

أما السلطان فقد كان ساكنًا هادئًا. كان يفكر فيما إذا كان قد أخطأ بإخراج هذا الرجل من السجن أم لا. وفى النهاية تحدث قائلاً:

- تحدث، ماذا ستقول؟

- سأقول ما يلى يا سلطانى: لقد قال الدرويش المجنون أن "جنكيز" قد أصبح أكثر قوة وأشد اقتدارًا. لقد خضع له بكوات الصين العظام. لقد هاجم الشرائع التى تعد غير مقدور عليها، كما دمر القلاع التى لا يمكن تحطيمها، إنه يحرق كل الأماكن التى يمر بها، ولم يترك حجرًا فوق حجر!...

- معلوم، لقد استمعت إلى كل هذا من قبل، فلماذا تكرره الآن؟ هل تنوى أن تخيفنا أم تريد أن تثنينا عن الحرب؟

- ليس تلك هى نيتى فى الأساس، يا سلطانى. والحقيقة أننى لست منحازًا للقيام بحرب متعجلة ضد إقليم القبجاق، ولكننى عازم على أن أدفع بنفسى إلى الموت أمامكم. إن مكانى هو الانحياز إلى جانب سلطانى. ولكننى أريد أن لا نصغر من شأن العدو. علينا أن نحشد جندًا كثيرًا كما ينبغى. ولنمض بعض الوقت فى تكوين تشكيلاتهم، ولنعلمهم على أصول القتال والحرب. وعلى حين نحن نقول علينا أن نضرب "القره خطاى"، فإذا ما ضربنا "جنكيز"...

- مفهوم، نيتك تضييع الوقت.

فابتسم "تيمور ملك" وقال:

- سلطانى، طبقًا لما قد فسرتموه سيئًا لكل ما قلناه، فإنه لم يتبق اعتماد منكم علينا الآن. وكما وضعت نفسى فى الحبس بأمر منكم فإننى الآن وبأمر منكم أيضًا أكون محتالاً عديم المرؤة إذا ترددت ذرة واحدة عن مد رقبتى تحت سيف الجلاد!... وإذا أردتم التخلص منى، فعليكم أن تقولوا ذلك بصراحة أكثر..

وعلى حين جعلت كلمات هذا الرجل الحضور يرتعدون، فإنها أضحكت السلطان. بل لقد أسعدته، فعلى حين هذا فإنه لوكان قد كون جيشًا من عشرة آلاف من مثل هذا الرجل، فمن يعرف، لربما كان قد فتح العالم. وتوجه بعينيه التى تضحكان من الداخل إلى "تيمور ملك" وقال:

- تيمور ملك. إن ما قلته هوالحق، ولكن ما هواللزوم للانتظار وحتى ذلك الوقت؟ إن شعبنا نفسه هو جند بالفطرة والسليقة. وأنت رأيت أيضا ماذا فعلنا فى سمرقند.

- سلطانى، إنكم تخلطون بين المتمرد وإمبراطور.

- لقد تكلمت طويلاً يا "تيمور ملك". اجلس ولنستمع إلى غيرك.

وضم "تيمور ملك" ذراعيه إلى صدره، وقال:

- تحت أمركم يا سلطانى.

وأخذ عدد من خانات القبجاق فى الحديث من بعده. ولقد بحثوا فى مسألة إطلاق الخوف فى نفس "جنكيز "أكثر من بحثهم فى مسألة تقوية الروح المعنوية لدى الجيش الذى سيكون من أجل محاربة القبجاق. وأثنوا على قرار السلطان وامتدحوه.

ولم ينطق "جلال الدين" بكلمة واحدة. كان منحازًا إلى كلام "تيمور ملك"، ولكنه لم يجد من المناسب الخروج علنا على والده. وبعد أن انفض المجلس، أخذ "تيمور ملك" معه وتوجها صوب منزله. وتقابلا على الباب مع "صارى لاگود". وكان يقف بجانبه شخص يشبهه كثيرًا. فسأل "تيمور ملك":

- أى رياح أتت بك إلى هنا؟

فابتسم "صارى لاگود"، وأشار إلى الشاب الذى كان بجانبه، وقال:

- جئت مع أخى "بايتو" لنكون فى خدمتك. وإذا ما قبلوا فلسوف نكون عبيدًا لجلال الدين طوال حياتنا.

وعانقه "جلال الدين" وقال:

- إن بابنا مفتوح لكل شخص يندم على ما اقترفه يا "لاكود". أنتم لستما عبيدًا لى، وإنما أنتما صديقاى.

وعندما دخلوا الغرفة المكسوة حوائطها بالسجاد السميك لكى لا ينفذ الصوت خارجًا، فإن "جلال الدين "طرح أفكاره، قائلاً:

- لستُ مستريحًا، أيها الأصدقاء. إن والدى السلطان قد دفع إلى هذا العمل بتأثير من والدته. وبذلك يدخل فى حدث لا يعرف إلى مدى يمكن أن تكون عواقبه. وحتى نحن ليس لدينا من معلومات قاطعة بشأن قوة "جنكيز". إن كل ما نعرفه بأكمله عبارة عن أقوال مرسلة هى شىء أشبه بالخرافة. وحتى لوقبلنا نصفه على أنه صحيح، فيكون "جنكيز" قوى قوة مدهشة. ذاك المغولى الذى دانت له كثير من الخانات. لنقل إن علينا أن نلقن القره خطائيين درسًا. ولكن إذا افترضنا وتوقفنا فماذا يمكن عمله للوصول والوثوب على المغولى. ربما لم يكن لنا أية عداوة قط. كما أنه يتقاتل حتى يومنا هذا فى نواحى الصين. ولم يصلنا منه أى ضرر. إنهم يقولون إنه يأكل مثل جنوده كما يعيش مثلهم. وخان كهذا لا يمكن أن يقع ظهره على الأرض. لأنه أصبح حبة عين الجنود. أما نحن...

ثم سكت، وغرقت عيناه فى بحر من الحزن. وأعقبه "تيمور ملك" بالكلام، فقال:

- لقد غرقنا فى خيوط الحرير، ونحن نعيش فى القصور. وعلى حين ينام "جنكيز" على فرو الدب، لا يعجبنا فرش من ريش الطيور. وعلى حين يسد "جنكيز" رمقه بشرب بسيط، نحن نختار طعامنا. إنه شىء مخيف!...

وساد جو من الصمت. ولم يصدر أى حس لفترة طويلة. ومن ثم قطع "جلال الدين" هذا الصمت والسكون، فقال:

- ترى يا "تيمور ملك" أنت قد قلت كل ما تريد إلى والدى السلطان؟

نظر "تيمور ملك" إلى "جلال الدين" كمن قد أفاق من سبات، وقال مجيبًا على تساؤله:

- معظمه. ولكن هنالك شىء لم أستطع أن أقوله. وإذا لم أكن قد تمكنت من ذلك، فإننى أقول إنه سيصبح طيبًا إذا كنت أنت القائد على الجيش، على الأقل أنت لم يصدر منك أى تصرف خاطىء...

- ولكن والدى قائد حسن.

- كان هكذا... تعلمون أنه تغير كثيرًا فى السنوات الأخيرة. لقد أصبح يصاب بالإثارة مثل شاب غر قليل التجربة والخبرة. سلطان يصدر أمرأ متعجلاً حتى أنه يمكنه من تغيير ولى العهد

فى لحظة واحدة، وسلطان يمكنه أن يتجه للدخول فى حرب بتلقين من سيدة فى لحظة واحدة... والآن...

ونظر إلى أصدقائه بعينيه يملؤها الدهشة وهويقطع كلامه. وعلى الأقل فإن "لاكود" قد تزحزح قليلاً غير مرتاح إلى حد ما. وتمتم "جلال الدين" بما أراد "تمور" أن يقوله:

- هل ستقول إنه غير لائق بالسلطنة؟...

- لا يوجد هنالك من دليل كافى من أجل أن تقول هذا. إن الحرب الجديدة سوف تظهر كل شىء طيب على الساحة.

- وحتى ما قيل عن جنكيز وعن قوته. هل أنت تؤمن به؟

- لا خلاف فى الكلام الذى قاله الدرويش. إن الذى قاله عليك أن تؤمن به، إنه صحيح. وأكثر من ذلك فإن "قوطلق" القونيوى كان قد قال الكلام ذاته.

- مخيف!...

- مخيف لأنه فعلاً مخيف، ولكن الذى هومخيف فى الأساس عدم تحركنا لكى ندوس على ذنب الثعبان الذى صحا. صدقنى، إننى لا أقول من أجل التخويف. أنت تعلم، ليس هنالك من شىء آخر لى عدا روحى، ومرة أخرى أنت تعلم، أنا لا أعطى أية أهمية لروحى. أخشى أن يكون تحطيم دولة خوارزم ناجم من ناحية خطأ إدارى.

- هل الخطر عظيم إلى هذا الحد فى رأيك؟...

- ربما أعظم من ذلك. كانت بلادنا هى مهد للعلم. أما "جنكيز "يربط الخطر على مجموعة من الخرافات يسميها علمًا. وطبقًا لما قيل فإنه يحرق كل الكتب التى تقع فى يديه. لقد أمر بإحراق كتب بأعداد كبيرة فى الصين. وعلى حين يعلو لهيب النيران فإنه يقوم بالرقص حولها. وعندما يرد بخاطرى مجرد احتمال سقوط إحدى مدننا فى يد رجل كهذا، فإننى أتجمد فى مكانى.

وارتعش "جلال الدين"، وقال:

- حفظنا الله!...

وقام كل من "صارى لاكود "وأخيه بالتأمين على هذا الرجاء بصوت مرتفع، قائلاً:

- حفظنا الله!...

ونظر "تيمور ملك" إلى الأخوين بعينيه وقال بصوت خافت:

- بالتأكيد يحفظنا الله، ولكن إذا شاءت إرادته. كثيرًا مالم نطبق أوامر الله كما ينبغى. والشائع الآن هو الإسراف فى الحرام. لقد أسرفنا. لقد شاع الإسراف، وقعنا فى الترف والبذخ. لقد حرم الغرور والكبرياء، ونحن تكبرنا إلى أقصى حد. وحتى القوات الكبيرة التى تواجهنا أصبحنا نراها صغيرة بسبب تكبرنا وغرورنا.

ثم اعتدل، وتابع:

- وهنالك أكثر من هذا وذاك. لقد أصبحنا لا نعطى أية أهمية للاسترشاد بالسنة. لقد أصبحنا نكبر ونعظم من شان الذهب، والصيرمة، والحرير. إن الدرع الذى يناسبنا أكثر من أى شيء آخر صرنا نحل محله الفراء والسمور. إن الحروب التى ينبغى علينا أن نخوضها من أجل الله ومن أجل إعلاء كلمة الله، قد انحرفنا بها جانبًا وأصبحت وسيلة لاكتساب الأرض والفوز بالغنائم.

وهز رأسه فى أسى وألم، وتابع:

- حفظنا الله ووقانا طالما طبقنا أوامره!...

وأخذ يمسح حبات العرق التى تراكمت على جبهته، وتابع:

- إن الناس تقول إن عقابنا على يد خان مغول على غير الحال، إننا نستحق تلك العقوبة، وهذا فى قناعتى...

كانوا جميعهم يؤمنون من أعماقهم بصحة ما قاله، ولكنهم كانوا يتمنون ألا يتحقق عقوبتهم تلك على يد شخص لا يعرف قلبه الرحمة مثل "جنكيز "وتوسع فى كل آسيا...

وقبض "جلال الدين" على يدى صديقه، وقال:

- لقد قلت الحق يا "تيمور ملك"، ولكن ماذا عسى أن نصنع؟

...

كان شاه خوارزم "محمد" يذهب على رأس الجيش. كان حصانه الذى زين ركابه بالذهب كمن يفهم مدى أهمية حشد الأشياء القيمة التى يحملها على ظهره. يرفع رأسه من حين لآخر بوقار وجدية، كما أنه كان يلقى بنظرات متكبرة على أمثاله...

كانوا قد خرجوا للحرب وهم فى شكل عشرة فيالق مكونة من ألف فارس على الأقل لكل منها. وكان على كل فيلق أحد القواد.

كانت أشعة الشمس تتلألأ على آلاف من التروس والرماح، ومنها كانت تتكسر وتغسل حبات الرمال بألوان من البلور.

لم يكن يرى غير البشر والرماح ولم يكن يسمع سوى صوت "الله أكبر".

كان منظرًا رائعًا للوحدات التى اصطفت خلف بعضها البعض. كان السلطان "علاء الدين محمد" يحول رأس فرسه من آن لآخر، وكان يشاهد جنوده بكل فخر.

لقد كان محاطًا بخانات القبجاق من كل ناحية. كان كل من "جلال الدين" و"تيمور ملك" يسوقون خيلهما وهما على رأس قواتهما. فى تلك الأثناء لم يكونا يربطهما جيدًا شىء سوى التربية والتعليم لقونيهما. ولسبب ما اصطدام كلامهما بجدار صامت وصل من خانات القبجاق، وكان سيقع على الأرض مثل حبات الفاصوليا التى تندفع إلى ناحية.

لم يكن "السلطان محمد" لا يشعر فى داخله بنوع من الخوف بكل تفاصيله. فما من بأس أيضًا لوكان عدوه المجهول يهجم عليه. لقد كان من المؤكد أنه يسحق القره خطاى. كان يؤمن بهذا؛ ولكن الفرسان الصغار كانوا يشغلون ذهنه.

وفى لحظة استدعى "تيمور ملك" ليأتى إليه! ومن أجل أن يجعله يصدق هيبته، فقال:

- انظر! هل هناك من جيش موجود على ظهر الأرض بنفس هذه القوة التى تهزم جندًا بمثل هؤلاء؟

ولوى خانات القبجاق أعناقهم. أما "تيمور ملك" فقد ظل فى حيرة من أمره إذاء المنطق الذى يمكن يقارن ستين ألف فارس بجيوش الدنيا. فقال:

- يد تتفوق على يد سلطانى.

تململ شاه خوارزم من عدم إعطائه الجواب الذى كان فى انتظاره، فقال:

- أنت نفسك ميئوس منه ولا أمل فيك تمامًا.

- إنهم يقولون إن "جنكيز" أكثر قوة.

- أى جنكيز؟ ربما قد ثبط من عزيمتك. سوف أضعه تحت أقدام خيلى ولسوف أسحق ذاك الكافر. ولسوف تعرف أنه لا يوجد

على وجه الأرض سلطان أكثر قوة من "محمد" شاه خوارزم. لم يوجد بعد... حتى الإسكندر نفسه من يملك مثل قوتى وله مثل دهائى...

- أولى بك يا سلطانى أن تفكر فى تدبير بدلاً من التوهم فى قوتك والاغترار بها!...

- لم أسألك فيما يجب علىّ أن أفعله.

- لا يوجد شخص يمكنه أن يفكر فى كل شيء.

- ماذا... ماذا... ما معنى هذا؟

- أردت أن أذكركم بضرورة أخذ الاستشارة. وإلا فأنا لا أمتلك ذكاء كثيرًا بمثل ما هو عليه عقل سلطان.

ووجد السلطان نفسه فى موقف صعب. وكان على وشك أن يصدر أمرًا بتطبير رأسه، فقال:

- اذهب وباشر أعمالك على رأس قواتك.

- على الرأس أوامركم!...

عاد على رأس قوته. ولحق حصانه بحصان "صارى لاگود"، وقال:

- انظر إلى معية السلطان، يا صارى لاگود، إنهم قطيع لا يليقون بأى عمل...

ونظر "صارى لاگود" باهتمام. والتقط منظر مطبخ السلطان مع كل ما يمثل من خطورة. ومهما بذلوا من جهد فإنهم لن يتمكنوا من أن يتخلوا عن ذلك، فقال وهم يتمتم:

– بيد أنه لم يكن كثير الشهية إلى الطعام.

– ذاك هو الحقيقة، ولكنه يريد أن يعمل مظاهرة للأعداء.

– بمطبخ زاه وشائق؟

– نعم بمطبخ عظيم، وبخيمة مزينة، وبخدام...

– الله!... الله!...

...

كان "جلال الدين" يأتى من أقصى الخلف. كان القائد الذراع العاشر من فرقة التركمان.

وكأنه كان تصرفًا محسوسًا على هذا النحولكى لا يجعله والده يقوم بقيادة الجبهة. كان يشعر بالحزن. وبالرغم من كل شىء كان قد تم الخروج إلى الحرب. كان يرغب فى أن يكون فى الصف الأول وأن يكون أول من يلتقى بالأعداء. وإذا لم يكن الأمر كذلك فكان سيزيل صدأ سيفه على أقل تقدير. ولكن والده جعله على رأس خليفة الجيش ولم يكن على علم برغبته تلك.

كان التركمان فرحين مبتهجين. وكانوا يرددون الآلهيات، وكانوا يتحادثون بصوت مرتفع، كما كانوا يتبادلون النكات. وفى

بعض الأحيان عندما كانت الحرب تتوقف كانوا يقومون ببعض الألعاب الحربية، كانوا يتعلمون من خلالها تكتيكات جديدة.

كانت وحدة "جلال الدين" هى أكثر الوحدات ترتيبًا وتنظيمًا. وكانت وحدة "تيمور ملك" تأتى فى المرتبة الثانية حيث كانت إما فى نفس الدرجة أوأقل منها قليلاً. أما المركز والذى كان يقوده السلطان، فمن الممكن القول بأنه ربما كان هوالأضعف، حيث كان يتكون من أشخاص غير فعالين تمامًا، ومن خدام العصر، ومن حرسه الخاص...

وخلال مطاردة على سواحل "بحر خوارزم"Harezm Denizi (الاسم القديم لبحيرة آرال Aral Golu) فإنهم عبروا نهر "سيرى دريا" Siri Derya (سيحون Seyhun). ثم استراحوا لبعض الوقت عند خليج "جاغاناق" Caganak Korfezi. وخرجت قوات الاستطلاع السلطانية. وقد اضطر كل من "تيمور ملك" و"جلال الدين" للبقاء هنا فى انتظار الأخبار التى سوف ترد اليهم. أما وأنهم لوبقوا على حالهم لما كانت حتى قوات الاستطلاع قد خرجت، ولكانوا قد ساروا بفخر وغرور حتى يصلوا إلى المكان الذى يصادفون فيه العدو...

وعاد أحد أفراد قوات الاستطلاع بعد مدة قصيرة. وقد أعلن أنهم صادفوا جنود القره خطاى على سواحل "بحيرة جالقار".

– فى تلك الليلة انعقد مجلس للحرب. وتقرر أن يتم حسم مسألة القره خطاى فى البداية ومن ثم مسألة المغول. وكانت وحدة عسكرية

سوف تقسم إلى ثلاث مجموعات، وسوف يقوم الشاه بقيادة المركز.

وعند اختيار قواد جناح اليمين وجناح اليسار فى المقاومة، حدث شغب واضطراب. لقد أراد القبجاق أن يسندوا كلا الناحيتين إلى قواد من جنسهم، وقد ساقوا أسبابًا لذلك تتمثل فى أن تلك الأراضى هى أراضيهم. ومن شدة حرص "تيمور ملك" فإنه ضغط على شفتيه حتى أدماها، وفى النهاية لم يتحمل فقام بسرعة من مكانه، وقال:

- ما دامت تلك الأراضى هى أرض القبجاق وما دموا لا يحسبوننا منهم، فليكن، وليصلوا هم ويحلوا دعاواهم بأنفسهم. وأنا أطلب فرمانًا من سلطاننا بهذا المعنى.

وهز "السلطان محمد" رأسه على الجانبين وهو فى حيرة من أمره، وقال:

- أنت.. ماذا تقول يا "تيمور ملك"..؟

- ما قلته هوغاية الصراحة يا صاحب الشوكة. إن القبجاق يدعون أنهم أصحاب هذه الأراضى، ولهذا السبب، فإن عليهم أن يجدوا قائدًا من بينهم وأن من حقهم أن يقودوا الجند الذين سيدافعون عن تلك الأراضى. لنتركهم وشأنهم ولنرى ماذا يفعلون بأنفسهم.

- لا يمكن أن يحدث شىء كهذا... ستكون أنت القائد على أحد الأجنحة.

وكان "السلطان محمد" بهذا الصنيع وكأنه يريد إسكات "تيمور ملك". ولم يتأخر "تيمور ملك "فى الفهم.

- عفوًا يا سلطانى، إننى أعتذر عن عدم قبولى ذلك. إنه فى وجود "جلال الدين شاه" فإنه لا يحق أن تنسب لى قيادة كبيرة كتلك. إنه القائد الأكبر منا جميعًا.

ولم يعترض السلطان، وتحدث قائلاً:

- أظن أنه من المناسب اتخاذ قرار صائب كهذا. فليتول "طوركاى "من خانات القبجاق القيادة على الجناح الأيسر، أما الجناح الأيمن فليكن بقيادة ابننا "جلال الدين" وسأظل أنا فى المركز.

وفى صباح اليوم التالى لملم الحشد شتاته، وساروا فى طريقهم من جديد. لقد ساروا طيلة ثلاثة أيام وهم فى وضع الاستعداد للحرب لدى وصول أخبار عن وجودهم بالقرب للغاية من القره خطاى. وأقاموا المعسكر داخل غابة ذات أشجار كثيفة ممتدة فى دلتا نهر "إركيز Irgiz Irmagi".

كانت رائحة جذابة من الأزهار البرية تختلط مع رائحة العفونة التى تصدر من المستنقعات، فكانت تؤذى أنوف الجنود الخوارزم. وبالرغم من أن الهواء كان قد اشتدت سخونته منذ فترة طويلة، فإن طبقة من الثلوج كانت تعوم على مياه النهر ولم تجمد بعد. كانت غالبيتها لا تنصهر حتى منتصف فصل الصيف.

وعندما وصل خبر برؤية القره خطاى على الساحل المقابل، أمر "السلطان محمد" بأن يتم عبور النهر. وتم تنفيذ الأمر على الفور. وتم عبور النهر بلا أية مشاكل أوأخطار. لقد عبروا وهم فى مسيرة حربية منظمة.

وفى المساء وصل خبر جعل الجيش يهيج ويموج. لقد تبين وجود عدد من الخيام فى الأمام. ولم يكن يعرف ما هى ولا من صاحبها.

وما إن أحيط "جلال الدين" علمًا، حتى أخذ معه كلاً من "تيمور ملك" و"صارى لاگود" وأخيه "بايتو" وخرجوا لاستكشاف الأمر. ووصلوا إلى قمة تل صغير. وجالوا بأعينهم بدقة وعناية خلال ساحة طويلة تقع أمامهم تبدو وكأنها لا طرف لها ولا نهاية لها. ومع ذلك تمكنوا من رؤية بعض الخيام البعيدة فى نقطة لا يمكن أن تراها العين بسهولة. ولكن لا يوجد حولها أية اشارة على وجود أحياء تترك هنا وهناك. فقال "جلال الدين" معلنًا عن دهشته:

- الله. الله. ألهذه الساعة ولم يستيقظوا بعد على كل الأحوال أم أنهم غادروا الوادى إلى آخر.

فرد "تيمور ملك":

- حالاً أذهب وأنظر ما الخبر.

وأخذ بلجام فرسه وسار به ركضًا. وناداه "جلال الدين "خلفه:

- خذ الحيطة على نفسك يا "تيمور ملك"...

ولم يجبه "تيمور ملك". لقد كان قد ابتعد كثيرا حتى أن صوته لم يكن ليصل إليه.

وبعد قليل كان قد اقترب كثيرًا من الخيام. وفغر فاه لما أصابه من الدهشة مما رأى. إن ما ظنوه خيامًا لم تكن سوى أشياء ممزقة، وقطع من الأكلمة المهلهلة. كانت كل جهة ملأى بالأجساد. كأن جرفًا كان قد سبقهم وسقط ها هنا، أوكان آفة قد حلت بهم، كل شيء كان منسقا. وأخذ يبحث حتى وجد أحد الأحياء فنزل من على فرسه، وقال متسائلاً:

- ماذا حدث لكم؟

كان ذاك أحد الجنود المركيت. كان بظهره جرح كبير من أثر سيف. وأخذ يحرك فمه بصعوبة، وقال:

- نحن من أبناء المركيت. أو إن شئت دقة أكثر كنا. والآن لم نعد شيئًا.

واعتمد على زنده فى صورة بجهد. ومشط الساحة المليئة بالجثث بنظرات ملولة. وكانت الدموع التى بعينيه قد نفدت، وقال:

- كانت زوجتى تدعى "طونقوخان". وابنها "خولتوخان"... فرا كلاهما ونجوا بأرواحهما. وتركونا فريسة للثعابين.

- من الذى أغار عليكم؟

فتكلم وهو يتكلم بصعوبة وكلامه متقطع:

- جنكيز!.. ذاك الشيطان صاحب اللحية الحمراء، أو هو ابنه "جوجى خان". الأب والابن أحدهما أمر من الآخر. إن المكان الذى يدخلون فيه لا يتركون به حجرًا على حجر، ولا رأسًا على عنق... احذروا أنتم أيضًا منهم... لا تغضبوا "جنكيز" ولا تثيروا حفيظته... لدى "جنكيز" قواد كبار من أمثال "صوبوتاى" العفريت أعور العين، "قورت جبه"، "طوقوجاى"، و"نويان"... كل واحد منهم أكثر غدرًا من الآخر وأكثر قسوة... لم نتمكن من الفرار من أمامهم، والذين سعوا للهرب عبر "نهر إيركليز" دفنوا فى أعماقة بتكسر الثلوج. لقد خنقنا ها هنا. لقد أعملوا فينا جميعًا السيوف، النساء، كبار السن، الأطفال... جميعًا. كما أخذوا مواشينا، واستولوا على مراعينا.

وأخذ نفسًا مقطوعًا. وغطشت عيناه. وفتحها قدر المستطاع، وقال وهو يئن:

- لا أستطيع أن أرى. الآن لا أستطيع أن أرى أى شىء... لا أجساد إخوانى التى اهترأت، ولا شعاع الشمس... إننى لن أرى أبدًا فى أى وقت. لقد دخلت فى الظلال الموت الباردة. إننى أشعر بأن روحى تنسحب نحو حلقى.

وصدرت منه سعلة. كان من الواضح وجود رغوات مختلطة بالدماء على شفتيه. وقال بصوت يملؤه المرارة وهو يغيب:

- نحن... كنا سعداء... كنا لنا مراعينا... كانت لنا أشجار خضراء عظيمة... العفريت ذو اللحية الصفراء... جنكيز... ابنه جوجى... صوبوتاى بهادر الأعور... قورت جبة... الخيمة الصفراء... الخيول الصغيرة...

ثم ارتعش، وواصل:

- إلىّ... إلىّ بسيفى... أنا... أنا...

ولم يستطع أن يتم كلامه. وغابت جفونه تحت حواجبه. وظل "تيمور ملك" مثبتًا عينيه اللتين أصابتهما الدهشة على وجه الرجل.

لقد مات المركيت.

ودون أن يضيع "تيمور ملك "المزيد من الوقت، فإنه امتطى صهوة جواده. وصعد إلى المرتفع حيث كان قد ترك "جلال الدين" وهو ماسك بزمام فرسه. ثم ألقى عليه الخبر المفجع:

- وجدت أيها البطل كل المركيت وقد أبيدوا بالسيف.

واقشعر "جلال الدين" من الدهشة، وقال:

- ماذا؟ من فعل ذلك؟...

- جنكيز... أو هو ابنه... لا فرق...

وعادوا من حيث أتوا. وأعلموا السلطان بالموقف. ولم يكن هذا فى دهشة بأقل مما كان عليه وضع ابنه. أخذ يبحث عن السبب ثم استجمع شتات أفكاره، ثم اعتدل فى جلسته بحدة، وقال مزمجرًا:

- لن أدع هذا جانبًا.

وتصايح جميع خانات القبجاق، قائلين:

- علينا أن نسرع من أجل أن نعاقب ذاك الكافر الذى سلب غنائمنا وخرب ديارنا!

وأخذ "علاء الدين محمد" يمسك ذقنه، وقال:

- سنجد هؤلاء بكل تأكيد. وسوف نعاقب كل من نجده بسيوفنا. والآن لا يمكن لأى شخص من أن يمنعنى عن خوض الحرب. فلتأخذوا استعداداتكم ولنهجم عليهم.

- هل تأذن لى يا سلطانى؟

قال ذلك "جلال الدين" وهو يقف على قدميه.

- قل يا جلال الدين.

- يخرج أولاً قوات الاستطلاع، ويحددوا أماكن تواجد العدو، ومن ثم نتعرف على قوتهم. وبعد ذلك تصدرون أوامركم بالقتال على ضوء ذلك...

ونظر السلطان إلى ابنه بتمعن، ومن ثم أسكته قليلاً:

- الخوض فى القتال ليس من شأنك ولا من شأن "تيمور ملك"، أنا الذى أصدر القرار. ولقد أصدرت قرارى. سنخوض الحرب.

وسكت "جلال الدين" وقد أعيته الحيلة. ونظر إلى "تيمور ملك". ولكن ذلك كان ينظر إلى جهة أخرى بعيون فارغة تمامًا.

...

لم يكن "جنكيز خان" هو العدو الذى يبحث عنه خوارزم شاه، وإنما كان هوابنه الأكبر "جوجى خان".

فبعد أن أعمل فى المركيت قتلاً، فإنه انسحب إلى الشمال، وفى أحد أطراف جبل توقف فترة للاستراحة.

وعندما علم من عيونه الذين ينتشرون فى كل ناحية أن قطيعًا مختلطًا مثل الرمال التى على الأرض قد جاروا وعليهم عمامات ضخمة، فإن "جوجى خان" قد اصفر وجهه وصار أكثر حدة. ونظر إلى "صوبوطاى بهادر" الأعور وكان أحد قواده؛ وقال له:

- ماذا تقول عن هؤلاء يا صوبوتاى؟

كان "صوبوطاى" مشغولاً بتلميع أظافره بالخنجر الذى فى يده. فعندما كان يجد متسعا من الوقت من الحرب، كان يهتم فيها بأظافره.

وكشر عن أسنانه، وقال دون أن يرفع رأسه:

- فليأتوا إذا أرادوا. هذا هو قولى. ليس هنالك من شخص تخاف منه.

- أنت دائمًا مع الحرب.

وهز "صوبوطاى" رأسه. لم يكن يحب الكلام الكثير. إنه يلخص ما يريد فى جملة أو جملتين، فكان ينفر من المناقشات الطويلة. ولهذا السبب كان يغيب فى أى وقت يتم فيه عقد مجلس الحرب أم تتخذ فيه المشورة. فى الوقت الذى يقرر فيه من هوقائم بعمل الخان قرار الحرب أو السلام، فليقرر ما شاء، وما عليه إلا أن يقوم على الفور بتنفيذ القرار.

ومع أن "جوجى خان" كان على علم بذلك الطبع منه، إلا أنه كان يصر على عناده.

- لماذا أنت صامت، أيها الرجل؟

ومرة أخرى يهز "صوبوتاى" كتفيه.

- تكلم!...

وفى هذه المرة رفع رأسه. وامتقع وجهه وكأنما يعانى من مغص. وتلونت وجنتاه بألوان وتشققت بخطوط مختلفة وأظهرت بصورة أكبر أثر جرح لسيف. وثبت عينيه الوحيدة التى يرى بها على "جوجى" ورمقه بنظرة متكدرة وفى لون الوحل. ومع ذلك فإنه فى هذه المرة لم ينطق سوى كلمتيه، هما:

- أنت تعلم...

- أى علينا أن نحارب؟

- ممكن.

- أم علينا ألا نحارب؟

لم ير جوابًا. فهز "جوجى خان" رأسه، وقال:

- لا أدرى لما سلط أبى على أم رأس من هو أبكم مثلك. كم من مرة أثبت فيها أننى قد كبرت بدرجة يمكننى فيها أن أتصرف وحدى وبمفردى، وهوالآن لا يرسلنا إلى ميادين المعارك دون حامى أو ولى أمر.

وبعد أن أجال النظر فى "صوبوتاى "بنظرات مستهزئة، أكمل حديثه قائلاً:

- أنت أيضًا ماذا تحمى الخان...

وأشار بيده، وقال للحارس الذى دخل:

- بسرعة أرسل إلى "دانشمند حاجب"...

وسلم الجندى واضعًا ركبتيه على الأرض، وانسحب رويدًا رويدًا إلى الخارج.

وبعد قليل دخل رجل فى منتصف العمر ذو لحية سوداء. وسلم على القائد واضعًا ركبتيه على الأرض مثلما فعل الجندى من قبل.

- أمرك يا ابن الخان الكبير.

- اجلس ها هنا، يا "دانشمند حاجب". لقد سمعنا أن هنالك من جاءوا ووقفوا فى طريقنا. مجموعة من الجنود يصدرون الكثير من الجلبة والضوضاء ويتعصبون بقطع من القماش على خوذاتهم. هل لديك معلومات عنهم؟

وهز "دانشمند حاجب" رأسه مرتين صوب صدره، وقال:

- إنهم من الخوارزمين على كل الأحوال.

- خوارزمون؟ إننا لسنا على علاقة بهم حتى...

- نعم. وحتى الخان الكبير قد نبه بعدم التعرض لهم. إنه لا يريد فى الوقت الراهن محاربة شاه خوارزم "محمد".

- حسناً، فلماذا يقوم هذا الرجل ويقف أمامنا؟

- من الواضح أن ما حدث للماركيت قد أساءه وآذاه. ومن الممكن أن يكون قد أفرط على نفسه وشغف بغلبتكم وإيقاع الهزيمة بكم فيما بعد. إنهم هنا يكنون له بعض الاحترام.

- عجبًا. ما هذا الخلط ما بين إله السماء وآلهة الأرض.

وأحنى "دانشمند حاجب" رأسه. فلوقال لـ "جوجى خان" إن الله واحد للجميع، وأخذ فى الشرح والإثبات فما عسى أن يغير من الأمر؟. لقد جرب فى بعض الأحيان، ولكن النتيجة أنه لم يستطع أن

ينتزع منه شيئًا. كان "جوجى خان" يبتسم ساخرًا ومستهزئًا فى كل حرب يخوضها، وكان يهز رأسه قائلاً "ممكن"، ولكن أنا لا أو من بإله غير ذاك الذى يؤمن به أبى.

- إنك لم تجب علىّ يا "دانشمند حاجب"، من أين "للسلطان محمد" أن يصبح مالكًا لهذه الأراضى؟

- للإجابة على هذا التساؤل يلزمنا يا "ابن الخان" أن نقارنه بأنفسنا.

- بأنفسنا؟ كيف؟

- جنكيز خان هو الحاكم على كل بلاد المغول والصين...

- هكذا...

- وشاه خوارزم هو الآخر حاكم على هذه الأماكن...

- لا يمكن!. إن والدى هو هو خان كبير. وأى شىء يكون خوارزم شاه هذا الذى تقول؟

- إنه هوالآخر كبير فى قطره.

- هل هوجميع المسلمين؟

- قسم منهم...

- إذا كان الأمر كذلك فلسوف أسحقه. ولكن لابد لى من الحصول على الإذن من والدى لعمل ذلك. ولسبب غير معلوم فإننى

لا أرغب فى التشاجر مع هذا الرجل. وعلى أية حال هنالك مجال للتفكير.

- إنك تقول طيبًا.

وفكر "جوجى خان" لبضع دقائق، وقال:

- خذ معك عشرة أشخاص، واخرج لمقابلته. وخذ معك أيضًا بضع جمال على سبيل الهدية. وقل له لا نريد تلك الحرب، وإنه ليس هنالك من عمل لنا معه.

- ولوسأل عن السبب فى أننا قتلنا المركيت، فماذا أجيب به عليه؟

- عرفه بأن ذلك هوالعقاب الذى يستحقونه. واشرح له أنهم كانوا قد استسلموا لنا. وقل له إننا سوف نترك هؤلاء وسوف ندعهم له. وأننى لا أريد سكب الدماء على أرض فارغة.

والحقيقة أن "جوجى خان" كان يخشى من قلة قوته. لقد أخبره الجواسيس بأن: "الخوارزمين هم أكثر من حبات الرمال التى على التل". وكان هذا الخبر كفيل بأن يخيفه.

وغادر "دانشمند حاجب "الخيمة. وأخذ معه عشرة من الفرسان تنفيذًا للأمر الذى كان قد تلقاه. وساق أمامه عشرة من الجمال المنتقاه كهدية للسلطان ثم سار فى طريقه...

...

كان جيش خوارزم يسير بخيوله ركضًا، وكانوا من قبل يظهرون حماسًا عظيمًا لكى يظفروا بالأعداء.

وكانت أوامر السلطان "علاء الدين محمد":

- حتى ولو تصدعت خيولهم فلتغيروها، ولكن لا تتوقفوا فى الطريق.

و"جلال الدين" الذى كان يقود الجناح الأيمن لم ينفذ ذاك الأمر الذى صدر عن والده، كان يفيض بالألم وهويكلم "تيمور ملك "الذى كان يقود حصانه بجانبه قائلاً:

- إن هذا شىء يشبه الجنون. إن كلاً من الحيوانات والجنون قد تعبوا وأجهدوا، ولوتقابلنا مع الأعداء ونحن على هذه الحال، فكيف تكون العاقبة؟

وصدق "تيمور ملك" على كلام "جلال الدين" بعينيه، ولكنه لم ينبس ببنت شفة. لقد آثر الصمت لأنه يعرف كم سيكون شيئًا مؤلمًا إذا ما تحدث.

وجاء اثنان من العيون (الكشافة) وهما يلهثان، وأعلنا:

- هناك مجموعة من الفرسان قادمة وهى تحمل علمًا أبيض.

وإثر ذلك، توجهوا جميعًا بخيولهم صوب الشاه، وفى وقت قليل كانوا قد وصلوا إلى السلطان، فقال "جلال الدين" متسائلاً:

- يا سلطانى، هنالك جمع قادم وهم يرفعون الأعلام البيضاء، فبماذا تأمرون؟

زر السلطان عينيه، ورنا بهما إلى بعيد، ثم سأل:

- من هؤلاء؟

- إنهم على أية حال سفراء المغول.

- إذن أحضرهم إلى فورًا.

- على الرأس أوامركم.

وأمر السلطان جنده بالانتباه. وأرسل التعليمات إلى قواده من أجل أن يكونوا فى وضع الاستعداد. كان يريد أن يثبط من عزم الأعداء بأن يرى السفراء عظمته وشوكته. ولكن عندما رأى نظرات غير مكترثة أو عابثة، فهم أنه أتعب نفسه بلا طائل.

كان "دانشمند حاجب" فى المقدمة. كانت على رأسه عمامة بيضاء. كان السلطان متحيرًا مثله مثل كل شخص. كان هذا الرجل يلبس زيًا يشبه زى المسلمين. وإذا ما كان الأمر كذلك فماذا فى جيش "جوجى خان"؟

اقترب الرجل الذى يرتدى عمامة بيضاء. ونزل من على فرسه. واقترب عدة خطوات أخرى. ثم توقف. وانحنى انحناءة احترام وتقدير وضم يديه إلى صدره، ثم قال:

- "دانشمند حاجب" سفير "جوجى خان" الابن الأكبر لجنكيز خان حاكم المغول، وقائده يسلم على شاه خوارزم الكبير.

لم ينزل خوارزم شاه من على حصانه. وتلقى تحية السفير برفع يده اليمنى، ثم سأل:

- ماذا يريد قائدكم؟

- ان قائدى يقول: إننا لسنا على علاقة بالخوارزمين ولا شأن لنا بهم. لقد سحقنا المراكيت عقابًا لهم. نحن لا نريد أن نسكب الدماء هباء.

- على ما يعتقد فإنك مسلم، وتقوم على خدمة وثنى دون خجل.

جفل "دانشمند حاجب"، وقال:

- ما الداعى إلى الخوض فى مثل ذلك يا سلطانى؟

- كونك مسلم. ألا يكفى هذا؟

- إننى لا أظن أن الإسلام هو الدافع إلى ذلك. لست أنا الذى يبسط دينى تحت قدمى أى شخص. المسألة أننى أسير وحسب. إن أحد المسلمين لم تستطع أن تحميه سيكون أسير "جنكيز خان" بالتأكيد.

ثم تنهد وتابع حديثه:

- إنهم أخذوا الأسير ويسخرونه. أما دينى وإيمانى، فلن يمكن تحت أى ظرف من الظروف أن ينال أحد منهما.

ومع أن "تيمور ملك" كان يهنىء الرجل من داخله، إلا أنه غضب عندما رآه يتكلم بهذا الكلام الكثير وإلى ذلك الحد أمام السلطان، فقال:

- إنه يتحدث كثيرًا يا سلطانى.

- فاستدار "دانشمند حاجب" إلى "تيمور ملك" وقال:

- لقد سألتم، وأنا أجيب.

فصاح "نيشابور" أحد خانات المغول بحدة وغيظ:

- اسكت! لا يمكن الإجابة على كل سؤال يطرح.

- هنالك بين المغول قول. إنه يقول حديث بلا استفهام أو استعلام. وأنا أسير على هذا النهج.

ولكى لا يتيح السلطان الساحة للاشتعال من المناقشة، فإنه دخل فى الموضوع، وحسم الموقف قائلاً:

- اسكتوا جميعًا. ولتتحدث أنت أيها السفير وننظر فى الذى لديكم من أخبار عن مدى قوة قيادتى؟

- بالتأكيد، إن قوات استطلاعنا التى هى الكثرة كما حبات الرمال قد أطلعونا على أخباركم منذ وقت طويل.

- معنى هذا أنكم لأجل ذلك تفرون من القتال.

- يا سلطانى، إنكم تخبطون بين الرغبة فى القتال وبين الفرار والهرب. لقد خاض "جوجى خان" حروبًا بجيوش أكثر عددًا.

- والآن هو قد خبر الحياة وأجاد معرفتها، أليس كذلك؟

- وجنده أيضًا معه...

استوى السلطان محمد واعتدل على ركابه من الغضب. ثم نادى:

- يا أيها الناس!.. هل طننتم أنى من "المركيت"، أم أننى "صينى" رعديد جبان؟ والآن هل هو "جوجى"، أم هوالرجل الذى هوعقوبة من الله، إذن فليخرج إلى! ولسوف أسحقه كما النمل.

ولوى "دانشمند حاجب" رقبته، وقال:

- لا تكونن فى شك أبدًا مما سبق أن قلته ونقلته إليكم. وأرى من المفيد أن أكرره مرة أخرى: لا شأن لجوجى خان بكم، وهولا يرغب فى إراقة الدماء هباءً

- واى! إنه مازال يتحدث ويتكلم. إننى لا أضع فى الحسبان الدماء التى تراق عندما أضع قدماى فى هذا المكان أوذاك.

وسلم السفير مرة أخرى وأخذ معيته وساق فرسه بسرعة وعجلة. ونظر "جلال الدين" إلى الفرسان وهم يعدون مسرعين فترة من الوقت، وقال متمتمًا:

- إنه لرجل شجاع.

لم يأت الخبر على هوى "جوجى خان"، ولكن العين الوحيدة لـــ "صوبوتاى بهادر" قد لمعت وتلألأت. وعندما رأى "جوجى"هذا، فإنه قال مازحًا:

- إننى أرى عينيك وقد لمعت مرة أخرى يا "صوبوتاى بهادر". فى الغالب شممت رائحة الدماء. ولكن لا تفرط فى الاشتهاء، فلن تصير الحرب.

فقط تمتم وهمهم "صوبوتاى" بغضب.

كان جيش خوارزم قد أرهق وأنهك من التعب. كانت الخيول تتحرك بصعوبة. وأخذ "تيمور ملك" يناشد السلطان بالاستراحة لفترة من الوقت ويتوسل إليه ولكنه لما لم يجد استجابة فإنه قنع فى النهاية بالسير على وجه السرعة. ولى النهار وأخذ الجو فى الإظلام. وبذلك انقضى الوقت الذى تكون فيه الأوضاع ملائمة للقتال. وإذا ما حدث وتعرضوا لشىء مع ما يسود الجومن برودة الفجر، فإنهم لم يكونوا ليتمكنوا من لم شتاتهم حتى ينتصف النهار.

استراحوا فوق إحدى التلال. ومن هنالك كان من الممكن رؤية معسكر "جوجى خان "بسهولة ويسر. وتم تعيين الحراس على كل جانب. كان "تيمور ملك "قد أمر بالتفحص فى النواحى المحيطة للإحاطة علمًا بما يجرى هناك ثم انسحب داخلاً الخيمة ومعه "جلال الدين" و"صارى لاگود".

مرت الليلة بلا أحداث. وكان "تيمور ملك" و"جلال الدين" يخرجان من الخيمة عدة مرات لكى يشاهدوا النيران الموقدة فى معسكر "جوجى خان".

وعلى أية حال كان مكان العدوشديد الزحام، ولم يكن يصغر أو يقل. كانوا على علم بأنهم إذا ما كانوا سيهزمون فى البداية، فإنهم كانوا سيقومون بعمل تأثير يزيح ما وقع عليهم من تأثير سلبى ومن ثم يدفعون بالهزيمة رأسًا على عقب.

كان هنالك اثنان من الأصدقاء يتحدثون فيما بينهما عما يتحقق من أية حركة تحدث وهما يجلسان طوال الليل وحتى الصباح.

وبعد أن أدى الجند صلاة الفجر فى جماعات متخذين مع بعضهم البعض شكل مجموعات، فإنهم اجتمعوا بناء على صدور أمر بذلك. تفككت الخيام. وأخذ الجند أماكنهم بشكل منظم.

ووقف القواد على رأس قواتهم. وعلى حين كانت الشمس ترتفع برأسها من بين التلال تستبين على البعد البقية الباقية من النيران التى أوقدت فى معسكر "جوجى خان" وهى على وشك أن تخمد.

وأجال شاه خوارزم ببصره فى الأماكن من حوله بكبرياء. وكان يقوم بالتفتيش على جنده مرة وهويشب بحصانه وآنا آخر وهو يقوم بإيقافه. وأخذ يتلهى بعضًا من الوقت أمام "جلال الدين". وأجال

ببصره إلى أسفل عدة مرات وهويرمق ابنه من أعلى إلى أسفل، قائلاً:

- إننى فى انتظار أن تظهر الفوائد والمنافع فى تلك الحرب يا "جلال الدين". لقد سررت أمام رغبتكم. وآمل أن لا تخجلنى.

ثم التفت إلى "تيمور ملك"، وقال:

- وأنت يا "تيمور ملك"...

فأجاب الاثنان سويًا وفى نفس واحد:

- على رأس أوامركم يا سلطانى.

وذهب. وذهب على رأس الجنود الذين فى المركز. وسحب سيفه. ورفعه فى الهواء. وبعد أن مسكه بهذا الشكل لفترة من الوقت، وتوجه الى الأمام بسرعة، وصاح:

- باسم الله، الهجوووم!..

وبسرعة نزل جيش خوارزم من على التل. ووصلت صيحات "الله الله" إلى عنان السماء. وفى وقت قصير وصلوا إلى المعسكر. وهجموا على الخيام.

- ما هذا؟...

كان كل واحد يصيح فى نفسه بهذا السؤال:

- ما هذا؟...

كانت الخيام خالية تمامًا. لم يكن هنالك أى أثر لأى إنسان.

لم يكن هنالك سوى كلبان قد خرجا من بين العظام وهما يجولان بعيونهما بحثًا عن شىء يأكلانه.

ومن ثم بدأت العقول فى التفكير فى السبب:

- إذا كانت المعسكرات قد تركت أثناء الليل، فمن الممكن أن يكون هذا.

- إذن والنيران؟ لقد تركوها لكى تخدع الأبصار حتى الصباح.

- إنها عبارة عن خدعة لعبها "جوجى خان". لقد أشعل النيران فى كل ناحية حتى،.. حتى يلقى فى روعنا أنه مازال فى المعسكر.

- لم ينزع الخيام هى الأخرى...

- لم ينزعها البتة... ولكنه أخذ أحماله وأثقاله، انظر، ليس هنالك حتى من جوال للشعير يمكن أن نسلبه...

كان السلطان "علاء الدين محمد" فى وضع لا يحسد عليه. إن مسألة وقوعه فى خديعة كادت أن تودى بحياته. ولم يكن بإمكانه أن يهضم مثل الذى حدث.

- الجبناء، الجبناء!

قال هذا وهو يصيح إلى الوراء، ومن ثم أخذ فى العودة متجاوزًا أطراف المعسكر بعد أن ضرب حصانه بحرص.

وفى النهاية سكت وسكن، ثم أعلن عن القرار الذى توصل إليه قائلاً:

- سيتم تعقب الأعداء.

وهمس "تيمور ملك" إلى "جلال الدين":

- هل يجوز السعى لتعقب العدوالهارب، حتى يصدر السلطان أمرًا كهذا يا "جلال الدين"؟ إننى لعلى ثقة بأن "جوجى خان "هو طليعة الجيش وحسب. إنهم يوقعوننا فى مكان ضيق قدر البوصة. اذهب إليه، وقل لوالدك ليجد حيلة أو وسيلة.

وساق "جلال الدين" حصانه وسار به صوب والده، وقال:

- يا سلطانى، هل يلزم تعقب الأعداء ومطاردتهم؟ فما داموا قد فروا منا خائفين، فلماذا الذهاب إليهم؟ لقد نفذنا رغبة خانات القبجاق التى كانت تتمثل فى الذهاب إلى الحرب وها نحن قد جئنا. فلنذهب ولنجد القره خطاى. لنأخذ بأيدى القبجاق، ولكن لنترك "جوجى خان" وندعه لشأنه.

وأسكت السلطان ابنه بنظرات حادة، وقال له:

- أنت يا "جلال الدين" تتحدث مثل الأطفال قليل الخبرة والتجربة. إن معنى أن الأعداء قد خافوا وهربوا أنهم لا يثقون فى قوتهم، وإذا كنا بتعقبنا لهم نمحو أثرهم، فلماذا إذن نتوقف؟

- إننا لم نفعل شيئًا حتى الآن سوى أننا قمنا بالسير وراء الفارس والهاربين. ويخشى من أن يكون هؤلاء ليسوا سوى طليعة جيش كبير. وفى حال تعقبنا لهم يمكن أن نجد أنفسنا وقد وقعنا فى أحضان "جنكيز "وتكون بذلك النهاية لنا على أية حال.

واغتاظ السلطان كثيرًا. ثم أخذ يصيح بأعلى صوته:

- لقد وجب عزلك عن القيادة. اذهب ولا تراك عينى!

انسحب "جلال الدين" إلى الخلف دون أن ينطق كلمة واحدة. وذهب إلى "تيمور ملك"، وقال:

- كل شىء ذهب هباء. لقد سود خانات القبجاق الرؤية لديه، وقد أصبح يخشى من أن يتزعزع أويهتز تمامًا من اعتباره إذا رجع إلى "خوارزم "دون أن يحقق نصرًا كبيرًا.

وهز "تيمور ملك" رأسه على الجانبين، وجعد من وجهه.

لم يكن السلطان معجبًا قط بخروج ابنه "جلال الدين". إن هذا الولد يبدأ فى العصيان والتمرد أكثر فأكثر بمرور الوقت، كما بدأ فى عدم الإعجاب من أية إجراءات يقوم بها والده. كان على نفس شاكلة أستاذه "تيمور ملك" فى التعقل. كانت كل هذه الأنظار تخرج من رأسه. كان يظن فى نفسه أكثر تعقلاً من السلطان حينما كان يتوجه إليه لأخذ النصيحة منه. وفى حال لم يكن يأخذ بنصحه، فمن يدرى إلى أى مدى يمكن أن تصل جرأته؟

وأمر أحد الضباط الذين كانوا فى معيته بإحضار "تيمور ملك" فى التو والحال. وعندما صار فى مواجهته، فإنه أصدر الأمر إليه دون حتى أن ينظر فى وجهه، وقال:

- خذ معك عشرة من الأبطال وقم بمهمتك الطليعية.

- على الرأس أمرك يا سلطانى.

كان السلطان يظن أن "تيمور ملك" لن يقبل هذه المهمة الصغيرة. كانت آنذاك ستصبح الفرصة مواتية من أجل توقيفه. ولكن الذى توقعه لم يحدث، لقد قبل "تيمور ملك "القيام بهذه المهمة البسيطة التى أعطيت له دون أدنى تردد.

وفجأة أصابته الحيرة، وقال:

- معنى ذلك أنك قبلت المهمة؟

- ولماذا لا أقبل؟ إننى أتلقى وأفهم خدمتى فى كل خطوة يخطوها جيش الإسلام هذا على أنها عبادة. ومنها يكن من هو الذى يديره، فإن كل مسلم يخرج إلى الجهاد من أجل الحصول والفوز برضا الله تعالى. وكل ذراع لجيش كهذا هى عمل فى الثواب.

وأحنى السلطان هامته. كان فى خجل من نفسه.

- كان الله فى عونك.

- سلمتم.

تعب الجيش كثيرا، وفقد قابليته للتحرك بسرعة. وفى أى مكان كان يتم تطويقه كان يقرأ (الفاتحة) على روحه.

...

قطع "تيمور ملك" وأصدقاؤه الكثير من الطرق فى وقت قصير، وكان أحد العقلاء يفتح لهم الطريق. ولم يكن هنالك حتى هذه اللحظة من شىء يمكن أن يروه. كانوا يصادفون آثار حوافر كثيفة فى الأراضى الرملية وحسب.

وفى تلك الأثناء عبروا من القرى المخربة. لقد تم إعمال السيف فى كل ساكنيها، وحتى الأطفال والنساء لم يسلموا جميعًا من ذلك. وحتى "صارى لاگود" الذى كان يتفاخر بأنه يملك قلبًا قاسيًا، كان مضطرًا لأن يحول رأسه إلى الناحية الأخرى من أجل أن لا يرى ذاك المنظر. لم يكن ليمكنه أن ينسى بأى شكل من الأشكال ومهما طال به العمر حالة رجل عجوز تم تسميره فى وتد ورأسه تدلت على خاصره. وحينما خلصوا من ذلك الوضع، نظر المسكين إلى وجوههم فترة من الوقت بعيون زائغة ومن ثم خرجت من فمه هذه الجملة ومعها الدماء:

- احذروا، العفاريت يتجولون!...

وسقطت رأسه إلى ناحية، واتشحت عيناه بالبياض.

أخذوا يتعقبون الأعداء طوال يومين ولا يستريحوا إلا من أجل أن يؤدوا الصلاة أو يتناولوا طعامهم. وبالإضافة إلى ذلك، كانوا

ينزلون من على أحصنتهم من أجل تسمير الأوتاد التى نحتت رؤوسها بمسافات معينة فى الأماكن التى مروا بها. وتلك الإشارات سوف تبين الطريق للجيش الخوارزمى الذى سيأتى خلفهم.

وعندما كانوا يعبرون إحدى الغابات قرب الظهيرة فى اليوم الثالث بدأت الخيول فى المشاكسة والمعاندة فجأة ولسبب غير معروف. كان حصان "تيمور ملك" يقف الآن ويحفر بقدميه، ولا يريد التقدم إلى الأمام. وعلى الفور فهم ماذا يعنى ذلك نظرًا لأنه محارب ويمتلك تجربة فى هذا الخصوص:

- هنالك خطر بالقرب منا. علينا أن نأخذ الحذر.

وما إن قال ذلك، حتى أسرعوا بسحب سيوفهم وشرعوا يطوحون بأيديهم بها.

ومضى عليهم بعض الوقت وهم يحسبون أن عدوًا يمكن أن يطلع عليهم من خلف كل شجرة.

وفجأة، انكب سيل من الرجال من فوق الأشجار واحدًا تلوالآخر. وصاح "تيمور ملك "قائلاً:

- خذوا حذركم! لقد تدحرج على الأرض من الرجل الذى سقط عليه.

وبدأت معركة شاقة. حينما وقع من على فرسه، كان بلا سلاح لأن سيفه كان قد طار من يده. وحتى لوكان السيف فى يده فى هذا الموقف ذاته لما كان بإمكانه أن يستخدمه.

ظل القتال دائرًا لفترة من الوقت يقوم هوبطرح عدوه أرضًا تارة ويقوم الآخر بطرحه أرضًا تارة أخرى. وكان الرجل يقول شيئًا فى بعض الأحيان. ولكن "تيمور ملك "لم يكن يفهم شيئًا مما يقول لأنه لم يعرف اللغة التى يتكلم بها.

وفى النهاية وفق فى أن يطبق بأصابعه على خنجره. وعصره... بيد أن عدوه كان يترنح كثيرًا. وبعد أن تخبط لمدة قصيرة استطاع أن يتخلص من يده. فاستوى معتدلاً. وسحب سيفه الملتوى والذى كان يضعه فى خاصره، وهزه صوب "تيمور ملك" الذى كان يرقد الآن على الأرض.

وفى حركة سريعة كلمح البصر استطاع "تيمور ملك" أن ينتحى من وسيلة سوى سحب خنجره القصير. ولوى ساقيه؛ وقال:

- تعال للنظر...

وتم القذف بالمغولى. ومرة أخرى انتحى "تيمور ملك "جانبًا. ومد يده التى تمسك بالخنجر إلى الأمام وبسرعة البرق. ودخل الخنجر بطوله فى بطن الرجل. وفر عمود من الدماء الحارة لتلوث يدى "تيمور ملك" وترددت أصداء صيحة مرعبة داخل الغابة.

وبحركة سريعة سحب سيفه من المكان الذى سقط فيه. وتجمع أصدقاؤه وبدأوا فى القتال، فصاح قائلاً:

- ليسوا كثيرًا. تحملوا واصبروا!

وبعد فترة قصيرة توصلوا إلى النتيجة. لقد مات اثنان من أصدقائهما، ولكن خمسة أشخاص من المغول كانوا قد تم التغلب عليهم.

وقام "تيمور ملك" بتجفيف حبات العرق التى احتشدت على جبهته بيده، وقال:

- غالبًا أصبحنا على مقربة منهم. إن هؤلاء على أكثر تقديرهم مؤخرة جيش العدو. إن جيش "جوجى" قد خلد إلى الراحة فى مكان قريب من هنا. ولسوف يخبرهم الفارون بشأننا. فلنعد ومن ثم نعلمهم بما آل إليه وضعنا.

وفى البداية تثبتوا من المكان الذى كانوا يتواجدون فيه. لم يستطيعوا أن يسيطروا على أنفسهم من الدهشة حينما عرفوا وفهموا الأمر. لقد كانوا على ضفاف نهر "إيركيز". ومعنى ذلك أن جيش "جوجى خان "كان قد نزل على النهر مرة أخرى على شكل قوس. لقد كان يرغب فى أن يكون بالقرب من المياه لسبب غير معروف.

وقال "تيمور ملك":

- والآن ليس لدينا متسع من الوقت نضيعه. علينا أن نعود لنملك زمام أمورنا.

وعادوا أدراجهم.

...

عندما تلقى "جوجى خان" خبر اقتراب جيش خوارزم، كان يتعاطى الشراب فى الخيمة. ومد القدح الفارغ إلى إحدى جواريه وهو يمسح شفتيه الدقيقتين بظهر يديه، وقال:

- إيه... بما إنهم قد وصلوا إلينا إلى هذا الحد...

ولم يعد كلامه. والتفت إلى "صوبوتاى بهادر" الذى كشر عن أنيابه دون توقف وهو يشحذ أظافره فى خنجره. وقال:

- استعد يا "صوبوتاى". لقد حان الوقت لتلقين الدرس لشاه خوارزم.

ونهض "صوبوتاى" على قدميه. وغادر الخيمة وهويؤدى التحية إلى الخان.

وفى الوقت ذاته تلقى شاه خوارزم أخبارًا من "تيمور ملك"، ومن ثم أصدر أوامره:

"لنستعد للقتال"

ساروا الليلة بأكملها، وفى اليوم التالى وحينما كان نور الصبح ينبلج، فإنهم رأوا النيران التى تشتعل داخل معسكر الأعداء.

كان كل شىء جاهزًا من أجل بدء القتال. ومرة أخرى أسند السلطان قيادة الجناح الأيمن إلى ابنه "جلال الدين". وكان هو نفسه يتولى المركز، أما الجناح الأيسر فكان قد أسنده إلى "طوركاى" أحد خانات القبجاق.

وأخذت الشمس تظهر رويدًا رويدًا. فكانت تتداعب على الأوراق التى تبللت بالرذاذ. وكان الإستبس يتملظ برياح عذبة. وقام "شاه خوارزم" بجمع قواده عنده وقال لهم:

- سوف نتحرك من مغرزتين. وسنقوم بالهجوم من ناحيتين الأولى من جهة "جلال الدين" والأخرى من جهة "طوركاى".

ثم توجه بحديثه إلى كل من "جلال الدين" و"طوركاى" مباشرة، وقال:

- سوف تسعون لأن تأخذوا العدوعلى شكل دائرة. أما أنا فلسوف أتكفل بالمركز وآخذ "جوجى خان "أسيرًا. وأنا أنتظر منكم جميعًا الصبر ونكران الذات. ولسوف يكون النصر حليفنا. كان الله فى عونكم جميعًا...

وقام المعلم بالدعاء بدعاء قصير. وصعد "السلطان محمد" إلى هضبة صغيرة. ونظر طويلاً إلى الجنود الذين يلتحمون ببعضهم البعض فى معسكر العدو، ثم عاد إلى رجاله الذين ينتظرون أوامره، وقال:

- أعدوا الموائد، ولتتجهزوا...

وأعدت الموائد على عجل. وفرشت الأبسطة الأعجمية على الأرض. وزودت بألوان مختلفة من الطعام والشراب. ومن المحتمل لوكان "جنكيز خان" قد رأى هذا المنظر لكان قد انضم إليهم على سبيل الضحك.

وفى ذات الوقت كان "جوجى خان" يتفقد قواده. وقال لهم:

- ليس هنالك من سبب لأن يساوركم القلق. إن النصر حليفنا الآن وكما هوبادٍ حتى الآن. علينا أن نكسب ونفوز. وفى الأساس ليس كسب الحرب هوما يشغلنا. لننظر فى مسألة الخروج وتصديع الحصار بقليل من الخسائر. وحتما سنعود إلى هنا مرة أخرى. وها هو"شاه خوارزم "حينذاك سيبحث عن ثغرة للفرار منها. عليكم ألا تتخلوا عن قيادة جنودكم حتى ولوكان الموت مدرككم. وكل ما تستولون عليه من جند أوخيول لخوارزم ستكون ملكاً لكم. ويمكنكم أن تبيعوها إن شئتم. أوحتى يمكنكم أن تستخدموها فى خدمتكم.

وقبل أن يثب فوق حصانه، فإنه ربط ذيله، ورتب على عرفه. ونظر وهو يبتسم إلى كل من قائده "صوبوتاى" و"طقوجار". وبالمثل قابله الجنديان اللذان يشبهان الذئاب.

وكان "جلال الدين" هوالآخر قد امتطى صهوة حصانه، وسار حتى أصبح أمام جنوده، وسحب سيفه، وقال:

- أيها التركمان الأبطال، أيها الأبطال أسود الجبال! ها هوعدوكم أمامكم مصطفاً. ولسوف ندمرهم بإذن الله على هذه الأرض. ولسوف يكون النصر حليفنا. فإلى الأماام!...

وهبطوا من المنحدر المتكور للغاية مثل الغر غير الناضج الذى ينخلع من الجبل.

وخرجوا إلى السهول.

وبدأت الحرب. وقاموا بمواجهة نعرات وصيحات المغول بقولهم: الله.. الله.. وتوسعت وانتشرت أصوات صليل السيوف وصهيل الخيول.

كانت خيول المغول مغطاة بجلود خشنة للغاية وسميكة. كما كان الجنود مدرعين بالطريقة ذاتها. ودخل الحرب ألف محارب فى عشرة صفوف. كان الانتظام يلفت الانتباه من النظرة الأولى. وفور إصدار الأوامر لم يكونوا مشغولين سوى بمد الرؤوس إلى السيوف. وانشق الصف الأول بقليل من العناء.

وكان "جلال الدين" يكبس على الجناح الأيمن للمغول بكل ما لديه من قوة، وكان يسير وهويسحق كل من جاء فى مواجهته. ولكن لم يظهر الخان القبجاقى الذى كان على رأس الجناح الأيسر نفس القدر من النجاح. أما السلطان فكان الآن يجلس على رأس المائدة، فكان يملأ بطنه من جهة، ومن جهة أخرى كان يراقب الحركة. وكان لا يتوانى عن تقدير حال "جلال الدين"، قائلا وهويتمتم لنفسه:

- إنه قائد حقيقي.

ولفترة غابت الساحة داخل عاصفة من التراب. فنهض "السلطان محمد" من على المائدة. وأخذ ينظر بعناية وهويتقى عينيه بيده. لقد هجم أربع من مغرزات المغول على الجناح الأيسر، وبدأ

فى الصعود صوب المكان الذى كان متواجدا فيه بسرعة. ولم يكن هنالك من وقت للتوقف، فصاح قائلا:

- احضروا فرس.

واعتلاه. وعبر من أمام قوات المركز. وكان كلما أشار الى مغرزة المغول التى كان قد اقترب منها صوب تلك التلة، كان يقول:

- تعالوا من ورائي، بسم الله، الهجوم!...

فنزلوا من أعلى التلة بسرعة. وسقطوا على الأعداء كالصاعقة.

لم يكن المغول قد حسبوا حساب هذا. فعادوا أدراجهم بسرعة دون أن يواجهوا أيا من القوة التى وقعت عليهم. وكان من الواضح أن هناك بعض من المغزلات التى أصبحت على استعداد لأن تتشتت وتتفرق.

ولم يتأخر "صوبوتاى" الأعور فى استيعاب الموقف. فصاح بصوت مرعب وصل إلى عنان السماء، وقال:

- من يهرب فسوف ألقى به على الخازوق !....

وداخل جنوده رعب أكتر وأكبر من رعب الموت الذى سرى بينهم. إن نهر "إيركيز" يحيط بهم من ناحية، ومن ناحية أخرى هنالك خوازيق "صوبوتاى". كانوا فى موقف من يختار موتة على موتة

أخرى. واختاروا أفضلهما. وعليه تقدموا إلى الأمام مفضلين أن يلقوا بأنفسهم تحت سيوف الخوارزميين.

- لو!... لو!... لو!... لو!...

كانوا يصيحون بهذه الكلمة. ومن ثم واتتهم الجرأة، والتحم شملهم. كانوا يجرون صوب الموت مغمض العيون.

كانت الحرب تسير على نحو دام. ومع ذلك كان "السلطان محمد" يؤمن بأنه سوف يكسب الحرب خلال وقت قصير. كان يقف منتصبا تمامًا وهوعلى ظهر فرسه الرمادي، وفى وسط حرس من مائة شخص غير متسلحين سوى بالسيوف، وكان من آن لآخر يصيح من أجل تحميس جنده، قائلا:

- اضربوا ياأسودي، اضربوا ياصقوري، اضربوا!...

ولكن لم يكن الموقف جيدا بالقدر الذى حسبه السلطان.

لقد انفرط عقد الجناح الأيسر من الجيش الخوارزمى الذى كان تحت قيادة "طوركاى" من قبل "جوجى خان" وأسرع "صوبوتاى" الذى كان فى موقف صعب لتقديم المدد. وفى الوقت ذاته كانت القوات الطاعنة فى السن بأكملها تساق إلى ميدان القتال.

تخبطت تلك القوات الخواريزمية الجديدة فى بعضها البعض، وكان السلطان يصر على شفتيه إلى حد الإدماء، ويقول:

- أدير حربا كهذه على مدى العام، ولكن لم يكن لدى خبر عن تقدير حرب على هذه الشاكلة. إنهم رجال كالشياطين!...

وساق نصف المجموعة التى كانت فى حراسته إلى الأمام، قائلا:

- ليست لدى حاجة لحمايتي، اذهبوا إلى إخوانكم فى الدين وساعدوهم.

ومع ذلك لم تفد هذه الحركة فى شيء. وحتى السلطان نفسه دخل فى دائرة الخطر. أما "جلال الدين" فكان مشغولا بإعمال السيف فى رقاب المغوليين الذى يسعون للفرار من أمامه.

وإن قد أبعد "تيمور ملك" عن نفسه. فكلما كان يعرف فهويجيد اللعب بالسيف، ويثير به الموت، لقد فصل رأس أحد الخيول. وعندنا يرى أنه لم يتبق أمامه من أشخاص ليقاتلهم فإنه كان يبدو كمن يبحث عن شيء. وفجأة امتقتت عيناه لقد كان السلطان فى خطر، فحول حصانه. وصاح بما يمكن من صوت، وقال:

- أيها التركمان الأبطال، تعقبوني. إن سلطاننا فى خطر!...

وكانت هذه الكلمات كفيلة بإثارة حميتهم وأصبحوا جميعا على قلب رجل واحد. وتحركوا فى غاية السرعة. وسعوا إلى إمداد قوات المركز التى كانت على وشك الذوبان.

- الله، الله، الله!...

- لو!.. لو!.. لو!..

- اضرب ها!... اضرب ها!...

كان التركمان التابعيين لتيمور ملك منظمين بنفس مستوى المغول، وفضلا عن ذلك كانوا مسلمين ظمأى للاستشهاد. لقد كانوا يحملون أرواحهم على راحة أيديهم وكانوا يتضاربون بأسنانهم.

وعندنا فهم "جوجى خان "إنه لا قبل له وليس فى إمكانه أن يمسك بزمام الأمور أكثر ن ذلك فى مواجهة ذلك السيل المؤمن، فإنه اتخذ قرارا على وجه السرعة، وصاح قائلا:

- إلى الجبال!.

وبعد فترة من القتال المتقطع انسحبوا. وكانوا يخسرون خسارة عظيمة. وفجأة تخلوا عن القتال من بعد. انسحبوا نحو الجبال بسرعة جهنمية وهم ملتصقون كالحلقة فى أعراف خيولهم الصغيرة.

بعد قليل لم يكن فى ساحة القتال سوى أجساد مقطوعة الرؤوس فقط من جنود الأعداء وكذلك الجرحى الذين يسلمون الأرواح. وفرح "السلطان محمد" من نجاحهم.

لقد فر أعداؤه، وهذا بالقطع نجاح له. ولكنه كان قد أيقظ الثعبان النائم، كما أنه كان قد ألقى ببذرة الحرب الطويلة التى تستمر لسنوات وتخلف وراءها الدمار والأشلاء.

- لقد كان النصر حليفنا، الحمد لله!...

فتح ذراعيه وأخد فى الدعاء طويلا. وبينما هويمد بيديه على وجهه، سمع صوتا يأتيه من جانبه،

- ما تم الآن ليس نصرا، يا سلطاني.

تُرى من ذلك الصفيق المليء بالحقد، والذى يرغب فى قطع فرحته؟...

- ها! هوأنت، يا تيمور. أحسنت، ومريء بك، لقد كنت تتصرف بالبرق. ولكن لماذا تقول الآن هذا الكلام المُر؟

- الحقائق مُرة، ياسلطاني.

- ذاك ماهوإلا نصر، لقد فر الأعداء، ورجائى من ورائهم، وأعملوا فيهم جميعا سيوفهم. ماذا تريد غير ذلك ؟...

- هذه مجرد بداية، مجرد بداية وحسب.

- عجبا لك، ماذا تغنى بكلامك من البداية ؟

- عن بداية الحرب.

- لقد انتهت الحرب، ولقد رأيت بعينك.

- أبدا يا سلطاني، ربما تكون المعركة قد بدأت الآن. إن "جنكيزخان" لن يتحمل ذلك.

- الآن تعود إلى الخوف...

وشعر "تيمور ملك" أنه قد امتقع فى لونه.

- هيهات، ترى هل هناك أكثر سوءًا بهذا الحد من سوء الفهم؟

ونظر السلطان بحده:

- أنت منهك يا تيمور ملك، هنالك، اذهب وخذ راحتك.

- على الرأس أوامرك يا سلطاني.

وذهب إلى حيث "جلال الدين".

- كان هؤلاء الطلائع الجيش كبير للغاية. ولقد كسبنا، ولكن ليس هنالك من شيء لكى نفخر به. لوهجم جيش المغول العظيم على حفنة من القوات من طلائع المغول، ما هواللزوم أو الغرور إلى شيء من ذلك؟ الأصل أن الحرب تأترى من بعد. وما دمنا قد سلكنا هذا الطريق مرة واحدة، فإنه يجب علينا أن نبدأ الآن فى الاستعداد وبسرعة.

- كان "جلال الدين" على نفس هذا الرأي. إنه يفكر كما يفكر "تيمور ملك" كان يشارك "تيمور ملك" فى أفكاره وأداته. كانا كأنهما أخوان متلازمان.

***

أقيمت الخيام على ضفاف نهر "إيرتس" Irtis. كانت الأمطار الخفيفة تهطل على الأرض فى شكل شرائط رقيقة وتتخذ أشكال

الحبوب عليها. كانت كل الخيام هى هى نفسها. ولكن كانت هنالك واحدة منها يمكن ملاحظة أنها تختلف عن الأخرى من النظرة الأولى. كانت مصنوعة من الحرير الأصفر. وكانت أوتادها من الذهب. وأمام الباب كانت "طوغ "من تسعة من ذيول الخيل معلقة.

هذه الخيمة الصفراء، كانت خيمة "جنكيزخان" ذوالوجه الأصفر. كان بداخلها مع زوجته الشابة المسماه "قولان خاتون" Kulan Hatun بمفرديهما. كانا يتحدثان سويا. قالت "قولان خاتون":

- الآن وقد نلت أملك، أيها القائد الكبير، وحققت رغباتك، ألا يكفيك هذا؟ ألن تنتهى هذه الحروب المتواصلة التى تشبه الشلات الكبيرة من أجل خاطري؟ فى كل وقت تحط من غصن لغصن مثل النسر المتوحش وتسير من جبل إلى جبل كالذئب المفترس؟ ألن توصلنى السنين قط فى وقت من الأوقات لما أصبو إليه؟

وداعب "جنكيز" النيران التى بداخل عيونه والتى تشبه كثيرا عيون الصقر، وقال:

- لا يليق بك ياقولان خاتون أن تفكرى بنفسك كأى امرأة أخرى. أنت سلطانة على النساء. تملى كل نساء العالم أنت السلطانة. ويجب عليك أن تفكرى بأسلوب آخر! ولكن حسنا ما قلته، مثل صقر وحشى تنتقل من غصن إلى غصن، ومثل ذئب مفترس تنتقل من جبل إلى آخر... نعم، لن تهدأ هذه الحروب أوتخمد حتى تدين الدنيا كلها لحكمي.

- لكن لماذا؟

- لأن... لأنها رغبة لاتطاق أوتهدأ لكى أجعل كل حصان وكل امرأة لحاكم أهزمه ملكا لي، وأنا لا أستطيع أن أقف أمام ذلك، إننى أعطيت كلمة لجندى فى هذا الخصوص. لن أضع سيفى فى غمده حتى أجعل الدنيا عبيدا لى يرزحون عن قدماي.

- لوأن سهما غادرا أصابك يوما ما، وفرقك عني، فلن أستطيع الحياة.

- فى ذلك الوقت أنا أيضا لن أريد لك الحياة. فقط عليك ألا تفكرى من الآن فى مثل تلك الأفكار السيئة. إن أصدقائى ورائى يجدون العلاج للموت. ولسوف يجدونه! أنا أعظم سلطان فى العالم. لا أموت مثل أى انسان، ولسوف أعيش، أعيش إلى الأبد.

ومد كفيه إلى الأمام وأغلقها. لقد فرح كما لوكان يقبض على الحياة الأبدية. ونشب أظافره فى لحمه حتى غاصت فيها...

- إن الحياة، هى أثمن شيء فى هذه الدنيا، إننى سأصبح مظهرا لأبديتها. سأصل إلى الخلود وعدم الفناء.

ونظرت السيدة بنظرات غير مصدقة، وقالت:

- هل هنالك للموت من حيلة حتى؟...

وعاد "جنكيزخان" إلى زوجته بحال من الغضب، وقال مزمجرا:

- يوجد. ولكن النساء لا يصلن إليه بعقولهن، إن رجال الشامان التابعين لى يبحثون عن الحكماء والسحرة العظام. وهو يتعقبونهم. وفى القريب سوف يحصلون على "ماء الحياة"، وها هو فى ذلك الوقت...

وسكت، ثم صفق بيديه وقال:

- إن ما يسمى النهاية هوشيء لن يحدث لي، أنا لن أخشى الموت. ولكن أهز رأسى حتى أمام الموت.

ورمق الحارس الذى سمع تصفيق يديه فجاء إليه من رأسه حتى أخمص قدميه، وقال له آمرًا:

- استدع رئيس الشامان.

وبعد قليل كان رئيس الشامان حاضرا. وجلس فى المكان الذى أشار به إليه. وبعد أن أرسل "جنكيز" زوجته الى الخارج بإشارة من يده، سأل الشامان:

- متى ستجد حل الموت، أيها الشامان؟

فقال الشامان وهو يفرك يديه:

- إن الموت هو حلم أيها القائد. ولكى ندفع هذه الرؤيا ونزيلها هنالك سعى من جانب أصدقائي. وأظن أنكم فى القريب ستحصلون على هذا الحل.

- ما معنى الظن أيها الشامان الكبير، أليس هنالك شيء قطعي حتى...

- قطعي وأكيد أيها القائد العظيم!

- حسنا، خذ الخوف من الموت من على كاهلي، حتى أجعل منكم حكاما على العالم.

ولفترة طويلة لم يخرج له صوت. كما أن الشامان سكت هو الآخر. وبعد ذلك بدأ "جنكيزخان" فى الحديث مرة أخرى، وقال:

- ماذا تقول فيما فعله شاه خوارزم ؟

ورفع الشامان بعينه كما وأنه قد استيقظ اللحظة، وقال:

- ذلك الهجوم الأخير؟

- الأول والأخير، ليس هنالك من هجوم آخر سوف يمكن القيام به ولا هنالك من حرب أخرى سوف يكسبها.

- لماذا؟ هل تفكرون فى الهجوم عليهم؟

وابتسم ابتسامة خبيثة.

قال بدلال:

- أليس هذا هو شيء طبيعي للغاية؟ لقد أراد أن يستفيد من مشاغلي. وهذا سبب آخر من أجل القتال. كم من دولة حطمتها لأسباب أخرى أقل أهمية.

وبدا على الشامان أنه فى حال تفكير عميق، وقال:

- ماذا تفكرون؟ أليست النجوم مناسبة لكم فى حرب كهذه؟

- ليست، ياخاقاني...

وتجعد وجه "جنكيز". لقد كان يثق فى كتاب النجوم ثقة لا نهاية لها.

- ماذا تقول؟ ها هو خبر غاية فى السوء.

واستمر "الشامان" فى حديثه دون أن يفسر تظاهره بالتفكير العميق:

- لقد نظرت فى النجوم هذه الليلة، وهى ليست فى جانبنا. بل إنها لن تكون فى صفنا على مدى عام كامل.

لم يكن "جنكيزخان" يقبل فى أى وقت بأن ينخدع بالنجوم.

- معنى ذلك أن "السلطان محمد" فى هذه الحالة سوف يستفيد مما صنعه لفترة من الوقت. وهذا بالنسبة لى شيء مُر للغاية....

- هنالك شيء آخر أيها القائد.

- ما هو؟

- يُرى هنالك فائدة فى اكتسابكم صداقة "السلطان محمد" الآن.

- هل عرفت هذا أيضًا من النجوم؟

- نعم، هذا أيضًا. برج الحمل، على قمة برج القوس. والعقرب، كسر ذيله تجاه داخل فم الأسد. ومعنى ذلك إذا لم يكن السلام فستكون المحن بالنسبة لنا.

- إن العقرب يمكن أن يلدغ الأسد من فمه...

- إنه احتمال ضعيف، إن ماتلقيته من علم يقول لى هذا. لقد ركعت لأعوام طويلة أمام "ها-سى ونج" الصيني. وقد علمنى أسرار السموات. وقوتى وطاقتى تلك جعلتها طواع أوامرك. وأنا الآن أقول ماقرأته، وأنت لا تريد التصديق.

كان "جنكيزخان" يتجنب الشان. كان يؤمن أنه يقبض على البروق فى يديه. كم كان يظن أنه بإمكانه أن يقيم القيامة إذا أراد.

- إننى أصدقك. ولكننى لا أعرف كيف أقيم علاقة صداقة مع الخوارزم.

- ليس هنالك من شيء أسهل منه. إن هناك حشد من المسلمين تحت إمرتك. كون منهم قافلة وأرسلهم على السلطان. وليحملوا معهم الهدايا له. ولسوف يسر قلب السلطان بها. كما يمكن إرسال بعض الجوارى أيضًا. إنه بالنسبة لنا ليس السلطان هو الخطر الحقيقي، ولكن علينا أن نأسر قلبه الآن.

- يا.... ما هو؟

- ابنه "جلال الدين" والقائد "تيمور ملك"...

- هل هذان هما الكل كبيرهم وصغيرهم، أيها الشامان؟ إننى ظننت أنك ستقول شيئا ما.

- لا تقل هذا؟ أيها القائد الكبير، أنهما مدهشين للغاية.

- من أين علمت بهما؟

ابتسم كبير الشامان ابتسامة غامضة، وقال:

- إن النجوم لا علاقة لها بهذا العمل. لقد كان قد سمع عن جنوده المغول الذين تفائلوا مع جيش خوارزم شاه. ولكنه كان يرى أن نسبة العمل إلى النجوم يأتى على سبيل تأمين سفطته.

ومرة أخرى يخفض "جنكيز" رأسه إلى الأمام. هذا الرجل المدهش "جنكيزخان" الذى لوى أعناق القواد الكبار يحنى رأسه هكذا أمام أحد الشامان. كم هو شيء عجيب؟...

واستمر الشامان فى حديثه، فقال:

- إن بلاد خوارزم هى أرض غنية من جميع النواحي. إن بها الكثير من المراعي. ومدنها عامرة. والقلاع محكمة فى أطرافها ترتفع وتزداد. وتعيش فيها علماء وكبار. وهؤلاء هم قلب العالم عادة. والآن هنالك "قلعة "بها وهى مناسبة للعالم من جهة العلم.

وتأمل "جنكيز" عينيه المسحوبة، وقال:

- حسنا ها هو يا.. يجب علينا أن يكون هنالك، أليس كذلك؟

- فى وقته وفى ساعته. ليست النجوم معنا لعام كامل. أرسل قافلته قافلة تجارية. وأرسل مع ملك القافلة عددا من الهدايا إلى السلطان. وأرسل معهم أيضا خطابًا وقل له إنك ليست لك معه أية خصومة، وأجعله يصدق هذا.

- لماذا أرسل القافلة؟

- لكى تقوم بعمليات تجسس يا سلطاني. إن تجار خوارزم، أفواههم مفتوحة.

وقفز "جنكيزخان" شبرا فى الهواء، وظل فاغرا فاه من الدهشة. وقال وهو يصيح:

- عشت بعقلك يا رئيس الشامان! لم أفكر فى هذا أبدًا. لقد قلت كلامًا سليمًا. فى الحقيقة إنها من أجل التجسس... حسن جدا... تُرى من أرسلهم؟

كان الشامان يبتسم وفى داخله نشوة مما فعله من صنيع طيب، وقال:

- اجعل من "دانشميد حاجب" رئيسا للسفارة، ولتجعل معه عددا آخر من المسلمين. وتملؤها مما هو عندنا ليعود علينا. وعليكم أن ترحبوا بمن يعرفون لغة خوارزم خاصة.

- حسنا، حسنا جدًا. لماذا ا تختارهم جميعا من المسلمين المرتبطين بنا؟

- مع الأسف لا يمكننا أن نفعل هذا. لأن المسلم لا يهين المسلم بسهولة وشاه خوارزم مهما يكن الأمر فهو مسلم. ومن أجل ذلك علينا أن نجد الجواسيس من بين المغول.

- ليكن ذلك. سأصدر أوامرى فى الحال. ليحضروا ويجهزوا قافلة، وأطلقها على الطريق. ولتقم بزيارة "جلال الدين محمد". ولينشغل الأخرون فى جمع المعلومات فى زى التجار. وعليهم أن يكشفوا عن نقاط الضعف التى فى قلاع المدينة وهذا سيسهل الأمور بالنسبة لنا. فقط المسلمون الذين سيتواجدون فى القافلة، لن يكونوا على علم بمسألة التجسس.

- نعم أيها القائد الكبير.

- سلمت أيها الشامان العظيم، أنا ممتن لك. اذهب إلى أمين الخزينة وليعطيك ما تريد من ذهب وأحجار كريمة.

- طالت دولتك أيها القائد الكبير!...

- حتما ستصبح دولتى طويلة أيها الشامان، عليك بالدعاء لى بطول العمر.

- ليمنحك رب السماء عمرًا ليس له من نهاية!

- سلمت، الآن يمكنك الذهاب.

جمع الشامان ذيل ثوبه ومن ثم خرج وهو يطير من الفرحة.

***

القسم الخامس

جمع شاه خوارزم "علاء الدين محمد" الديوان الكبير للاجتماع. كان يتحدث وهو يتمشى داخل الصالون، وكان مبتهجًا إلى أقصى درجة بنشوة الانتصار. كان سيفعل ما لم يستطيع الإسكندر الأكبر أن يفعله. كان يتكلم دون تفكير عن أنه سيضم حدود إقليم الصين إلى داخل حدوده هو. وكان القيجاق يصدقون السلطان وهم يهزون رؤوسهم بكثرة، ولكن كل من "جلال الدين" و"تيمور ملك" كانا ينظران من آن لآخر نظرات ذات معنى ومغزى.

ولقد التقط السلطان محمد عددًا من تلك النظرات. وأخيرًا لم يستطع أن يتمالك نفسه. فذهب، ووقف أمام "تيمور ملك" تمامًا، وقال صائحًا:

- أتسخران منى أيها الجهلة؟

- وعندما وجد "تيمور ملك" أنه يوجه الخطاب إليه، نهض على قدميه، وقال:

- حاشا، يا سلطاني، هل تخطينا حدودنا؟

- ما هذه النظرات التى تتبادلها مع "جلال الدين"؟

- لو أمرتم فلن ينظر بعضنا إلى بعض، يا سلطاني.

- ما معنى هذا؟ ألست سلطانًا كبيرًا؟ ألم أوسع من حدود بلادى إلى "الصين" وإلى "ماجين" magin؟

- لو أراد الله وأذن تفعل، ياسلطاني.

- إن الله فى جانب المسلمين.

- إن الله يقف إلى جانب المجتهدين، الذين يملكون الإرادة، والذين يبرهنون على ذلك بالفعل والعمل.

- هل تعترض، يا أيها...

- لو أمرتم فلا اعتراض لى يا سلطاني...

- إننى آمركم، لا تعارض!...

وعاد إلى خانات الفيجاق بحرص شديد. لقد كان هؤلاء الآن يقرون ويؤيدون بهز رؤوسهم.

- وأنتم ماذا تظنون وتفكرون؟

وأجاب أحد خانات القيجاق:

- إن سلطاننا لم يرد له مثيل ولا نظير له فى الدنيا.

- أنتم تفكرون بصورة جيدة...

ولم يتمالك "جلال الدين" نفسه فنهض على قدميه، وقال:

- يا سلطاني، هل مثل هذا الكلام من التزلف والمداهنة تسحرك؟

ونظر السلطان إلى ابنه بغضب، وقال:

- ماذا تعنى بهذا، ياهذا؟

- أعنى ألم يكن سيدنا عمر سلطانًا أكبر منك أيضًا؟ ...

وتحير الشاه محمد، وقال:

- ألم أستطع أن أفهم؟

وصوب "جلال الدين" إصبعه ناحية خان القبجاق، وقال:

- لقد قال هذا الخان، إنه لم يرد لك نظير أومثيل فى الدنيا. أى أن الدنيا لم يرد بها قائد منذ أن خلقت، حتى يكون عظيمًا مثلك. وأنت قبلت مثل هذا الكلام. وأنا الآخر استفسر. هل أنتم أكبر من "سيدنا عمر"؟ ... أو من "سيدنا على"؟.

فرد وهويتمتم قائلاً:

- إن هؤلاء شيء آخر تمامًا.

ثم أخذ يجر خطواته بتثاقل وجلس على العرش. وتوقف لمدة دون أى كلام. وكأنما قد تحطم. لقد كان من داخله يعترف بأن الحق مع ابنه، ومع ذلك فقد كان يغضب مرة أخرى. مهما تكن هذه الكلمات صادقة وحقيقية، فإنه ليس من حق الابن أن يتلفظ بكلام ضد والده وأمام الحشد. ترى هل كان كل ما قاله هو الحق؟ الحقيقة أن خانات القبجاق كانوا يتكلمون من باب المداهنة والتزلف. أهكذا! قبل

قليل كان كلامه نفسه هو المداهنة. لقد كان يخطىء بلا شك بتصديقه لهؤلاء. ومرة أخرى كان يريد أن يصدق. لماذا؟

- ورفع رأسه ببطء شديد. وتفحص الحضور واحدًا واحدًا. كما تريثت نظراته مليا فى وجه كل من "تيمور ملك" و"جلال الدين". وكأنما كان يريد أن ينقش الوجهين فى ذهنه وعقله. ثم تحدث بصوت هادئ وساكن، وقال:

- لقد جعلنا من "سمرقند" عاصمة دولتنا. وأمرنا بإنشاء جامع وقصر كبيرين. وفى نيتى أن أجمع هنالك كل علماء العالم. فهل لديكم خبر أو علم بأى عالم؟ ولمع فى عقل "تيمور ملك" برق خاطف. وأدار رأسه إلى السلطان، وقال صائحًا:

- الدرويش المجنون!.

- من؟

- الدرويش المجنون، ذاك الرجل الذى يوجد فى السجن.

- من هذا الرجل؟

- عندما كنت ضيفًا على السجن أخبرنى ببعض المعلومات عن المغول. وقال إنه يعرف التحدث بلغتهم بطلاقة. لقد تجول كثيرا ورأى كثيرًا، وقرأ كذلك كثيرًا. إنه شخص مفيد. أظن ذلك. ولقد تباحثت معكم فى شأنه من قبل. وفى الحال أصدر السلطان أمره:

(خلصوا الدرويش المجنون من الحبس).

وخرج القائد الذى يشرف على أعمال الحبس.

كما عدد الآخرون الأسماء التى يعرفونها. وطلب السلطان بتسجيل تلك الملاحظات. ثم أمر بأن يكتب خطاب إلى كل مكان يتواجد فيه أى شخص ممن ذكروا.

وعندما انتهى أمر تدوين وكتابة الخطابات، تم الحديث فى موضوع إعمار المدينة لفترة من الوقت. وفى تلك الأثناء دخل واحد من حرس التشريفات وأخذ يهمس بأشياء فى أذن السلطان. وارتسمت على وجه السلطان ملامح الحيرة والدهشة. وبعد أن أخذ يعبث فى لحيته بيده فترة من الوقت وهومستغرق فى التفكير، التفت إلى الرجل الذى يقف منتصبًا إلى جانبه، وأمره قائلاً:

- أحضرهم.

ثم أخبر القواد:

- إن "جنكيز خان" حاكم المغول قد أرسل سفراء مع عدد من الهدايا. ومعنى ذلك أن "جنكيز خان" يخشانا كثيرًا. والآن ليأتوا إلى هنا، ولنطلع على طلباتهم.

وعندما وصل بكلامه إلى هاهنا سمع صوت كثيف يأتى من الخارج:

- سفراء حاكم آسيا، جنكيزخان خاقان المغول قد وصلوا إلى ساحة الشرف الذى سيتلقونه من حضرة "سلطان خوارزم الكبير"،

الاسكندر الثاني، سيف الإسلام المسلول، صاحب الحشمة، وصاحب الشوكة، وصاحب الدولة الشاه علاء الدين محمد...

وفتح الباب. كان التشريفاتى يعلن ذلك على العتبة. ثم تقدم بضع خطوات، ثم عرف بالقادمين من خلال الإشارة إلى الرجل الذى جاء من خلفه قائلا:

- سفير "جنكيز" خان المغول، ومعتمده "دانشمند حاجب"

وضم "دانشمند حاجب" يديه على صدره، وقال:

- السلام عليكم...

- وعليكم السلام...

- وعليكم السلام أيها السفير، أهلا ومرحبا بكم.

وقبل "دانشمند حاجب" ذيل ثوب السلطان، ومن ثم سلم على البكوات ثم جلس فى المكان الذى أشير به إليه. كما اصطف من كان معه أيضا على الصفين. وقدم الذين جاءوا من الخلف ما معهم من هدايا قيمة ملفوفة فى صرر من الحرير ووضعوها عند قدمى السلطان. وظهرت تلة صغيرة من الأحجار القيمة ومن الأشياء الحريرية. وابتسم السلطان وهومسرور للغاية. ثم توجه الى "دانشمند حاجب "وقال:

- فى الغالب أنا أعرفك.

- نعم يا سلطانى. لقد نلت شرف معرفتكم على ضفاف نهر "إيزكيز". كنت قد جئت كسفير للسلام بناء على رغبة "جوجى خان".

- لقد تذكرت الآن، هل جئت مرة أخرى للغرض ذاته أم؟

- نعم يا سلطانى لنفس الهدف.

- أتعنى أنك تمثل "جنكيز خان"؟

- نعم...

- ماذا يطلب أو يريد؟

- إن خاقانى لا يرغب فى القتال.

- حتى ولو...

- إنه مستعد لنسيان الواقعة المؤلمة التى وقعت فى السابق دون تقدير خاطئ. ولن تستمر هنالك من مسألة تبعث على تكرارها. إذا لم يدخل الغول حدود بلادنا فليس هناك من سبب يدعو لى محاربتهم. مرة أخرى.

- وجنكيز خان هو الآخر يفكر على هذا النحو.

ورفع السلطان محمد من صوته، وقال:

- ليخفى هذا التفكير لنفسه، أما أنا فأتحدث بما أفكر فيه.

- فكركم مقبول لدى خاننا، يا سلطانى.

- وإذا كان الآمركذلك فيمكن القول أننا تفاهمنا واتفقنا. وكلما كبح جماح نفسه فلن يقطع خطر عليه؟

- وابتسم سفير "جنكيز خان" عندما صارت الأمور واضحة، وقال:

- أنت تقول الحق، ياسلطانى.

- حسنا أيها السفير، يمكنكم الانصراف...

- ونهض السفير على قدميه. ودس يده فى صدره، وأخرج خطابًا. وقبله. ثم وضعه على رأسه. ثم مده إلى السلطان، قائلاً:

- هناك خطاب مع سلامات خاننا. ياسلطانى، إنه يطلب الإذن منكم بالقيام بالمتاجرة داخل حدود بلادكم. وإذا ما وافقتم فسوف تتوطد أواصر الصداقة بيتنا.

- وأشار السلطان إلى كاتبه وتناول الكاتب الخطاب وفتحه وبدأ فى القراءة.

كان الخطاب مكتوبًا بلغه عذبة. فبعد أن ردد السلام، فإنه عرج على تمنى النجاحات. وكان "الشاه محمد "سلطان خوارزم يعرب عن سعادته كلما سمع اسمه. وكان يريد الإذن بالمتاجرة براحة وسهولة من قبل التجار المنتسبين لكلا الإقليمين، وذلك من أجل تخليد ما بينهما من صداقة. وكان على استعداد لأن يمنح هذا الإذن بلا أدنى تردد.

- وأعلن "السلطان علاء الدين محمد "عن قراره دون أن يرى أية دواع للتفكير:

- حسن جدًا. اذهب وقل لخانك، إننى قد أذنت بالمتاجرة. إن المغول أحرار فى أن يذهبوا إلى أية مدينة كانت داخل بلادى ويقوموا بالمتاجرة فيها. ولسوف أمنحك ورقة ممهورة بهذا الشأن.

وعلى الفور أمر بكتابة أوامره. وبعد أن ختمتها أعطاها إلى السفير.

- خذ هذا. وفيما بعد سوف أمنحك كتابى المقابل لكتابكم.

- أمركم على رأسى، يا سلطانى.

- يمكنكم الذهاب.

- وخرج "دانشمنيد حاجب" آخذًا معه حاشيته ومرافقيه.

***

وخرجت قافلة السفارة المقابلة، توًا بعد أن أرسلت سفارة جنكيز. وكان على رأسها "بهاء الدين الرازى" وهو من وزراء السلطان "محمد" وكان الدرويش المجنون هوالآخر ضمن أعضاء هذه السفارة. وفى عام ١٢١٦ قبل "جنكيز" هيئة النوايا الحسنة تلك فى "بكين". وقد عاملهم بإكرام وإعزاز. وأثنى على السلطان محمد أثناء مباحثاته فى مسألة الصداقة فيما بين الإقليمين.

ولكن، كان يفعل كل ذلك بشكل استهزائي، حتى أن "بهاء الدين الرازى" قد داخله الشك. لقد وجد "جنكيز خان"أمام بعض الحسابات الصغيرة. ولم يكن من الممكن القطع بماهية هذه الحسابات. ومع ذلك فقد شرح لشاه خوارزم تشخيصه كما هو.

ولو كان السلطان قد وجد وقتًا ينشغل فيه بشبهات "بهاء الدين الرازى "لكان من الممكن أن يطفئ فى حينه جميع النيران التى اشتعلت فى إقليم خوارزم فى كل الأحوال. والحاصل أنه قد قبل الأمر على أنه توهم، ولم يقف على كنهه وحقيقته. ومن ناحية أخرى، كان تجار "جنكيز خان" مستمرين فى أعمال التجسس فى جميع أرجاء البلاد.

ومرت السنوات متعاقبة. وكان السلطان يسير نحوإعداد جيش كبير. وكان فى نيته أن يقف به فى طريق "الخليفة الناصر" وبعد أن يحل هذه المسألة، كان يفكر فى الهجوم على إقليم "يأجوج ومأجوج". الغنى.

ولكن شتاء "عام الأرنب"(١٢١٩) كان يجتاح الأجواء بصعوبة وشدة، ثقيلاً، وفى غير وقته. لقد ظل جيش خوارزم محصورًا فى جبال إيران وانسحب السلطان محمد بعد أن شعر بالخوف. هل كانت إرادة المولى عز وجل أن لا يخرج على الخليفة؟ هل كان هنالك من عمل خاطئ؟

لقد عاد أدراجه. وكان جيشه قد منى بخسائر كبيرة. وذهب إلى "بخارى". ودخل المدينة المجهدة والمرهقة. ولم يكلف الشعب حتى خاطرة من أجل أن يخرج إلى ظاهر البيوت لكى يصفق للسلطان ولجيشه. ولقد أغضبه هذا كثيرًا. فأمر جنوده بالدخول إلى المنازل، ويخرجوا جميع الرجال الأقوياء إلى الشارع وأن يتم جلدهم بالسياط دون رحمة.

واستمرت هذه الوحشية طوال ثلاثة أيام. واقترف الجنود خلالها ظلمًا بينًا فى حق الناس. وفى النهاية نفد صبر كل من "جلال الدين" وتيمور ملك". وفجأة ذهبا إلى حضرة السلطان معًا. وفى البداية تحدث "تيمور ملك":

- ما هذا الوضع، ياسلطانى؟ إننا نسحق بأيدينا أتباعنا. هل تظن أن "جنكيز "عابد الأصنام سيتعامل بمعاملة أخرى غير تلك إذا ما استولى على المدينة؟ ماذا رأينا من هذه الأمة سوى الطيبة وحسن المعاملة؟ إن الضرائب تقع على كاهل هؤلاء، والجند يثقلون عليهم، والأعمال يقومون بها، والحرب تقع أيضًا عليهم. وفوق هذا وذاك تظلموا!... هل هم يستحقون كل هذا؟ وهل هذا عمل يليق بالإسلام؟...

وعندما احتد السلطان، نظر إلى "تيمور ملك". لقد تم الاستعداد من قبل لأن يقول شئ غاية فى الصعوبة. ولكنه تواجه بنظرات ابنه. كان مستقرًا وهادئًا مع شدة وحدة. تخبط وتردد. وأنزل برأسه أمامه، وتمتم قائلاً:

- أوقفوا الجلد. وغرق فى التفكير وهويضع رأسه بين يديه.

***

مرة أخرى الخيمة الصفراء... وبداخلها مرة أخرى الشامان مع "جنكيز خان". كانا يتحدثان. كان "جنكيز" يروح ويجئ بتوتر وعصبية وكان يقوم بطرح ذيل قفطانه:

- أنت تماطلنى، ما هذا؟ كم من السنين مرت وأنت تحول بينى والدخول فى الحرب ضد إقليم "خوارزم" قائلا إن النجوم لا تقف فى جانبنا. وبعد ذلك سعت كل النجوم إلى الوقوف ضدنا أيضًا. بيد أننى قد كسبت كل الحروب التى كنت قد خضتها فى السابق.

وارتجف الشامان من الخوف. والحقيقة أن جنكيز لم يكن ليجرؤ على أن يمس به أويسئ إليه، ولكن من غير المعروف أنه... إنه إذا أراد فمن الممكن أن يقطع رأسه من جسده وفق ما يهوى. وتقدم بضع خطوات. وأصبح فى مواجهة "جنكيز خان" ومن ثم توقف، وقال:

- هل هنالك من شئ آخر نريده سوى أن يتحقق لكم التوفيق؟ كم من سنة لم ترد فيها النجوم أن نقوم بالهجوم على إقليم خوارزم. وعندما لا تريد النجوم فما عساى أن أفعل؟ إننى أقرأ الحقيقة والصواب. ومع ذلك فإننى فى هذه الليلة سوف أحاول أن اطلع عليها مرة أخرى وأستشيرها.

وصوب "جنكيز" نظرات عينيه التى تشع منها النيران نحو الشامان، وقال:

- استشر أيها الشامان. استشر وخذ التوفيق من النجوم. وإلا فلسوف أشن الحرب على النجوم هى الأخرى. وتراجع الشامان من الخوف وقال:

- لتأخذه الرياح من فمك أيها القآن الكبير، ما هذا الكلام؟...

- هو ذاك، لقد نفد صبري. لا أستطيع الانتظار أكثر من ذلك من أجل الوقوع على ثروات خوارزم. إننى أشعر أن حياتى تنطفئ رويدًا رويدًا. لقد صرت فى سن الشيخوخة. ودمائى تجف فى عروقي. أما مغفلينك فلم يتمكنوا إلى الآن من أن يجدوا علاجًا للحياة الأبدية.

وأمسك الرجل المسن من تلابيبه وهزه قائلاً:

- أيها الشامان أيها الشامان اعلم أنك إن لم تحصل على موافقة النجوم هذه الليلة فستصير عدمًا.

وظل الشامان فاغرًا فاه لما أصابه من الخوف والحيرة. وكانت أسنانه الصفراء الصغيرة تصطك ببعضها. كما تدلت شفته السفلى نحو ذقنه.

وفتح يديه على جانبيه بلا حيلة وقال وهو يئن:

- سأجرب أيها القآن الكبير.

- اذهب الآن وعلى الفور، وجرب.

وخرج الشامان.

وظل جنكيز لفترة من الوقت وهو يروح ويجئ وهويرفس الأرض ويركلها.كانت كل عصبيته حاضرة. وكان يقول:

- جمع من الحمقى، وجمع من السخفاء. لا أعلم، ماذا سيصير من أوضاع إذا لم يكن عليهم قاآن كبير مثلى؟ إنهم أناس من نوع العبيد. هؤلاء الحمقى المغفلين الذين لا يأتى من أيديهم شئ!

ودخل أحد القواد ويدعى "قورد جبه نويان ". وسلم على القاآن وهويحبثوعلى الأرض على ركبتيه:

- ماذا تريد يا "قورد جبه "؟

- سلامتكم، ياسلطاني. جئت لكى أعرض عليكم طلبًا لبعض من جندكم.

- ماذا يريد جندنا؟

- إنهم يقولون لقد أصبحت هذه الأماكن عقيمة الآن. ولقد قضى أتباعكم على المروج. كما أن الأراضى أصبحت قاحلة. إن الجنود يأكلون الكثير من الأغنام. ثم سيكون الدور على جمع من الخيول. فهل لا تفكرون فى القيام بحرب قبل أن تستفحل الأزمة؟

ولمعت عينا "جنكيز" وقال:

- هذا خبر طيب، يا جبه. يقدر ما يكون الجنود متعطشين بقدر ما يشتهون الهجوم على الأعداء بقدر كبير. قم بتجهيز الجيش، ففى القريب العاجل ستشتعل الحرب ولسوف نذهب للسطوعلى ما فى أيدى خوارزم.

ولمعت البروق فى نظرات قورد جبه، وقال:

- جميل جدًا، أيها القاآن الكبير، فقط ماذا تقول النجوم؟

- ماذا ستقول، إن النجوم تكون إلى جانب القوة. ولكن ما لدينا من شامانات حمقى يعاكسون فى قراءتها بشكل خاطئ. لقد أرسلت رئيس الشامان. ولسوف يأخذ الإذن من النجوم.

جميل جدًا، جميل جدًا!.

وكشر "جنكيز خان". ثم أخذ فى الضحك بصوت مرتفع. وتحير "جبه". كانت ضحكة القاآن غير مناسبة، وكانت تبدومصطنعة. وكانت شفتاه فقط هى التى تتقلص، أما وجهه فكان متجهمًا مرة أخرى. وكان هذا الموقف يجعل القاآن يُرى بشكل مخيف.

- ماذا تظنون فى أن يكون الهجوم الأول؟

وأجاب جنكيز دون تردد:

- على "أترار". إنهم يقولون إنها أكثر ثراء. لن أدع فيها حجرًا على حجر، يا "جبه"، سأمحوها وأكنسها. فى القريب العاجل سوف تلعب بنات خوارزم فى خيمتى الصفراء.

ونهض "جبه". وانسحب إلى الخارج رويدًا رويدًا. وعلى الباب التقى بالشامان. ونظر أحدهما إلى الآخر. وسأل "جبه":

- ماذا هنالك من أخبار عن النجوم؟

- لقد تحدثت معها الآن، يا "جبه نويان"، وهى تقول أشياء طيبة. إن هذا هووقت الخروج للحرب.

- أتحدثت معها الآن؟

- نعم تحدثت معها الآن.

- ورفع "قورت جبه" رأسه إلى السماء. كانت الشمس يتلألأ شعاعها. ثم عاد إلى الشامان، وقال:

- أقسم، لا يوجد فى السماء شئ سوى الشمس. فأين وجدت النجوم؟

لم يرد مثل هذا على خاطر الشامان. فتحير، وترنح. وفر من باب الخيمة دون رد. وابتعد وهو يجرى.

وصدرت عن "قورت جبه "قهقهة فى أعقابه، وقال:

- هؤلاء الحمقى، لا شئ يشغلكم سوى خداعنا وغشنا.

وبينما كان يستعد للسير، قطعت طريقه إحدى السيدات، وقالت:

"جبه نويان"...

نعم...

- أريد أن ألتقى بـــ "القاآن"...

- لماذا؟ فالقاآن مشغول بالتفكير...

- إنه مضطر لأن يفكر فينا أيضًا. إن زوجى يؤذينى. وسوف أخبره بذلك.

- أنت زوجة من؟

- أنا زوجة القائد "طوقوجار نويان...

فُتح باب الخيمة. وبدت رأس جنكيز الصغيرة. ومن ثم خرج بجسده الذى يفيض بالهيبة.

- أأنت التى تتكلمين أيتها المرأة؟

- وارتمت المرأة عند قدمى القاآن، وقالت:

- أرجو أن تخلصني، أيها القاآن العظيم. إن ذاك الذى سيصبح زوجى "طوقوجار" يقوم بضربى بعصا من الحديد ثلاث مرات فى اليوم. والآن لم أعد أحتمل فلتخلصني.

- معنى ذلك أنك زوجة "طوقوجار بهادر"؟

- ليتنى لم أكن.

- لن يصبح بعد الآن، أيتها المرأة.

وتكلم دون أن ينظر:

- أيها الحارس!...

- أمرك أيها القآن...

- خذ هذه المرأة لقد أعطيتها لك لتدق عنقها.

وأخذت المرأة تصيح بصوت عال ومزعج. ثم أخذت تسب وتلعن. ولكن لا أحد سمعها. وكان صوتها يخفت شيئًا فشيئًا. وفى النهاية لم يعد لها صوت. والتقت عينا "جنكيز "بعينى "جبه ". ثم دعاه للدخول بإشارة من يده. ثم أخذ فى الكلام وكأن شيئًا لم يحدث:

- سوف أقوم بغزو "أو ترار" يا "جبه". ولأكن أكثر صراحة فإننى أفكر فى أن أرسلك للقيام بهذا. إن "أوترار" لم تعد تتحمل أكثر. لقد أظهر جواسيسنا فعالية طيبة للآن. وقد قاموا بتحديد نقاط الضعف فى المدينة. وأصبح الناس على أهبة الاستعداد. وقاموا بإثارة القبجاق ضد التركمان. وجعلوا بعضًا من الأفراد يظنون أنهم سوف يعيشون فى هدوء وراحة أكثر تحت حكمنا. وهم الآن ينتظرون مجيئنا بمجامع عيونهم.

- فى أى شيء تفكرون؟

- فى البداية سوف أدفع إلى الداخل بعدة مئات من الأشخاص الذين يلبسون زى التجار. سيذهبون بالجمال. ومن الطبيعى أن تكون هذه الجمال محملة بالبضائع القيمة. وسوف يقومون بتوزيعها

على الناس بأسعار رخيصة. وفى مقابل هذا سيتحصلون على معلومات، وسيكسبون ثقة الناس ودعمهم.

- هل سترسلون جواسيس مرة أخرى؟.

- نعم، سنرسل جواسيس مرة أخرى. وستكون الأعمال على هذا النحو، يا "جبه". إن الحيلة هى الوسيلة الناجعة التى تكسب الحرب. وأنا قد استخدمتها بصورة جيدة وأفضل من أى شخص آخر، من الجميع، من كل القواد الذى أتوا من قبل أويجيئون من بعد... وعندما تذهب إلى هنالك ستجد أن المدينة جاهزة للاحتلال.

ورفع "جنكيز خان "يديه نحوالسقف وشدد على قبضته، وقال:

- أنا على حق فى كل وقت. حتى وأنا أدفع بتلك المرأة إلى الجلاد كنت على حق أيضًا. إن "طوقوچار بهادر" هو قائد جيد. وعلى هذا فإننى لا أرغب فى أن أكدر ذهنه بامرأة مستهترة كهذه. وأنا عندما أخلصه من مشكلة كهذه، أكون قد جعلته يقف موقف الفداء للجنود. إن قاآن يفكر على هذا النحو مثلى لا يهزم بسهولة، يا "جبه نويان".

كان "جبه" يعرف أن هذا هوالظلم بعينه. ولكن لم يكن ليجرؤ على أن يتكلم بهذا، ولوكان قد فعل ذلك لكانت عنقه قد دقت. فصدقه قائلاً:

- أنت على حق أيها القاآن.

- اذهب الآن، واعلن على الجنود، إن حربًا قريبة سوف نقوم بها. فليصبروا وليطعموا خيولهم. ليبقوا هم جائعين، ولكن ليقوموا بإطعام حيوانات الحمل والركوب. وفى القريب ستقع فى أيدينا الكثير من المراعى والقطعان.

***

القسم السادس

كانت "أترار" المدينة الإسلامية الأولى على الحدود، وكانت من المدن العامرة، كانت بها الخانات الكبرى والحمامات والمساجد والأسبلة. وكان الذاهبون إلى الصين أوالعائدون منها يمرون بها ويمضون فيها وقتًا طويلاً للراحة والاستجمام.

كانت بها أماكن للبيع والشراء كبيرة. وكان التجار يعرضون بضاعتهم فى تلك الأسواق الكبرى وهم يصيحون وينادون على بضائعهم، كما أن بعضهم كان يقوم باستبدال بعض أغراضهم بأخرى يعجب بها.

وعندما دخلت قوافل المغول إلى المدينة فإنهم لم يتوجهوا إلى أماكن الأسواق مباشرة. لقد قام "تجن" قائد القافلة بوضع عدد من الجمال أمام كل منزل كبير بالمدينة. وكان يصيح على الناس بقوله:

- أخبر القاصى والداني. لقد جاءت قافلة كبيرة من إقليم من جنكيز خان". وكل ما تبحثون عنه من بضائع ها هنا. الأقمشة الأفرنجية. الحرائر الصينية، الأوانى المغولية. كل ما تطلبونه تجدونه بسعر غاية فى الرخص. تعالوا، وخذوا!

وتجمع حشد من الناس الذى خرجوا من البيوت حول القافلة فى لحظة، وكانوا يتفرجون على البضائع بدهشة وتعجب.

وعلى هذا النحو، ولدى مجيء القافلة إلى المدينة، فإن أخبارهم كانت تنتشر من لسان إلى لسان فى لحظة. كانت القافلة كلما وصلت إلى أحد الأسواق، فإن الناس كانوا يحتشدون. وتقطعت الطرق، وأصبح الزحام كما لو كان يوم الحشر.

وغصت الشوارع بحشود الناس. وكان الجنود كلما سعوا إلى تفريق الناس فإن جهودهم كانت تذهب هباء. وفى النهاية تركوا الأمور تسير على سجيتها.

وصلت القافلة إلى مكان السوق الرئيس. ووجدت لنفسها مكانًا بكل صعوبة. وقاموا بإنزال بضاعتهم. وأقاموا الخيام.

وجاء الناس أفواجًا للشراء وحتى تجار البلاد سعوا إلى الشراء لما وجدوه من أسعار رخيصة. وبعد ذلك، كانوا سيبيعون تلك البضائع للشعب بسعر مرتفع.

وتحرك والى المدينة "اينالجق خير خان". وقام بمنع التجار من الشراء للبضائع من قافلة المغول. فكان من الواجب أن يستفيد الشعب من الشراء بالسعر الرخيص.

وأغضب هذا القرار تجار المغول كثيرًا. فقد كان قائد القافلة المغولية "تكن "قد اتفق مع تجار مدينة "أترار" قبل مجيء الفافلة – لقد كان يرغب فى أن يبيع أكثر البضاعة إلى التجار. ومن ثم يستفيد من هذا العمل بالجواسيس الذى سيتفقون مع التجار، وكان هذا يجعل

الشعب يشعر بعدم السعادة تجاه الإدارة. ولكن قرار والى أترار "قلب تلك الحسابات رأسًا على عقب.

ثار تجار "أترار"، ووجدوها فرصة للتمرد والعصيان، وأوصوا بعضهم بعضًا بأن يقوموا بسلب ونهب بضائعهم...

كما أن التجار قاموا بتحريض الشعب. ومن ثم قاموا سويًا بالإغارة على قافلة المغول. وسلبوا كل ما لديهم من بضاعة. ثم حدثت أحداث كبرى. لقد تم إشعال النيران فى الخيام التى كانت قد نصبت فى الأسواق. وقام "اينالجق خير خان" بإخماد التمرد بالقوة. ووعد بأن يعوض الخسائر التى لحقت بتجار المغول بدفع ما يقابلها. ولكن طبقا لما تلقاه "تكن" قائد القافلة من أوامر عن "جنكيز خان "فإنه تحرك صوب المواجهة ولم يكن ذلك حسب رأيه يمكن حله بدفع مقابل للأضرار التى لحقت بهم، ولكن أن يسترد بضاعته التى سلبت منه.

وأعرب "إينالجق خان" بأن ذلك من غير الممكن تنفيذه، ولكن إذا ما أرادوا فمن الممكن أن يقوم بالتعويض بضعف قيمة البضائع، وقال إنه حر فى أن يثبت ويحدد هذا المقدار من التعويض.

ولكن "تكن" تظاهر كما لوأنه قد غضب، وضرب الأرض بقدميه فى غضب. وصاح فى وجه "اينالجق" يريد أن يثير غضبه وحنقه، قائلاً:

- أنت لست خانًا، ولا حتى راعى ماشية!....

وامتقع لون "اينالجق". واسودت عيناه من شدة الغضب، وقام من مكانه بحدة، وقال وهويزأر:

- أيها الجاهل الحقير. لقد قلنا سندفع لكم ما لحق بكم من أضرار، ولا نخدعكم. كما قدمنا لكم الاعتذار، وأنتم لا تصدقون. إذن فالسيف هو ما تستحقون !...

وتحداه "تكن" بشكل وقح وصفيق، وقال:

- نحن لا نخاف منك، ولا حتى من سلطانك.

وجعل هذا الكلام يخرج الجن فى عقل الوالي، فقال وهويصيح:

- خذوهم جميعًا إلى الجلاد !...

أما "تكن" الذى فهم أن الأمر لم يكن على سبيل المزاح، فقد أخذ يتوسل وبدأ يتذلل من أجل أن يخلص روحه من الهلاك. ولكن القرار كان قد صدر ولم يكن الوالى ليتراجع عن أمره هذا.

هذه المرة سعى إلى التهديد بجرأة يائسة. وقال إن "جنكيز" سوف يدخل المدينة، وسوف يشعل النار فى كل ناحية منها.

ولكن الوالى لم يخدع بهذا أيضًا. وتم ضرب عنق المنتسبين إلى القافلة. فقط أحدهم استطاع أن ينجو بحياته: جعفر خوجه. لقد تم

العفو عنه لأنه كان مسلمًا هو الآخر. وأعلن أنه ينوى العودة إلى بلاد المغول، ولكنه لم يتفوه بأى كلمة قاطعة تتعلق بالمكان الذى سوف يذهب إليه.

أما المساء الذى أطلق فيه سراحه، فقد قام فيه بالانسلال خفية من المدينة بعد أن اقتنى لنفسه حصانًا.

***

كان "جعفر خوجه "الذى استمر فى ضرب حصانه ودفعه للسير متعبًا للغاية كما لوكان قد تحطم نفسيًا، وذلك حينما وصل إلى المكان الذى سيقوم فيه بتغيير حصانه الأول. ولكن كان عليه أن يصل أولاً إلى سيده "جنكيز خان "ليعلمه بالمصيبة التى حلت بالقافلة المغولية فى "أترار".

وقام بالاستراحة فى المنزل الذى وصل إليه لبعض الوقت وشرح للضابط المغولى الذى يتولى إدارة المكان بشكل مختصر ما حدث، ومن ثم أمن له الحصان الذى سيأخذه وبدأ فى السير بسرعة خلال غابات الإستبس.

ومع الوقت كان "جنكيز خان" يتصرف بتعقل كبير وهويحدد المحطات التى سيتم تغيير الخيول فيها على مسافة كل مرحلة مخصصة للراحة، وحتى لوكانت تلك لم يكن قد تم إقامتها. كان "جعفر خوجه" آنذاك سيضيع الكثير من الوقت، وكان سيضطر إلى تأخير الخبر عن الوصول.

وعندما وصل إلى المعسكر المسمى "قوشداق"، كان الوقت يقترب من المساء لقد قطع الطريق فى أربعة أيام كاملة دون أن يأخذ أى قسط من الراحة. كان مرهقًا ومجهدًا. وكان على وشك الانهيار. واستطاع أن ينزل عن حصانه بمساعدة بعض الجنود. وتمتم قائلاً:

- أريد أن تأخذنى إلى القا آن.

وأخذوه إلى هناك على الفور. كان "جنكيز خان" يجلس على قطعة من اللباد، وكان يتناول طعامه. وعندما رأى أمامه "جعفر خان" وهو ذاك المترجم الذى كان قد أرسله إلى "أترار" ليكون مترجم القافلة، تفحصه بنظرات مترددة. وفهم من هيئته كل شيء. وقال بصوت بارد كالثلج؛ متسائلاً:

- هل قتلوهم جميعهم.

وهز "جعفر خوجه" رأسه بالإيجاب.

- حسنًا، وكيف خلصت نفسك ؟

- لقد تركونى لأننى مسلم.

وظهر فى عينى "جنكيز خان" شحوب، وقال:

- اشرح لنا، ما معنى من أجل أنك مسلم، إننى أريد أن أحاط علمًا بكل شيء ومن كافة جوانبه..

وقام "جعفر خوجه" بشرح كل ما حدث للمقتولين. وأخذ يشرح حكايته لساعة من الزمن وهو يتوقف من حين لآخر لكى يأخذ نفسه.

وازداد وجه جنكيز الشاحب شحوبًا. وتغيمت عيناه المرتجفتان. وسقطت اللقمة التى كانت فى فمه على الأرض. ثم أخذ يزمجر قائلاً:

- لن أدع هؤلاء. ولكننى أولاً أريد أن أرسل سفيرًا إلى شاه خوارزم ويعرب له عن رغبتى فى أن يقدم الاعتذار. وبعد أن تشينه وتحقره الدنيا والعالم على هذا النحو، فإننى أتحرك بجيوشى من أجل أن أجعله فى وضع أسوأ من السوء. فلا تحزن يا "جعفر خوجه" فالنجوم تقف بجانبنا فى هذه السنة. لقد قال ذلك الشامان. ولسوف نحارب. وسوف نأخذ بثأر أصدقائنا.

لم يكن صوت "جعفر خوجه "يخرج. لقد كان يلعن اليوم الذى تعرف فيه بهؤلاء ولكن لم يكن فى إمكانه الخروج بعد أن دخل فى خدمة "جنكيز خان" مادام قد دخل فى قرن الثور فسوف يلتصق به، وسوف يدق عنقه.

وأخرج نفسًا عميقًا، ونظر "جنكيز خان" إلى "جعفر خوجه "بنظرات ثاقبة، وقال:

- ما هذا؟ إننى لا أراك مسرورًا.

ورفع "جعفر خوجه" رأسه. وفى الحقيقة لم يكن بإمكانه أن يقول إنه غير مسرور:

- إنكم تعلمون الخير، أيها القا آن الكبير.

- بالتأكيد أعرف أنه خير. ولولم أعرف الخير، فهل كانت دولة كهذه يمكن أن أحكمها حتى ولوكانت الشمس؟ إننى أعرف الخير، وفى ظل معرفتى تلك سوف ألحق إقليم خوارزم وأطأهم بأقدام خيلي. يمكنك الذهاب.

وخرج "جعفر خوجه". وحينما كان فى طريقه إلى خيمته، كان يفكر فيما إذا كان "جنكيز خان" مجنونًا أم غير مجنون.

حينما كانت تصير تلك الأحداث وتحدث فى بلاد المغول، وصل خطاب إلى "سمرقند" كان الخطاب واردًا من "اينالجق خير خان "وإلى "أترار". كان يخاطب فيه السلطان "علاء الدين محمد": وكان يعتذر فيه عما بدر منه، كما كان يشرح أنه فى حال تصرف بغير ما تصرف به فإن ذلك كان سيدفع بالإساءة إلى كبرياء السلطان.

وعندما انتهى الكاتب من قراءة الخطاب، أشار "السلطان محمد" إليه بالخروج. وغادر الغرفة وهى غارقة فى صمت تام. وسحب شاه خوارزم يديه إلى ذقنه. وأخذ يفكر طويلا طويلاً. ثم من بعد ذلك وقف على قدميه. وأخذ يهز الجرس الذهبى عدة مرات. وأمر الحارس الذى دخل من دون أن ينظر إليه:

- ليجهزوا لى حصانى!

وأخذ الحارس فى السلام والتحية ومن ثم انصرف، وبعد فترة عاد وأخبر أن الحصان جاهز الآن. وخرج السلطان. ورأى أن

حاشيته قد أخذت هى الأخرى استعداداتها. وبعد أن أشار بيديه بعدم الموافقة امتطى فرسه وأسرع فى السير صوب قلب المدينة.

كان متأزمًا. كان يشعر بالحاجة إلى أحد يبثه ألمه، ولكن لم يستطع القطع فى ذات ذاك الشخص الذى يريده ويمكنه من عمل ذلك.

وعندما رأى الشعب السلطان، كان ينزوى فى ناحية. ولفترة من الوقت لم ينتبه إلى ذلك. ثم صار الآن يلحظ ويشعر بذلك. إن الشعب يخاف منه، وإنه يتجنبه. هذا هو المعنى!... بيد أن السلطان يجب أن يكون محبوبًا ويجب أن يكون محترمًا وحسب.

ماذا فعل حتى أن أتباعه قد انغلقوا على شعور بالخوف على هذا النحو. لم يكن يتذكر أن ما سببه لهم من ظلم يعود عليه. وإلا فهل هنالك من أحد يقترف الظلم دون أن يكون لديه خبر بهذا؟

كان "جنكيز خان" هو الآخر قد بدأ يغرق فى أعمال وأفكار كثيرة. ماذا كانت تلك القوافل المصطنعة؟ وكأنما كانت كعدمها فى خوارزم ولم تكن لها أية فوائد. فى الواقع لم تكن لها، وربما كانت كذلك. وإذا كان الأمر كذلك، فإن شاه خوارزم مثله مثل "جنكيز "لم يكن يمتلك ثراءا بمثل ما هو عليه وضع إقليم الصين... حتى أن فتح بلاد الصين لم يكن ليصبح أمرًا سيئًا بالتأكيد. مادام أنه لم يتمكن من الاستيلاء على "بغداد "فإنه من الممكن أن يُقال هذا...

ومن أجل هذا كان يلزم كبح جماح "جنكيز" أولاً. وذلك لأن "جنكيز" كان يمتلك تحت يديه أكثر من نصف إقليم الصين تقريبًا.

ماذا كان سيقول بشأن سلب ونهب القافلة، وقتل الرجال؟ هل كان سينهض للقتال؟ ربما كان سيقوم بحركة مقابلة، كان سينهب قوافل خوارزم أيضًا.

كان ذاك الانتقام هو أبسط الاحتمالات فى هذا الخصوص بلا أدنى شك. ولم يكن "جنكيز" هو الرجل الذى يجرى وراء هذا النوع البسيط من الانتقام وأخذ الثأر. وإلا فإن المعنى هوأنه قد بدأ فى دق نواقيس التهلكة. لقد حان وقت جمع الجنود.

إن ما أقدم عليه "اينالجق خير خان" من قتل أفراد القافلة لم يكن عملاً طيبًا بكل تأكيد. ولكن لا يمكن أن يقال فى حقه كلمة واحدة. إنه فى حال أقدم على عزله فلسوف يفتح الهوة التى بينه وبين والدته. فقد كان من اينالجق خير خان "هو ابن أخ (أو أخت) والدته، وفى تلك الأثناء لم يستطع أن يرى فى نفسه القوة التى تمكنه من الصراع مع "تركان خاتون".

كان فى انتظار مجيء الحوادث بأفضل الأحوال. وبعد أن علم كيف لجنكيز خان أن يتصرف، فإنه استفاد من الموقف لنفسه. إنه إذا ما قام هو الآخر بحشد الجنود، فإن ذلك لن يكون سيئًا. وللتوعاد إلى القصر، وكان عليه أن يصدر أوامره فى هذا الشأن.

من المحتمل أن يقف كل من "تيمور ملك" و"جلال الدين" ضد هذه الحركة، إنهما سيدعيان أن لا فرق لديهما بين الموت والحياة فى حال الخروج ضد "جنكيز خان"، ولكن ليكن. لم يكن ليسألهما عن عمله أو ما يزمع تنفيذه. كان الحاكم الوحيد على كل إقليم خوارزم بشأنه وصيته. وهو يستشيرهما عندما يريد، ولكن المؤكد أنه يقرر بنفسه القرار الأخير... وأخذ يتمتم:

- على أن أعود إلى القصر.

وحول حصانه تجاه القصر. ولكن...

- ما هذا ؟...

كان يقف أمامه وقريبًا من بعضهم البعض خمسة من الفرسان، وكانوا يسدون عليه الطريق. كان من الواضح من خلال نظراتهم الخبيثة أنهم لا يضمرون له خيرًا. أنى لهم هذا القدر من الجرأة، وكيف يقطعون على السلطان طريقه بهذا الأسلوب؟...

وأخذ يجول بعينيه حواليه. وكان هنالك فى أحد الشوارع الجانبية الخالية. ونظر بتفحص فى هؤلاء الذى يقفون أمامه. ودفع يده صوب خصره بطريقة خفية، وسألهم:

- من أنتم، وما هذه الجرأة ؟

وعندما لم يتلق أية إجابة زادت حيرته وتضاعفت.

لابد أنهم من رجال "جنكيز خان". هل كان يرغب فى الأخذ بالثأر بهذه الدرجة من الدهشة والعجب؟

- قلت لكم من أنتم؟

ومرة أخرى لم يتلق جوابًا. كان الرجال وكأن ألسنتهم قد انعقدت. كانوا فقط يقتربون رويدًا رويدًا.

فزمجر قائلاً:

- أفسحوا الطريق !...

ولم ينسحب الرجال. واستمروا فى اقترابهم. كان السلطان فى إمكانه أن يتعامل جيدًا مع خمسة من الأشخاص. كان يشعر بهذه القوة فى ذراعيه. وكان يؤمن بأنه لا يوجد على هذه البلاد من لديه الشجاعة على أن يصبه بأدنى أذى.

ولكن من هؤلاء الرجال الخمسة الذين وصلت بهم الجرأة حدًا يستطيعون فيه أن يهاجموا سلطانًا مازال على العرش؟ لماذا يريدون قتله بالذات؟ ممن تلقوا الأوامر؟

كان كل ذلك من الأمور المجهولة على السلطان. وحتى أنه نفسه لم يكن لديه متسع من الوقت لكى يفكر فى الأمر. كان عليه أن يسعى بفكره من أجل المقاتلة التى سيقوم بها. وكان من الضرورى أن يتخلص قبل لحظة من هذه المصيبة أوالخطر الطارئ.

ومن ثم بادر بالهجوم. وفى أول طعنة جرح الشخص الذى كان فى المقدمة. ولكن ذلك لم يجد مع الذين كانوا يحيطون به. فقد سقط بين الرجال وفى وسطهم تمامًا. وأخذ السلطان يعمل سيفه بكل سرعة. وتذكر شبابه، وقد حدثت له نشوة عظيمة.

- أيها الأوغاد الذين لا ذمة ولا ضمير لهم! هل تظنون أنه بإمكانكم أن تقتلوا سلطانًا بهذه السهولة؟ خذوا!...

وتقطع أحدهم. والآن صار أمامه أربعة من الرجال. كان يقاتل بشجاعة وبسالة عظيمتين. كان رابط الجأش، وكان باردًا. كان يؤمن بأنه سوف يكسب مائة فى المائة.

ولكنه امتقع لونه عندما أخذ فى تفحص الحشد الذى كان يقف خلف الرجال الخمسة. لقد أحيط من كل جانب. أصبح من الصعب عليه الخلاص. بل ولربما لا يمكنه أن يتخلص منهم. إذا لم يتصادف وتأتى إحدى الدوريات فإن وضعه كان سينتهي.

كان صليل السيف يحدث جلبة فى الشارع الساكن، كان شخص واحد عليه أن يقاتل مع عشرة أشخاص. ومرة أخرى لم يفقد شجاعته، ولم يستطع أى من الأشخاص أن يقترب منه أثناء ضرباته القاتلة.

فى تلك الأثناء كان "تيمور ملك" و"جلال الدين" و"ضارى لاگود" يتجولون داخل المدينة. كانوا قد عادوا للتو من الصيد. كانت

بطونهم خاوية. ولكن لم يكن حديثهم فى ماذا سيأكلون، بل كان فى شأن الحرب والقتال. كانوا متفائلين إلى حد ما لأنهم لم يكونوا على علم بالحادث الأخير.

قال "جلال الدين":

- لقد أقمنا علاقات طيبة مع "جنكيز خان"، ولكن من غير الواضح أبدًا إلى أين كنا سنصل مع ذاك الأمر. إن سلطان المغول هوأحد المجانين، لا يمكن فهم متى ولا أى قرار سيقرر؟. لم أكن أفهم بأى حال من الأحوال دخوله فى علاقات طيبة معنا. وكنا قد تعرضنا لجيشه. وعلى أية حال فإنه قد حسم هذا، وبالنسبة لكونه لن يسكت...

وقطع "تيمور ملك" حديث صديقه، وقال ضاحكًا:

- إن "جنكيز" لا يتعجل فى الأخذ بالثأر.

كان "صارى لاگود" صامتًا. كان يتوهم أن بعض الأصوات كانت تصل إلى مسامعه آنفًا، وكان يتفحص فيما يتوهمه، وكان يتوجه بكل انتباهه إلى مصدر الصوت الذى يأتيه.

وفى النهاية وصل إلى قناعة بأنه غير واهم؛ فسأل:

- ألا تسمعون شيئًا ما؟

فتوقفوا. وقال "تيمور ملك":

- فعلاً. تأتى أصوات تشبه صليل السيوف. ترى ما هى وأين؟ هيّا ننظر ما الأمر.

وأسرعوا إلى خيولهم. وساقوها متوجهين بأعنتها تجاه الناحية التى جاءت منها جلبة السيوف.

وبعد قليل كانوا قد وصلوا إلى مكان القتال. وفى اللحظة الأولى لم يتمكنوا من أن يتعرفوا على السلطان. وعندما رأوا الحشد الذى التف حوله، فإن "تيمور ملك" ألقى ببصقة نحوالأرض، وصاح:

- أيها الجبناء! هل وضعتم الرجولة فى جوال؟

إن الذى لم يستطع "تيمور ملك" أن يهضمه، هوذاك الحشد الذى اجتمع للهجوم على رجل واحد.

كان "السلطان محمد" فى موقف صعب. كان يضغط عليهم بشكل جيد. وكان خصومه يشعرونه مع الوقت بأنهم ستكون لهم الغلبة. وكان ينتقل من حسن إلى أحسن وصاح قائلا:

اضربوا أيها الرجال!....

وتعرف الرجال الثلاثة على هذا الصوت. وقالوا معًا وبصوت واحد:

- السلطان!...

ولم ينتظروا لحظة واحدة، وانطلقوا وهم يطلقون الصيحات العالية:

- انسحبوا !..

- انسحبوا !..

والتهبوا مثل البرق. ولم يستطع الرجال أن يفهموا لماذا أصيبوا فجأة. وحينما أفاقوا رأوا أنهم لم يتبق منهم سوى أربعة أشخاص. ومع ذلك لم يفروا من القتال، كانوا وكأنهم قد أقسموا ألا يهربوا حتى ولوماتوا جميعًا.

وعندما رأى السلطان أن ثلاثًا من الأشخاص قد سعوا إلى نجدته، أخذ نفسًا عميقًا، وأخذ يعمل بسيفه بطريقة أقوى وأكثر انتشاء.

- اضربوا أيها الأبطال، أيها الفدائيون الأسود !...

- اضرب يا سلطاني، اضرب يا شاهى !

فى ذلك الوقت تعرف السلطان على صوت ابنه. فقال:

- أنت يا "جلال الدين "؟

- نعم هو أنا يا سلطانى !...

- لقد جئت فى وقتك، لوكنت قد تأخرت قليلا لصرت بلا أب أو سلطان...

- حماك الله !...

لم يستمر القتال طويلاً. لم يكن ليستمر. لم تكن تصفح شجاعة كهذه الآن واعتداء على السلطان للأصدقاء الثلاثة. ولم يفر الرجال لعنادهم أيضًا. وسقط على الأرض عشرة من الأشخاص وقد جرحوا جراحًا قاتلة. ومع زيادة شغفهم فإنه لم يتبق ولا شخص واحد سليم. ولكن الجميع كان يفكر في شخص بعينه.

- إنه جنكيز!.

* * *

القسم السابع

"بولامچه" كانت إحدى القرى المشهورة بحقولها المزروعة ونهرها الصغير وشعبها النشيط. وهي قريبة للغاية من "أترار" إنها تقع على حدودها تمامًا. في الصيف تقوم فتيات القرية ونسائها بغسل الملابس على شاطئ النهر، ومن ناحية ثانية يقمن بالحديث عن مزروعاتهم أيضًا.

وأما الرجال فيقومون بأعمالهم في الحقول منذ الصباح الباكر حتى ساعات المساء المتأخرة. ويقوم البعض منهم بقطع الأخشاب من الغابة ومن ثم يبيعها في "أترار".

وكان عام ١٢١٩، واحدًا من الأعوام المجدبة والذي بدأ فيه أهالي القرية يفكرون بعمق ويضربون أخماسًا في أسداس. فبعد أن قاموا بزراعة محاصيلهم فإنها جفت ويبست بسبب القحط وانحباس المطر والذي حدث واستمر لأيام كثيرة. كما أن الشمس كما لو كانت قد انخفضت طول رمح وصار الأمر كما لو كان يوم القيامة قد حل. ولم يكن الأمر بالنسبة للنباتات وحسب، بل إن الأشجار هي الأخرى كانت تجف. وصار أهل القرية في فقر وحاجة شديدين إلى الزراعات خلال ذاك العام، ولم يكونوا يعرفون كيف سيتصرفون خلال السنة. لقد حل اليأس والضغط محل الفرح والسرور على العموم، وساد الصمت على أطفال القرية الذين لم يتمكنوا من أن يجدوا ما يأكلونه.

شخص لا تعرف البسمة إلى وجهه طريقًا، وشخص آخر لم يتمكن من أن يعود إلى بهجته وسروره القديمين.

كان موظفو الضرائب التابعين للسلطان "علاء الدين محمد "يقومون بالتجوال في القرى واحدة واحدة، وكانوا يسعون إلى تحصيل مستحقاتهم من الضرائب لسنتين تاليتين، كما كان أهالي "بولامچه " جميعهم ترتعد فرائصهم حينما يسمعون عنهم وهم في هذا الوضع السيئ. وكيف لهم ألا يرتجفوا، وقد وازنوا بصعوبة شديدة الضرائب السنوية، كما أنهم كانوا قد سددوا ديونهم الوطنية مع حالة الجوع التي يعاني منها أطفالهم. والحقيقة أنهم لو كانوا يدفعون الضرائب لعامين تاليين، فإن معنى هذا أنهم سيموتون من الجوع.

وكان قد اتضح أن السلطان كان محتدًا غاضبًا. فقد وردت أنباء المؤامرة التي كانت قد حيكت ضده إلى بلده "بولامچه". ومن هذه الناحية فإن الآلاف من الناس سُمع أنهم قد أوقفوا. ومع ذلك فإن المشكلة لم يكن لها أن تصل إلى النور مرة أخرى، وإذا ما لزم التصديق لتلك الأقوال، فإن السلطان يكون قد وصل إلى نهاية المطاف، وأنه لم يكن ليعتمد على "تركان خاتون" وأنه لم يتمكن من أن يجعل والدته تبحث أكثر من ذلك لأجل أنه ليس بإمكانه أن يعضها. وفي الغالب فإن "تركان خاتون" في البداية كانت تأمل في حال وفاة "السلطان محمد" أن تمنح الإدارة لـــ "أوزلاق شاه". ولأن ولي العهد كان حتى ذلك الوقت لا يزال صغيرًا، فإنها كانت ستدير الأمور بنفسها بصفتها الوصية على البلاد.

لقد حل بهم أحد أيام الصيف الحار أحدث بهم ما أرعبهم. إن أحد المحصلين من جامعي الضرائب ضخم للغاية ويرتدي سروالاً مزينًا وذو نظرة غادرة وعين عسلية مهولة، دخل القرية ومعه نخبة من الجند يبلغ عددهم عشرين جنديًّا مسلحين. وانتشر الخبر بسرعة في "بولامچه"، وجرى الأطفال الذين كانوا يرغبون في رؤية المحصل. وعندما واجههم المحصل بعيونه التي تفيض منها نظرات الغدر والخيانة، أسرعوا بالفرار صوب أماكن منعزلة، ولكنهم لم يتمكنوا من السير للخلف إلا بنحو خمسين مترًا والرعب قد ملأهم.

ومع انتشار الخبر، غطت القرية الصيحات. ولأنه لا يوجد أي شخص لديه المقدرة على أن يدفع الضرائب لسنتين تاليتين فإن الجميع قرر العصيان والتمرد. وغشيت العقول والتحفت بالدخان، وبدأ الاعتراض:

- ما هذا العمل الذي يريد فيه السلطان أن يحصل على الضرائب لعامين تاليين على حين نحن نتدبر كيف نحصل على أقواتنا؟ إننا قدمنا الضرائب السنوية بأكملها مثل أي مواطن خوارزمي شريف. وليس هنالك سوى ذلك ما سوف ندفعه للدولة ولا حتى حبة واحدة.

- يعلم الله أن وضعي هو أسوأ منكم جميعًا. إن زوجتي المريضة لم تتمكن من العمل هذه السنة. وحتى الزرع الذي بقى في الحقول سليما أتت عليه الرياح. ولقد أودعت الضرائب السنوية حتى

لا يصيبني الجوع. لقد سلمت ثلاث مثقالات من القمح، وعشرة من الشعير بالكامل. ودون ذلك لا يوجد إلا روحي فإذا أرادوا أخذها فليأخذوها !...

- إنهم يقولون إن السلطان قد تغير في الآونة الأخيرة. كما يقولون إن حالته القديمة صارت مشوشة، كما فقد حيثيتة السابقة، وصار مثل الصقر الجارح. فهل أصدق هذا؟... إن سلطاني طيب في كل حين، وهو خيِّر، وعطوف. إنه يحب أمته مثل روحه. كما أنه يقاتل مثل الأسود أمام جنده. ولكن لو كان هذا القرار قد تم اتخاذه من ناحيته !...

كانوا يتحدثون من ناحية، ومن ناحية أخرى كانوا يسيرون في أعقاب موظف الضرائب وأتباعه. كان كل واحد ضجرًا. وكانت خطواتهم خائرة.

ووقف المحصل ضخم الجثة صاحب النظرات الغادرة. ووقف أهل القرية أيضًا في المكان رأوه فيه. ولم تكن لديهم الجرأة للاقتراب أكثر.

وطلب الرجل من الحشود التى تأتي إليه بإشارة من يده. وهرولوا نحوه بهمة. ورمق القرويون بأكملهم. وبدأ في الحديث بصوت متقطع:

- انظروا، أنا لا أريد الاعتراض ها!... أنا محصل من قبل السلطان "علاء الدين محمد " شاه خوارزم.

ووضع يده في صدره، وأخرج فرمانًا، وقال:

- ها هو، هنا كل شيء مكتوب. إنكم كقرويين محبين للوطن سوف تقدموا الضرائب لسنتين تاليتين. ولن تؤخذ بعد ذلك من أي واحد منكم ضرائب لمدة سنتين تاليتين. والسلطان لا يتراجع عن كلامه. وستكونون في وضع مريح.

ولم يتزحزح أحد من مكانه قط. ولم يتبين لدى أحد الرغبة في الكلام. وسار المحصل عدة خطوات. فتراجع القرويون. فابتسم، وقال:

- ليس هناك من داع لأن تخافوا يا أعزائي !... إنني فقط موظف ضرائب. وأنا هنا لأنني أمثل السلطان. وكل ما سوف تقدمونه لي من القمح والشعير سأقدمه إلى السلطان مثقالاً مثقالاً. ومن يرغب في أن يكون له شرف دفع ضرائبه أولاً، عليه أن يخرج ويتقدم خطوة.

ولم يرغب أي منهم في أن ينال ذلك الشرف. واستمروا ينظرون إليه بعيون جامدة.

كان المحصل قد بدأ في الغضب، فقال:

- مفهوم، أنتم من الماعز العنيدة مثل تلك التي في القرى الأخرى. وكما أحضرتهم إلى قارعة الطريق، فإنني أعلم كيف أدفع بكم إلى جادة الطريق. ربما ستعاني أرواحكم شيئًا ما، ولكن الذنب قد جاوزني، وصرت في حل من أمركم...

وفر من أمامهم. ووصل إلى أقربهم منه، وأمسك به من ياقته، ونفضه قائلاً له:

- ما اسمك؟

كان ذاك رجلا مسنًّا. وأخذ يلعب مرة في ذقنه وأخرى في حاجبه ومرة ثالثة في شاربه وكأنه لم يتمكن من أن يتذكر اسمه، ثم أجاب:

- سعدي. لماذا؟

وتوجه المحصل إلى الرجل الذي يحمل في يده قائمة طويلة، وقال له:

- انظر، كم من الضريبة على الرجل المسن المسمى "سعدي " أن يدفعها؟

وقرأ الرجل القائمة:

- في العام ست مثقالات من القمح، ومثقالان من الشعير. وعلى هذا تُحصل الضريبة لعامين فتكون مثليها.

وصوب المحصل نظراته الخائنة على عيني الرجل المسن والتي بها غيام. وهز الرجل المسن رأسه على الناحيتين، وقال:

- لا...

- تقول لا؟

- أقول لا!....

- هل أنت تعاني الجوع؟

- بعد شهر أو شهرين سنصبح في وضع نعاني فيه من الجوع. كلنا جميعًا.

وصدق على كلامه أحد القرويين:

- الرجل المسن يقول الحق.

وخرج أحد الجنود وهو يتميز من الغضب، وقال:

- اصمت!

وتدافعوا إلى بعضهم البعض وهم يرتعدون.

ونفض المحصل الرجل المسن مرة أخرى من ياقته بصورة أقوى، وقال:

- قل، أين دفنت المحاصيل؟

كان الرجل المسن يضحك:

- لم أدفنها في أي مكان...

- إذا لم تقل فسوف أدفنك، فهناك أمر من السلطان بهذا الشأن.

ونظر العجوز "سعدي "بتفحص، وقال:

- هل قال السلطان أدفن من ليس معه القمح لكي يدفعه ضريبة؟

ورفس موظف الضرائب الأرض بقدميه بشدة، وقال:

- إن تلك الأرض هي ملك للسلطان، هل فهمت؟ إنها ملك للسلطان هذه الأرض!...

وتمتم الرجل المسن، وقال:

- المالك هو الله، والملك لله...

- ماذا؟ ماذا قلت؟ أليست للسلطان؟

- ممكن، ولكن الله أولاً. إنه سلطان السلاطين، إنه أعظم العظماء وهو لا يطلب مقابل للنعمة التي ينعم بها على هؤلاء. إنه لا يريد ضرائب للقمح، ولا للشعير ولا للثريد، ولا للثمار. بيد أن الشاه محمد سلطان خوارزم صاحب هذه الأرض التي رويناها بدمائنا وينتفع بها، فضلاً عن أنه يرغب في أن يحصل على ضريبة لعامين تاليين.

لم تكن هنالك من حاجة للعارف لكي يفهم معنى هذا الكلام، أو لسبب غير معلوم فإنه كان بالنسبة لموظف الضرائب غير واضح

ومعقد. فدفع بالرجل المسن بشدة من أجل أن يدحرجه على الأرض. ولكن رأى أنه لم يهتز من مكانه وكأنه شجرة دلب عتيقة. لقد كان وكأنه قد تجذر في الأرض، وكان يضحك، ويقول:

- لم يستطع جمع من الأعداء أن يهزني، ويقال الآن إن الأشخاص الذين نعدهم أصدقاء لنا يسقطونني !...

وصوب عينيه وسمر نظراته في عيني المحصل، وتابع:

- انظر، يا ولدي. إن هذا الرجل المسن الذي يقف أمامك كان أحد الأحجار التي بنت عليها أركان هذه الدولة. ولا يوجد في جسمه مكان لم يتعرض لضربة سيف. وقد كنت آنذاك طفلاً، وتجيء الآن وتتحرش بي. إنني أعلم أنك تحمل فرمانًا للسلطان، ولكن ألا يجب على المرء أن يكون أكثر احترامًا؟

وتخبط موظف الضرائب، وبُهت، وأصدر أمرًا صارمًا للجند، وحتى لا يبدو واضحًا فإنه قال:

- ماذا تنظرون أيها... هل ستقولون الآن؟ ألم تسمعوا بالأمر الذي أصدره السلطان؟

وتردد الجند. وانفلت المحصل، وأخذ يتمتم بغضب قائلاً:

- سوف أجعلكم تشنقون جميعًا.

وأصبح الخوف سائدًا. ومن ثم ارتموا على "سعد" العجوز. وأخذوا يركلونه حتى أشبعوه ضربًا.

ثم جاء صف آخر. ودفعوا المعترضين على الأرض. واستسلم منهم من ملأه الخوف دون أية مقاومة.

وعلى حين كان المحصل وأتباعه ينسحبون من القرية، كان العجوز "سعدى" يعود إلى رشده. وكانت كلمته الأولى بعد إفاقته:

- يقولون كان "جنكيز خان" سيأتي؛ وكان سيأخذنا أسرى، ويذيقنا الظلم، وكان علينا أن ندفع الضرائب من أجل أن ندافع عن المدينة... لماذا؟... هل خان المغول المسمى جنكيز أقل رحمة من هؤلاء.... ربما!..

***

وفي اليوم التالي جاءت إلى القرية قافلة أخرى. كان في مقدمتها رجل يلبس ملابس حمراء ويحمل في يده بوقًا. وكانوا جميعهم فرسانًا.

وانتحى القروي في مكان موحش لما أصابه من خوف من أن يتكرر ما حدث له قبل يوم من مصيبة، لقد بدأوا يتحسسون الأمور بخوف وشك.

وأوقف الرجل الذي يرتدي ملابس حمراء حصانه في وسط ميدان القرية تمامًا. ووضع البوق الذي كان في يده بين شفتيه الغليظتين، ونادى:

- أيها القاصي والداني. كل شخص بلغ الثامنة عشرة وحتى الخمسين ممن يستطيعون حمل السلاح عليه أن ينزل "أترار" بأقصى ما

يمكنه وبحد أقصى عشرة أيام ويحمل معه أكله وسيفه وسهمه وقوسه ومعه حصانه. لقد أعلن سلطاننا الجهاد المقدس، وسوف نقوم بحماية تراب أرضنا المباركة ضد المغول. أيها القاصي والداني...

وعندما علم أهل القرية أن صاحب الثوب الأحمر قد جمعهم ليس من أجل ضريبة جديدة، وإنما جاء من أجل شيء آخر، فإنه أخذوا يتجمعون رويدًا رويدًا. واقترب الأطفال من الرجل الذي يرتدي الثوب الأحمر جيدًا. وهو من جانبه أخذ يردد ما قاله:

- أيها القاصي والداني، لقد تم إعلان الجهاد المقدس من أجل حماية مدينتنا وكل شخص يحب دينه وأمته وسلطانه، وأن يكون قد بلغ من العمر الثامنة عشرة...

- لو كان المغول سيأتون، فليأتوا، هل سيأتون بإدارة أكثر ظلمًا من الإدارة الحالية؟

- نحن نذهب إلى الجندية. والمتخلفون سوف يموتون من الجوع.

- لنذهب إلى الجندية. ولنحمي وطننا، ولكن هذا البلد لمن؟ هل هو للسلطان محمد أم لنا؟ لقد كان بالأمس هو ملك للسلطان، وكان يطلب بعشر الممتلكات، كما أنهم داسوا بـــ "سعدى" العجوز تحت أقدامهم، واليوم يرغب في جند عندما كبسوا على رأسه.

من يريد أن يأتي، فليأتي، لقد متنا ونحن في صحتنا...

ودخل بين الجنود. وهن بدورهم قاموا بتهديد الناس بالقضبان التي كانوا يحملونها في أيديهم. وأخذ الدلال يكرر ما قاله، وهو يصيح؟

- أيها القاصي والداني....

***

القسم الثامن

كان "جنگيز خان" محتدًا وساخطًا. ولم يكن حتى ليمد يده إلى المائدة المزينة بالمأكولات الفاخرة والفواكه التي وصلته من الأقاليم الجنوبية.

كانت المائدة عامرة عن آخرها وكان هنالك أحد السفراء الصينيين وجمع من البكوات المغول. وكان ذاك السفير والمسمى "من - خون" Men – Hun مشغولا بأخذ بعض الملاحظات ويدونها في ورقة كانت في يده.

كان "جنگيز خان" يشرب وحسب. وكان يحب كثيرًا ذاك الشراب الذي أحضره بشكل خصوصي من "إيران". كان يفضل الشراب المسمى "القميز " Kımız (شراب مخمر كان يصنعه الفرس والأتراك قديما من لبن الفرس).

كان ساكتًا. وكانت شواربه تتدلى صوب فكه بشكل غير منظم. وكلما كان يحرك فمه كانت أطرافه تهتز، وكان يتحرك كمن أصابه زلزال.

وكان أحد الفهود المستأنسة يتجول داخل الخيمة. وكان كثيرًا يمسح برأسه في ساقي "جنگيز خان"، كان "جنگيز" يحب ذاك الحيوان كثيرًا. وكانت هنالك ثلاثة من الفهود الأخرى والتي تشبهه.

وكان من وقت لآخر يقوم برمي عدد من الأسرى إلى تلك الفهود، أما هو فكان يتفرج على هذا المنظر الوحشي المحبب إلى نفسه بنشوة وطرب. كانت تلك هي إحدى وسائل التسلية لدى جنگيز بعد عودته من الصيد أو من القتال.

كان البكوات صامتين لا يتحدثون. لقد كانوا يلتهمون بنهم ما هو موضوع أمامهم من لحوم المهر والبغال، وفي الوقت ذاته يبتلعون الشراب الكثير.

وأخيرًا نهض "جنگيز خان" من على المائدة. واعتلى عرشه الذي كان به تمثالان للنمور مصنوعة من الذهب مثبتين على الجانبين. كان هذا التصرف بمثابة الإعلان عن أن الوليمة قد انتهت.

ونهض القادة أيضًا. وأخذ الخدم من الصينيين يقومون برفع المائدة بحركات صامتة كما هو معتاد في كل حين.

كان كل شخص ينظر إلى "جنگيز خان " بانتباه. كانوا يعرفون أن هذه الاجتماعات التي تعقد هاهنا من أجل اتخاذ قرارات هامة. إن القآن كان على كل الأحوال متوجها نحو القيام بهجوم جديد. ترى أي البلاد المشئومة التي سيكون من نصيبها ذاك الهجوم، وعلى أي السلاطين المنحوسين سيقع هذا البلاء؟

وأخيرًا أخذ يتكلم وفي بطء شديد، قال:

- أيها القادة المغولِ الأبطال... سفير حاكم الصين الحكيم "من - خون"... سفير الملك "بورقا" Burka السيد "آشيجابو

نويان" Aşıgabu Noyan... استمعوا... لقد قام شاه خوارزم بقتـل رجالنا، ورجالي كانوا أبرياء حيث ذهبوا إلى هنالك مـن أجـل المتاجرة. لقد ارتكب عملاً دنيئًا وحقر من شأننا. ولقد قـررت أن أعاقبه. فكيف نتصرف؟

وساد الصمت. وانطلق من "جبه نويان" صوت متحشرج قطع هذا السكون، وقال:

- إن تجارًا يقتلون في بلد ما، ويتم سلب ونهب أموالهم، معناه أنه لابد من عقاب تلك الدولة. لتأمر بتوجه جيوشك صوب إقليم خوارزم على الفور، ولنجعل عاليها سافلها ولا ندع حجرًا يقوم على حجر. ولنسوق سلطانها من ذقنه.

لم يكن "طوقوچار" على هذا الرأي وذاك التفكير، فقال:

- إن "جبه نويان "يتحدث بتأثر وانفعال. بيد أن الأمر ليس مسألة انفعال، وإنما هنالك حاجة للمنطق. وأنا أقول إن علينا أن نعترف بأن سلطان خوارزم مازالت لديه الفرصة وعلينا أن نرسل سفيرًا ونطلب منه أن يقدم الاعتذار. وليكن مطلبنا هو تسليم الوالي "خير خان " الذي قام بقتل تجارنا إلينا. فإذا لم يفعل فعلينا أن ننظر في ما يجب علينا عمله.

ونظر "جنگيز" إلى "جبه" أولاً، ثم قال له:

- لقد قلت ما كنت أنتظره منك من حديث، يا "جبه".

ثم نظر إلى "طقو چار"، وقال له:

- وأنت أيضًا تحدثت بما كنت أنتظره منك، يا "طقو چار".

ثم فجأة وجه الخطاب إلى الجميع، وقال:

- إن "قورت جبه" شاب، وهو متقد وسريع الانفعال من أجل هذا، كما أنه شجاع مقدام، ومن أجل ذلك فإنه يقف إلى جانب شن الحرب. أما "طقو چار" فهو مُسن إلى حد ما وهو مجرب، وتعود على وزن الأمر بالمنطق، ومن هنا فإنه يرغب في التعرف على إمكانية إعطاء سلطان خوارزم فرصة، حسنًا، فإلى أي الرأيين تميلون؟

وارتفعت الأيادي. وكان الذين يقفون إلى جانب شن الحرب هم الغالبية وهز "جنگيز خان" رأسه على الجانبين، وأخذ يضحك بشكل بشع وقبيح.

- لا، يا أصدقائي. ليس الآن هو وقت الحرب. إن قواتنا متواجدة وتحركت من كل صوب وحدب. وفي القريب سوف تكون هنالك. وحينذاك سوف نتحرك وحتى ذلك الحين، فإن علينا أن نفعل ما أشار به علينا "طقو چار".

ثم تحدث ناحية الخلف، وقال:

- دانشمند حاجب...

ووقف "دانشمند حاجب" أمامه بعد أن التف حول العرش من الخلف، وجثا على ركبتيه، وقال:

- تفضل أيها القآن الكبير.

- اكتب الآن خطابًا إلى شاه خوارزم. وأرسل قافلة مناسبة في سفارة إليه. وقل له: عليكم أن تسلموا "خير خان "إلينا. وعليه هو الآخر أن يعتذر بنفسه عما حدث من قتل لتجارنا... وإذا ما تصرف على هذا النحو، فبإمكاننا أن نفكر في العفو عنه. وإلا ستندلع الحرب.

- على الرأس، أيها القآن الكبير...

- دون ذلك في الحال وأحضره، حتى نقوم بختمه. ومن بعد ذلك نرسله على وجه السرعة إلى "سمرقند ". ولتنبهوا على السفير أن يسعى بكل ما يمكن من أجل أن يحرض السلطان.

ثم عاد إلى القادة مرة أخرى، وقال:

- عليكم ألا تنفروا مما كنا قد اتخذناه من قرار بعدم التحرك. إنني أعلم، أنكم جميعًا أناس تلقون بأنفسكم إلى التهلكة في سبيلي. إن قآنكم لا يفكر في شيء سوى مصلحتكم ونجاحكم. وأنا أعتقد أن هذا التحرك الآن سيكون مناسبًا للغاية. وفي القريب سوف تسعد قلوبكم وسوف تستمتعون كما ترغبون بما تحصلون عليه من بلاد المسلمين، لا يصيبنكم الهم أو القلق أبدًا، فعلى أية حال كان الرد الذي يأتينا من شاه خوارزم، فإننا لن نغير قرارنا بالقتال.

وسُر "جبه نويان" من هذا الحديث كثيرًا. ونهض سريعا على قدميه، وألقى بنعرة القتال المغولية:

- لو!... لو!... لو!.... لو!...

وانضم إليه القادة الآخرين وكذلك "جنگيز خان" واختنقت الخيمة لفترة من الوقت بهذه الأصوات:

- لو!... لو!... لو!.... لو!...

وعندما سمعت خيول القتال المربوطة في الأوتاد تلك الأصوات، فإنها أخذت تحفر في الأرض بأرجلها. ومن ثم أخذت في المشاركة في الجلبة والصخب وهي تصهل طويلاً طويلاً.

***

عندما دخل سفير المغول ومعه أتباعه مدينة سمرقند، فإنهم رأوا المدينة وقد أحيطت بسور ضخم. كان الصناع وتلامذتهم والعمال يقومون جيمعا بالعمل، وقد أظهروا حمية تفوق طاقة البشر من أجل أن يتموا ويكملوا بناء سور ضخم يبلغ مداه اثني عشر فرسخًا. وأخذ السفير يضحك بينه وبين نفسه. إن خوارزم كانت تستعد. ولكن تلك الحوائط الحجرية المحكمة لن تصمد أمام قوة المغول. إن القلاع لم تكن لتغني في الحرب فتيلا، فبعد أن يتواجد فيها الجند الذين يقسمون بتقديم أرواحهم فداء...

وحسب رأي السفير، فإن ذاك لم يكن ليوجد على أرض خوارزم، لقد جعل سلطان خوارزم شعبه يمل ويسأم من أعماله التي تتسم بالغدر والخداع. لقد كان السفير على علم بكل هذا تمامًا.

عندما علم السلطان "علاء الدين محمد" بأخبار مجيء سفراء المغول، شعر بالفرح والسعادة. كان من الواضح للغاية أن "جنگيز خان" ينسحب من تلقاء ذاته. وإلا لماذا كان سيرسل السفراء؟ كان من اللازم أن يسوق جيوشه إليه مباشرة.

جعل السفراء ينتظرون كثيرًا من خلال التطويل في الاجتماع مع خانات القپچاق عمدًا متعمدًا. ومن ثم قبل بشكل متعجرف. أمر جلاديه بالاصطفاف على جانبي العرش. كان يبغي أن يوجه للسفير تهديدًا غير مباشر.

ودخل السفير منتصب القامة. ولم يحن رأسه ولا مرة واحدة. وبالرغم من غضب السلطان لكنه استمع لكل ما قاله الرجل بهدوء. وختم السفير حديثه قائلاً:

- إن قتل تجارنا قد أصاب قاآننا الكبير بحالة من الغضب والفوران، وفي حال إثارة ذاك الغضب فإن دولتكم تتحطم على رؤوسكم. وهو الآن يرغب في أن يعاقب "خير خان" بيديه، ثم أمر أن تقدموا اعتذاركم عن حدوث ذاك الحادث.

كانت الجملة الأخيرة كفيلة بأن تخرج شاه خوارزم السلطان محمد عن هدوئه ووقاره، كان يلاحظ أن السفير ذاته ومنذ أن بدأ كلامه كان يستخدم لغة تحريضية خاصة. فقفز وقال مزمجرًا:

- ما هذا أيها الجاهل! من ذاك قاآنكم الجرب، حتى يمكن أن يلقي عليَّ الأوامر؟ لقد تجاوزت حدودك؟ ولسوف أحطمك!....

ولم يتقلقل الرجل أو حتى يتزحزح. وزم شفتيه بطريقة وقحة، وتابع:

- لقد قتلتم تجارنا. وسوف يقوم قاآن المغول بالهجوم على "أترار" ولسوف يغسل هؤلاء بدماء المسلمين.

وقفز أحد خانات القيچاق "طونگچ " من مكانه بحدة، ولو لم يمنعه أحد لكان بالقطع قد أعمل سيفه فيهم دون أن يبقي منهم أحدًا، ولدق الخنجر حتى قبضته في صدر السفير.

- أيها الوغد!...

وقفز "تيمور ملك" بسرعة وأمسك بـــ "طونگج خان "بقوة، ولكن الوقت كان قد مضى وصارت تلك الحركة متأخرة. كان السفير على الأرض وهو في الرمق الأخير. وتضرجت السجاجيد البخارية القيمة بالدماء. وانسحب من كان مع السفير من أتباع إلى الخلف رويدًا رويدًا حتى خرجوا من القصر. وغادروا المدينة كما لو كانوا قد ألقى وقذف بهم بعيدًا. وأخذوا يضربون خيولهم من أجل أن يصلوا إلى "جنگيز خان" ويخبرونه بالخبر السيئ.

وحينما وصل الخبر إلى "جنگيز خان" ترنح، لم يكن ينتظر من الأمور أن تكون بهذا الشكل. لم يكن ليمكنه من أن يصدق أن شاه خوارزم في إمكانه إظهار مثل هذه الجسارة.

وأخذ يدقق بعينه الحوصاء التي فتحها عن آخرها في الرجال الذين أتوا إليه بالخبر لمدة من الوقت. ومن ثم امتطى صهوة جواده دون أن يتكلم. وساقه بسرعة صوب التلال والمرتفعات.

وتوقف أمام مغارة وصل إليها. ونزل من على حصانه. وتكلم وهو يضع يديه على فمه كما لو كانت بوقًا:

- يا "گوكچه"، يا "گوكچه"!...

وصدر من داخله صوت ضعيف ومرتعش:

- هل أنت غاضب كثيرًا على "تيموچين"؟

- تعال يا "گوكچه" أيها الجد، تعال، واطلع على ما وقع على رأس "تيموجين"، وانظر إلى ما عمل هذا السلطان عديم المروءة، لقد أمر بقتل سفرائي...

كان يظهر في مدخل إحدى المغارات رجل ضعيف، قصير القامة، طاعن في السن وتمتد ذقنه حتى تصل إلى صدره تقريبًا. وكان يستند على فرع من الأغصان. كان هذا الرجل هو "گوكچه" الحكيم المغولي المشهور. كان كل شخص يظهر له الاحترام، كان كل واحد يخشاه ويتجنبه. وكان يُعتقد في أنه إذا ما أراد فإن بإمكانه

أن يمطر النجوم على الأرض التي يريد. كما كان يُقال إنه على صلة برب السماء.

كان "جنكيز خان" من الذين يخشون هذا الرجل كثيرًا من بين الشامان الآخرين. كما أنه في الوقت ذاته يثق به، وكلما كانت تلم به إحدى الأزمات فإنه يجري إلى هناك ويطلب منه المساعدة.

- ماذا ستفعل، أيها الأب "گوكچه "؟

وابتسم "گوكچه "، وقال:

- أنت يا من تحكم في بلاد لا تغيب الشمس عنها، أنت يا قآن يا من ركعت لك كل الأعداء. فكيف لك يا "تموچين " أن تطلب المساعدة من رجل مُسن وعاجز مثلي؟

- ما الداعى لأن تقول مثل الذي قلته، أيها الأب "گوكچه "؟ إنني في أزمة معنوية شديدة. اقرأ في ساحة خوارزم، وقل هل يلزم أم لا يلزم أن نخرج ضدهم؟

وبعد أن فكر "گوكچه " لفترة من الوقت، قال:

- اشرح الآن.

ودخلا سويًا إلى المغارة. كانت النيران مشتعلة في أحد أركانها. وكان أحد الذئاب المستأنسة يرقد أمام النيران. كما كان أحد الأطفال في الثانية عشرة من عمره يلعب معه.

وأشار "گوكچه" بذقنه إليهما، وقال:

- إنهما صديقاي، لقد تبنيتهما، وليس لي من أحد سواهما.

- ألستَ ممن تملكونهم أيها الأب "گوكچه"؟

- إنني أجدهما في كل وقت أشعر بالحاجة إليهما. إنه من اللازم أن تجد الفرد متنفسًا.

وحول وجهه صوب "جنگيز خان ":

- هيا اشرح الآن.

وبدأ جنگيز في الشرح، شرح طويلاً طويلاً وتناول كل التفرعات... وغرق "گوكچه" في التفكير.

ثم لسبب ما رفع رأسه، وصوب عينيه في النيران، واتسعت حدقتيه إلى أقصى مدى. وصار وكأن كل وجهه قد صار عبارة عن عينيه فقط. لمعت عيناه، وتلاعبت في مقلتيه النيران، ومد ذراعيه نحو النيران؛ وأخذ يئن قائلاً:

- أيتها النيران، أيتها النيران. النيران في كل ناحية، والدنيا تلتهب وتشتعل. كل مكان. إترار، بخارى، سمرقند، كل الأقاليم الغربية. الدماء، وكأنها تخر أنهارًا... الأجساد، الأجساد...

واستقى بعينيه من النيران مرات عديدة، وتابع:

- سوف تصبح حاكمًا على كل خوارزم، يا "تيموچين"، ولكن التاريخ سوف يدينك للأبد.

وارتعش "جنكيز خان" وقال:

- ولكن لماذا؟

- لأنك سوف تقترف الظلم، وسوف تخرب المدن العامرة، سوف تأمر بقتل العلماء، وسوف تحطم آثارًا عظيمة أفنى فيها العديد من العلماء الكبار نور أعينهم...

- أنا لا أفعل كل هذا...

- ليس بيدك؛ إن الشيطان الذي يقطن في روحك يريد أن يرتوي ويشبع!

ونهض "جنكيز" على قدميه، كان ما يقوله "كوكچه" هو الحقيقة. كان الشيطان الذي يقبع في روحه يريد أن يرتوي. كان يصل إلى درجة السعار في سبيل سفك الدماء على مدى الشهر. كان يحب قطع الرؤوس، ويحب أن تراق الدماء.

وانسحب ببطء نحو الخارج. وامتطى جواده، ونزل بسرعة من التل، وأغلق عليه الخيمة.

***

كانت الاستعدادات للحرب مستمرة في كل ناحية من نواحي إقليم خوارزم. كانت الآبار العميقة تحفر في أرجاء المدن، وكانت القلاع يتم إصلاحها. وتم نشر الجواسيس بطول الطرقات. لم يكن هنالك من شخص يشعر بالفرحة. كان كل واحد يجتهد لكي ينجز المهمة الملقاة على عاتقه بغاية السرعة.

كان موظفو الضرائب الذين يمشطون كل نواحي الإقليم يسرعون في استخدام القوة لجمع الضرائب من الشعب لعامين تاليين. إن جمع هذا النوع من الضرائب كان يولد غضبًا عامًّا، وكان يبعث الناس على النفور من الدولة.

ربما كان شاه خوارزم على غير علم بالظلم الذي يقترفه الموظفون. ولكن كان يلاحظ البؤس الذي يزداد يومًا بعد يوم. كان يظن أن السبب في ذلك هو الأزمة التي يمر بها الناس، كما كان يؤمن بأنه بعد أن يتم النصر فسوف ينتظم كل شيء.

صارت سمرقند مثل عش النمل. وكان العمال الأقوياء الذين تم اختيارهم من بين الأسرى والصناع الذين تم جمعهم من القرى يقومون بإحاطة المدينة بالأسوار الضخمة، كما حفروا الخنادق العميقة حولها.

كان السلطان سعيدًا بم يتم إنجازه من أعمال وكان يلف خارج القلعة مرارًا وتكرارًا، وكان يتابع بنفسه الإنجازات.

وعندما لاحظ في أحد المرات أن أعمال العمال الذين يقومون بحفر الخندق تسير ببطء، فإنه غضب، وقال صائحًا فيهم:

- أسرعوا، وإلا سيقوم المغول بملء قنواتكم التي تركتموها غير مكتملة بجثثكم.

وكان هذا التهديد كافيًا لأن يجعل الجميع يسرعون في عملهم.

ومن ناحية كان قادة المدينة يداومون على جمع الجنود، وكانت المدينة قد صارت مع الوقت متقلة بالموجات المتتابعة من البشر الذين جاءوا مع أسلحتهم وخيولهم، كانوا يدونون أسماءهم من خلال مراجعة أولي الأمر. وظهرت القوائم الطويلة الطويلة.

تكونت وحدات من الفرسان رماة السهام، ومن المشاة رماة الأقواس، كان كل شيء يسير سريعًا. وبدأ الناس ينتظرون مجيئ المغول.

كان أول عمل يقوم به شاه خوارزم هو إشعال النيران في كل القرى الواقعة على الحدود مع المغول، وتوطين سكانها في أماكن أخرى.

وعلى هذا، فإنه في حال استيلاء جنگيز عليها، لا يجد مكانا يلجأ فيه، ولا يجد أمامه من شيء يأكله.

ولكن جمعًا كبيرًا من الذين كانوا يسكنون هذه القرى غضبوا غضبًا شديدًا. لم يعجبهم القرى المجدبة التي استوطنوا بها حديثا. وهربوا. وعبروا إلى إقليم القره خطاى، والتحقوا بجيش جنگيز.

ولم يحط السلطان علما بأي شيء هذا الذي حدث. والتقرير الذي أعطي له، كان يقول بأنه تم إحراق القرى، وتم إسكان الناس في القرى القريبة.

وفي النهاية جاء الخبر بأن جنگيز قد سير جنوده، وأنه فتح بعض القرى الحدودية، وأنه وصل "أترار" بسرعة. وهذا الخبر الذي

انتشر وكبر كما يكبر الجرف الثلجي، أصاب كل شخص بالدهشة والخوف.

يصادف بداية عام ١٢٢٠ أكثر الفترات التي تكثفت فيها فعاليات القتال في مدينة "سمرقند".

وجمع السلطان جميع قادته في القصر الكبير وأحاطهم علمًا بالأوضاع وسألهم عن التحركات الواجب عملها.

وخرج كل واحد بفكرة، كما قال كل منهم ما يراه ويفكر فيه.

في تلك الأثناء بدأ أحد القادة وهو من خانات القپچاق في الحديث، وقال:

- يا سلطاني، إن "جنگيز خان" لا يعرف شيئًا عن هذه الأراضي، ولكنه يعلم أراضيه كما يعرف كف يديه، لندعه، ولسوف يدخل البلاد، وبالتأكيد سوف نغرق.

وصدق على كلامه قائد آخر من القپچاق، قائلا:

- إن صديقي يقول الحق. ليدخلوا حتى يصلوا إلى أسوار القلعة. والآن فإن أسوار "بخارى" و"سمرقند" محكمة للغاية. إننا إذا ما تحالفنا ليس مع جنگيز واحد بل مع ألف جنگيز، فلن نتمكن مرة أخرى من عمل أي شيء.

لم يستطع "تيمور ملك "أن يهضم ما يقال حتى الآن. فصاح من المكان الذي كان يجلس فيه بشدة، وقال:

- إنها إهانة !..

والتفت السلطان "محمد" إليه وقال:

- أي إهانة تلك؟

- إن كلام الخان القبچاقي هو إهانة. إهانة صريحة للغاية، وإلا لما أوصى أي شخص لديه ذرة من العقل بأن نترك العدو يأتي إلينا حتى يصل إلى أسوار القلعة. إنه يعلم وغيره يعرف المغول. إنهم لا يبرحون أرضا دون أن يقلبوا عاليها سافلها ودون أن يبقوا رأسًا على كتف صاحبها. كيف له أن يقترح عرضا يقوم بمقتضاه هؤلاء بظلم شعب خوارزم؟...

- حسنا، فما هو رأيك؟

- إنني لا أتنازل إلى هذا الحد الذي أختفي فيه خلف حيطان القلعة مثل الحريم. إنني أفضل القتال مع العدو حتى ولو كان ذلك دون طائل! ليس لدينا من عمل إلا أن نتصرف بإخلاص.

- حسنا، ولكنك لم تكن مع الحرب أبدًا، عندما كنا نتقاتل مع جنود "جوجي خان"!

وضحك "تيمور ملك" بمرارة، وقال:

- نعم. لم أكن مع الجانب الذي يسعى إلى إيقاظ الثعبان النائم. لم يكن جنگيز آنذاك لديه المقدرة على أن يهددنا قدر سنة، ولم يكن يفكر قط في عمل شيء حتى ولو كان مجرد عضة. لقد هاجمناه،

وسلبنا قافلته، وبدا كأنه لم يعبأ. وقمنا بقتل سفرائه. والغالب أننا نحن الذين دعوناه واضطررناه للقتال، وبدا أننا كانت لدينا الرغبة في ذلك. وخانات القپچاق الذين كانوا منحازين للقتال، الآن يوصون بعدمٍ خروجنا من القلعة. إنهم يسعون لأن يقدموا بلاد خوارزم قربانًا أمام سيوف المغول. هل هنالك من اسم آخر لذلك سوى أنها إهانة؟

ولكي يمضي السلطان بالنقاش قدُمًا فإنه توجه إلى ابنه بسرعة، وقال:

- وأنت ماذا تقول، يا "جلال الدين"؟

وتوجه "جلال الدين" إلى أبيه باحترام، وقال:

- لا يجب البقاء في القلعة، يا سلطاني. إننا مضطرين لأن نقاتل الأعداء في الصحراء وهنالك يزداد احتمال تحقيقنا النصر. فمهما بلغت قوة الجنود الذين يقومون بسد القلعة، فإنها لن تتحمل الحصار لوقت طويل. فما لدينا من مأكل محدود، وكذلك الشأن بالنسبة للمياه...

- أي أنك تفكر تقريبًا كما يفكر "تيمور ملك"...

وحنى "جلال الدين" رأسه. فزأر السلطان، وقال:

- ألا يفكر كل واحد منكما بشكل يختلف عن الآخر أبدًا؟ هل عقليكما ملتصقان؟ هل يعني رأيكما أن نقاتل في الصحراء؟

فانطلق "تيمور ملك"، وقال:

- نعم، يا سلطاني، نريد أن نحارب في الصحراء. لأننا نؤمن أن الغلبة لنا ستكون في الصحراء فقط. إن انتظار المغول حتى يجيئوا إلى القلعة يساوي انتظارنا للموت دون حركة. علينا ألا ندافع، بل نهاجم. إن الجندي إذا ما فكر في الدفاع فمعناه أنه ينتظر الهزيمة.

وقام أحد قادة القپچاق بمقاطعة كلام "تيمور ملك" وقال:

- لا يمكن أن يحدث شيئا كهذا! ليست هنالك من فائدة متعلقة من جراء الهجوم على "جنكيز خان". إنك بهذا ترمي بسلطاننا إلى التهلكة. ونحن لا نرضى له بذلك. إن أهم شيء في المسألة هو حياة سلطاننا. وإذا ما لزم الأمر، فإننا ننسحب إلى الصحاري، ومن هنالك نذهب إلى "غزنة"، ومن ثم نقوم بجمع الجنود وتصبح لدينا المقدرة آنذاك في الهجوم على "جنگيز".

وعاد "تيمور ملك" إلى الحديث بكلامه الذي يشوبه السخرية والاستهزاء:

- ياه!... تُرى هل يمكنني أن أسأل عن سلطان لا يمكنه أن يدافع عن مدينة بما لديه من جنود، وهنالك خانات القپچاق يفكرون بأنه من الممكن أن يجمع جيشًا جديدًا من غزنة ويتغلب به على جنگيز؟ كم هو شيء مذهل في واقع الأمر!...

واعتدل السلطان "علاء الدين محمد "في جلسته بحدة. ثم جمع مقدمة القفطان الذي به فراء. وصارت سحنته حمراء للغاية، وقال:

- معنى ذلك أنكما تريدان أن نقاتل في الصحراء مع المدينة، يا "تيمور ملك" إذن فلتذهب وخذ معك ألف شخص، وابحث عن معسكر "جنگيز خان"، وعندما تجده، اهجم عليه، ومن ثم اذهب إلى قلعة "هوجند" Hocent، فلقد عينتك قائدًا عليها.

- أمركم على رأسي، يا سلطاني.

ثم توقف للحظة أمام "جلال الدين"، وقال:

- سامحني يا أخي.

وقام "جلال الدين" بمعانقة صديقه الذي أحبه كثيرًا، وفاضت عيناه بالدموع. لقد كان يعرف أن مثل هذا الأمر ما هو إلا انتحار في واقع الأمر، وقال وهو يهمس:

سوف آتي أنا أيضًا.

فرد "تيمور ملك":

- أنت مكانك إلى جانب والدك، جُعلت له الأرواح الفداء.

ثم غادر الصالون بخطوات جادة.

وبعد أيام ثلاث، قام السلطان بجع المجلس مرة أخرى، لقد جاءه خبر عن رؤية بعض الخيالة الذين يمتطون جيادًا صغيرة في المحلات الغريبة من المدينة وسأل البكوات:

- ماذا علينا أن نتخذه من تدابير؟

كان كل شخص يلوذ بالصمت. ثم صوب إصبعه نحو "جلال الدين" وقال:

- أنت في أي شيء تفكر؟

وأجاب "جلال الدين" بوجوم شديد، وقال:

- لا فائدة من إغلاق الجيش للقلعة.

- وإلى الآن أنت على نفس الفكر، يعني...

- نعم...

لم يحر جوابًا. وأخذ يتجول بعينيه في البكوات والخانات والقادة. ثم نظر مرة أخرى. ولكنه لم يجد من كان يبحث عنه.

- أين "تيمور ملك"؟

- لقد أمرتم بأن يأخذ معه ألف شخص، ويذهب إلى معكسر "جنگيز خان" هل نسيتم؟

واعترى السلطان الكثير من الندم، وقال وهو يتمتم:

- لم نكن قد قلنا بأن يتحرك في التو... يا...

كان يشعر بافتقاده لتيمور ملك بشدة.

***

القسم التاسع

أمر "جنگيز خان" باقتلاع الخيام، وأن يستعد الجنود للتحرك. وذهب إلى زوجته "بورته"Burte على حصانه كستنائي اللون.

كانت "بورته" هي زوجته الأولى. كانت عجوزًا، ومالت إلى السمنة. كانت تجلس على فرش من اللباد خارج الخيمة. كانت تصوب عينيها إلى النجوم كما لو كانت تبحث عن شبابها بإصرار. ثم سمعت فجأة أصوات حوافر الدواب، فالتفتت بوجهها. وعندما رأت "جنگيز خان" أمامها، وضعت ركبتيها على الأرض، وقالت وهي تتمتم:

- القا آن الكبير.

ونزل "جنگيز خان" من على حصانه، وجلس إلى جانب "بورته".

أخذا ينظران سويًا إلى النجوم لفترة من الوقت. ثم سألت المرأة:

- لماذا أمرت بجمع الخيام في المساء، أيها القا آن الكبير؟

- لأن هذه الليلة هي ليلة فأل حسن بالنسبة لي.

- هل ولدتك أمك في هذه الليلة؟

- لا، إنني ألعن الليلة التي ولدتني فيها أمي وحسب. الحقيقة أن هذه الليلة هي ليلتي التي أشعر فيها بسعادة غامرة.

- ألا تعرف أبدا.

- ماذا؟

- إنك غير مسرور لمجيئك إلى الدنيا. الواقع أن جنودك في عدد حبات الرمال، وبإشارة منك تشتعل النيران. وليست هنالك من بلدة لم ترها. وأنت صاحب أراضى لا تعرفها. ولديك الزوجات، كما لديك أيضًا الأطفال. وتقوم بأعمال لا يستطيع أحد أن يفعلها بكل سهولة ويسر. وأنت الآن غير مسرور من حالك هذا؟

وهز رأسه على الجانبين، وقال:

- لستُ، يا "بورته"! لستُ مسرورًا من حالي. هنالك كل ما ذكرته، ولكن هنالك الموت أيضًا. بعد أن يولد الإنسان لكي يموت، فهل من فائدة لكل هذا؟

- معنى ذلك أن الفاتح الكبير للعالم أصبح يخشى من الموت؟

- لا تسخري، يا "بورته". إذا لم تفهمي أنت، فمن يفهم. أنت أول زوجاتي. لقد شاركتيني في الأيام المرة، اعلمي أنه في كل مرة يذكر فيها الموت، فإن زوجك يرتعد مثل الأوراق التي تهتز بفعل الرياح. وتلك هي القلعة الوحيدة التي وقعت فيها عاجزًا أمامك.

سأموت، نعم. حتى الإسكندر الأكبر مات. مات، سأموت. لم يستطع العلماء الحمقى من أن يجدوا أي نوع من الحيل أمام الموت.

وشردت نظراته. ونظر إلى السماء طويلاً كانت كل ناحية تشبه شمسًا مشطورة. وصار القمر هلالاً لامعًا ساحرًا في أطرافه.

ووجد سببًا للحديث مرة أخرى، فقال:

- إن تلك الليلة هي ليلة سعدي وحظي. إنها ليلة فأل حسن يا "بورته". هل تعلمين لماذا؟.

كانت "بورته" في حيص بيص مما سمعته، فأصابتها الدهشة، وردت:

لماذا؟

- فكري في الأيام الخالية. قبل عشرين عامًا مضت. نعم قبل عشرين عامًا كاملة، وها هي مرة أخرى ليلة تلمع وتتلألأ على هذا النحو. لقد حدث شيء جميل، جميل للغاية. في هذه الليلة يصير القمر براقًا على هذا النحو مرة أخرى. كانت النجوم في السماء عناقيد مرتبة. وكانت كل ناحية تضيء مثل الشمس. وهنالك الآن سرية صغيرة حولنا. لقد كواني موت أبي. كما أن فراق أمي قد أحرق قلبي. كنت شابًا، موفور الصحة والنشاط، صحيح البنيان. وكنت أقوم بالصيد. وكنت ادخل غابة تشبه تمامًا

هذه الغابة. والتي تبدأ بنهاية هذا الوادي، والتي تمتلئ بالأشجار الطويلة العالية، وقمت بالاستراحة مع عدد من الرجال الذين أنهكهم الجري وراء الحيوانات المتوحشة. كنا نستريح.

ثم مد يده إلى سيفه بسرعة، وتابع:

- وفجأة قمت بالفرار من مكاني وأنا أشعر بسلوك غير قويم من امرأة. قفزت على ظهر حصاني كما استللت سيفي الآن.

كانت "بورته" وكأنها قد سُحرت. كانت تستمع إلى زوجها وهي خائفة حتى من أن تأخذ نفسها.

ثم بدأت تفهم رويدًا رويدًا. حينما رأت سكون القا آن، قامت هي بنفسها في الشرح، وقالت:

- لقد وقعت كالصاعقة وسط ثلاثة أشخاص كانوا يريدون خطفي. لقد كان الرجال في حيرة من أمرهم لما عساهم أن يفعلوا. وفي زمن قليل كان اثنان منهما قد تمددا على الأرض، والآخر أجبرته على الفرار. وأخذنا ننظر إلى بعضنا البعض تحت ضوء القمر. لقد كنتُ شابة حاملاً، شابة يافعة.. أوه.. تلك الأيام..

وهز رأسه، وقال:

- السنون تركب بعضها البعض وتتدفق. إنها تتدفق وتهدر مثل نهر "ايرگيز". ولكنه هدير صامت... كم هو شيء محزن.... إن

الشيب الأول الذي سرى في شعري قد أخذتيه دون علم النساء الأخريات. لقد ألقيت بي جانبًا مثل الممحاة المعصورة يا "بورته". وحاولت أن أتماسك. وكانت الدماء تسيل في أعماقي، ووطأت الحجر حتى لا أصيح. ألا تعرفين أشد الأيام معاناة لي؟ إنه اليوم الذي أخذتي فيه "قولان خاتون". كانت شابة وكانت جميلة. لقد بكيتُ لأيام كثيرة وكنت أخشى من نسيانك لي تمامًا. وكنتُ على حق، فالحقيقة أنك قد نسيتني. لقد مرت الأسابيع حينا والشهور حينًا آخر، وأنت لا تترددين على خيمتي، إنك لم تسألي عن أحوالي ولا حتى قمتي بإرسال من يخبرني بأخبارك. ماذا تفعل "بورته" التي شاركتني الأيام السيئة بمعنى أنك لم تكوني تهتمين...

ونزلت الدموع غزيرة من عينيها. وجثت على ركبتيها. وأخذت تمسح بظهر يدها المرتخية على خدوده، وقالت:

- لقد عانيتُ كثيرًا، أيها القا آن. ولكن نجاحاتك كانت هي البلسم لمعاناتي تلك. كنت أتوسل وأتضرع إلى رب السماء دائمًا من أجلك.

وأخذ "جنگيز خان" يدى زوجته بين راحتيه، وقال:

- "بورنه" إنني لم أنساك أبدًا. لقد أحجمت عن المجيء إليك لكي لا تغضب "قولان خاتون". بيد أنك شريكة ألمي. كيف يمكنني أن

أمحوك من عقلي؟ إن كل نسائي في ناحية، وأنت في ناحية يا "بورته ". ابتلاهن الله جميعهم!

ثم سمعت أصوات جلبة كبيرة وعلى حين غرة؛ ووصلت إلى مسامعه صيحات تقول:

- أين القا آن، أين القا آن؟

وتعرف على صوت "قورد جبه "من بين صليل السيوف. ففز من مكانه مثل البرق. وفي قفزة واحدة كان على ظهر حصانه. كان هنالك نعرات وأصوات يتبين منها:

- لو !... لو !... لو !

- أيها القا آن الكبير.

- أنا قادم..

- لقد هوجمنا !...

- تقهقروا... لقد هوجمنا ها!اجتمعوا.

وانطلقت الأبواق. وصلصلت السيوف... وأطلقت السهام...

- اضربوا !...

- اجتمعوا على شكل دائرة...

- حطموا الأوغاد...

- انسحبوا جانبًا، افسحوا الطريق!

وغطى صوت رجل يتحدث بسرعة. على كل الأصوات:

- اضربوا أيها التركمان الأسود!...

ورن صوت "صارى لاگود "بنعرة عقب ذلك:

- اضرب يا "تيمور ملك"!...

- اضرب أيها الصقر!...

علم المغول آنذاك أنهم من المهاجمين. وصر "جنگيز خان" على أسنانه:

- أحيطوا بهم. واعملوا السيوف فيهم جميعًا.

وقع "قورد جبه" عند "تيمور ملك". وأخذ الاثنان يتعاركان في معركة حامية الوطيس. كان السيف يستخدم بمهارة، كما كانا يسعيان إلى أن يصطاد أحدهما الآخر.

وعلى حين كان "قورد جبه" يعترف بينه وبين نفسه بأنه لم يصادف في حياته عدوا بمثل هذه القوة، كان "تيمور ملك" يفكر في الشيء ذاته.

وسعى "جبه" إلى الحديث باللغة الخوارزمية بالقدر الذي يعرفه:

- من أنت؟

- إنهم يطلقون عليّ اسم "تيمور ملك".

- هذا التركماني المشهور!.

- أنت تعرفهُ جيدًا.

- إنهم يطلقون عليّ اسم "قورد جبه".

- سمعت أنك كنت أحد الأبطال.

- هل اشتهر صيتنا على هذا النحو.

- إن بطولتك تتحصر في القتل بالسيف للأطفال الأبرياء والمسنين المساكين!

وأطلق "قورد جبه "ضحكة عالية:

- إنني لا أتذكر أنني عملت مثل هذه الأعمال أبدا، ولكن في الغالب سوف أفعل ذلك إذا سارت الأمور على هذه الكيفية.

- وهذا ما يليق بك!...

- لقد أظهرتَ ما خفى أيها الشاب، خذ!..

وأدار "تيمور ملك" حصانه بسرعة إلى ناحية ونجا. ثم عاد أدراجه وهجم هجمة مضادة:

- لم يحالفك التوفيق، يا "جبه نويان"، أقبل أنت تلك!... ولكن تلك هي الأخرى لم يحالفها التوفيق.

- برر... أنت حاذق مخادع بعض الشيء.

استمرت المجادلة لنصف ساعة. وأصاب التعب كليهما، ولكن النتيجة لم تحسم. وأصابتهما الحيرة. لم يكونا يتذكران أبدا أن يقابلا منافسًا بمثل تلك الصعوبة، وكان كل منهما يقدر الثاني. ولم يتردد "تيمور ملك "في أن يقول له:

- أنت تستخدم السيف جيدًا يا "جبه نويان".

- وأنت أيضًا جيد، يا "تيمور ملك".

- إنني أفكر من أين لواحد مثلك أن يقع بين هذا القطيع من بنات آوى؟

وبدلاً من الإجابة، فإن "قورد جبه" أنزل سيفه إلى الأرض بشدة، وقال:

- خذ هذا أيضًا، وتفكر!

ولكن السيف كان قد نزل خائرًا. وتحاشاه "تيمور ملك" بسهولة، ثم استمر في الحديث كما لو كان لم يحدث أي شيء.

- إنني في الحقيقة في حيرة. ما معنى أن يخرج أمثالك بين المغول؟

- إن جيش المغول مليء عن آخره بأمثالي، أيها الشاب.

- إنك تعرف هذا عندما يبدأ تقدير الشجاعة.

- هل ظننت أنك سوف تخلصني بحق؟

- ووجدها "تيمور ملك" فرصة سانحة فنظر، رأى أن أصدقاءه قد فعلوا ما باستطاعتهم، وأنهم قد بدأوا في الانسحاب جماعات من ثلاثة أو خمسة أفراد صوب الغابة.

- يعلم الله يا قورد جبه أنني قد فعلت ما أستطيع. وسوف نلتقي مرة أخرى قريبًا.

وبسرعة شد لجام فرسه.

- هاي!... إلى أين؟

- استودعك الله، يا جبه نويان، سنتقابل مرة أخرى في القريب.

وساق "جبه "حصانه خلف "تيمور". وسار لبعض الوقت. وفي النهاية لاحظ أن لا أحد خلفه. فوقف، وصاح وهو ينظر خلفه:

- اللعنة على أمثالكم أيها الجند. هل معرفتنا الحقيقية هي في قتال الأطفال والمسنين الذين لا يمتلكون ما يدافعون به عن أنفسهم؟ لماذا لا نتعقبهم؟

- وعندما لم يصل أي جواب، فقد عاد أدراجه بسرعة.

وصاح بسؤاله هذا على "جنگيز خان":

- لماذا لم نتعقبهم؟...

- كان "جنگيز" يرتعد من خوفه وغضبه؛ وقال له:

- لا تنفعل. إن هؤلاء قوة قليلة، وعلى أية حال إنهم طليعة جيش خوارزم. والآن سوف تأتينا القوة الأصلية. هل نتعقب هذه القوة الصغيرة ونقع في فخ هؤلاء؟

وثاب "جبه نويان" إلى رشده في تلك الأثناء. ونظر إلى القآن بالتقدير.

- إنكم تتحدثون بغاية الصدق. الحقيقة لابد أن يكون هؤلاء هم الطليعة لقد فكر شاه خوارزم بشكل جيد، إنه يسوقنا من ورائه، حتى نقع في شباكه.

- نعم جيدة، ولكن من ذاك الذي يقع فريسة هذه اللعبة؟

- فيم تفكر، أيها القآن الكبير؟

ورفع "جنگيز خان" رأسه. ونظر إلى القادة الذين احتشدوا من حوله. وأخذ يداعب ذقنه. ثم حول عينيه المقطبتين نحو السماء، وقال:

- هذه الليلة ليلة حسنة الطالع. فكما كانت منذ عشرين عامًا خلت، فها هي الآن تعود حسنة الطالع مرة أخرى. عليكم بحشد الجيش على النظام. أظن أننا سوف نهاجم جيش خوارزم. لقد أثارنا بما فيه الكفاية. ولسوف يتم تقييم هذه الفرصة، إنني أنتظر منكم جميعًا الثبات والشجاعة. في الحقيقة لم أكن أظن أن شاه خوارزم "محمد" سوف يتحرك بمثل هذه السرعة، لقد صار التصرف ببطء

ينقلب ضدنا. إنها المرة الأولى في حياتي التي أتصرف فيها على هذا النحو الخاطئ في القتال. وهذا أيضًا...

كان سيقال "يمكن أن يكون هذا هو نهايتنا "، ولكنه تخلى عن ذلك لكيلا يحطم شجاعة قادةه، وعلى هذا فقد أحل محلها هذه العبارة:

- وفي ظل هذا لا محيص من شجاعتكم وبطولتكم، قفوا وقفة جيدة، فالسلب في انتظارنا.

- لو !.. لو !... لو !..

- وصلت هذه الصيحات إلى مسامع "تيمور ملك" وأصدقائه الذين كانوا ينسحبون.

- ألا تسمع عواء ابن آوى يا "لا گود"؟

وكان "صارى لاگود" يرفس حصانه آنئذ، فرد قائلاً:

- هل أصبتُ بالصمم؟ ولكن هنالك نقطة لم أفهمها: لماذا لم يأتوا في أثرنا؟

أجاب "تيمور ملك" على هذا التساؤل قائلاً:

- مما أصابهم من الخوف. لقد ظنوا أننا طلائع القوات. لقد خالت عليهم الظنون بأن جيش خوارزم قد أقام كمينا داخل الغابة. ويااليت كان الأمر كذلك...

كان في صوته تأسف وتكسر، وتابع كلامه قائلا:

- ليت. إن جنكيز ليس أسطورة كما كنا نظن. لقد كبرنا من شأنه وجعلنا منه أسطورة. لقد اكتشفنا على هذا النحو أننا قد أخفنا شعبنا. لقد وصلوا إلى حالة يقومون فيها بالهرب من عدو لم يروه. وكذلك الشأن بشاه خوارزم الذي انطوى على الخوف ذاته. لو أننا جئنا في وحدة واحدة ولو اشتركنا في هجمة واحدة كم سيكون ذلك شيئًا طيبًا. إننا يمكننا آنذاك أن نمحو جيش المغول هاهنا وليس في مكان آخر.

- أحقيقة ما قلته من أن سلطاننا يعيش في هاجس من الخوف؟

وعلى الرغم من كل شيء فإن "تيمور ملك" لا يمكن أن يقول إن شاه خوارزم خائف:

- إنه لا يخاف. فقط هو ينقاد إلى خانات القپچاق. وأنا لست أفهم لماذا يخشى من أمه الآن. إنها امرأة، وهو سلطان صاحب مقدرة. ماذا هنالك ليخاف منه؟ لا أفهم على شكل ما. ولكن ما حدث قد حدث. على الأقل كان سيدافع عن مدنه. لا أظن، إنه سوف ينقاد للقپچاق ثم ينسحب. ربما إلى جبال إيران. وهو يتخيل أنه ينسحب من هنالك إلى بلاد الهند، هذا شيء محتمل. ولكن هذا الطريق كان "جوجى" ابن "جنگيز خان" قد استولى عليه وأغلقه منذ زمن طويل.

- من أين علمت؟

- يكفي أن تقوم بإدارة الجيش لعدة أعوام حتى تعلم هذا. إن جنگيز ليس مخبولاً. أبدًا، ربما كان غير عاقل، ولكن يوجد حوله قادة كبار في حقيقة الأمر. هل تعرف "قورد جبه"؟

- كنت أسمع عن اسمه.

- لقد تعرفت عليه من قرب، وأكثر قربًا من كل شيء. إنه يتقن استخدام السلاح، وهو عدو عاقل. كم كنت أتمنى أن تجيء لنلتقي وجها لوجه مرة أخرى.

وأخذ "تيمور ملك" يشرح لـــ "لاگود" ما حدث بينه وبين "جبه" من تقاتل:

وسأله قائلا:

- هل انتصر أحدكما على الآخر؟

- لا لم ينتصر أحدنا على الآخر. ولم يكن هنالك من وقت وحتى لم يكن هنالك من موازنة للقوة. لقد كنا مضطرين للانسحاب إلى الغابة في وضع سرية منتظمة كما كان قد تقرر بعد أن قمنا بالهجوم، لقد رأيت أنكم كنتم قد بدأتم في الانسحاب. كما أن الحرب قد ظلت ناقصة. فأين ستلتقي مرة أخرى. الله وحده يعلم...

- هل تعني أن هذه الحرب ستستمر طويلاً؟

- هل تستمر طويلاً؟ أنى لي أن أعرف. إنني لا يمكنني أن أعطي احتمالاً كبيرًا. إن جنگيز خان في حالة قِلة عنا. ولسوف يضرب بقوة حتى يصل إلى نتيجة دون أن تهترئ قواته.

- هل تريد أن تقول إنه سينتصر علينا؟

وسكت "تيمور ملك" لفترة، وأنزل على عُرف حصانه ربتة خفيفة. وصاح قائلاً:

- د يـــ... يـــ... ـــه !.

- لم تجب عن سؤالي يا "تيمور ملك". وأنت تقول أشياء تجعلنا نحتقن، كما تقول بأننا نهزم...

- إن جنودًا ينقصهم قادة شجعان وعقلاء كم يكونون في وضع سيء، بل ولا يختلفون عن قطيع من النهابين.

- هنالك "جلال الدين" بالتأكيد...

- إنه لا يمكنه أن يتصرف بعكس والده. حتى لو أراد أن يعمل شيئًا واحدًا فلا يستطيع عمله...

- لماذا؟...

- إن جزاء من يقف ضد أمر السلطان هو شيء واحد - حتى ولو كان ذاك هو ابن السلطان وفلذة كبده.

الإعدام!

– وأقل من ذلك هو السجن. ألم يكن ذلك لعدة شهور جزاء جرأتي؟

– هل سيخشى "جلال الدين" من الموت؟

– كلا، إنه لا يخاف الموت. ولكن أباه إذا تركه يقع في أيدي القبچاق فإنه يعلم أنه ستتولد عواقب وخيمة ومفجعة. عليه أن يبقى بجانبه وأن يفي بمهمته في التحذير إذا لم يكن هنالك من شيء آخر.

وقطع "صارى لاگود" حديثه.

كان القمر يضيء الطريق وهو يتسلل من بين أوراق الأشجار. وكانت ترد إلى مسامعهم من بعيد صدى أصوات تمتمة حشرات الربيع، وأحيانا صوت عواء ذئب، وأحيانا عواء ابن آوى.

أما الجانب العلوي، فكانت الطرق صامتة وموحشة...

***

كان شاه خوارزم "علام الدين محمد" يذرع غرفة العرض في القصر جيئة وذهابا تقريبًا. ولم يكن هنالك من أحد معه. ومن حالته وتصرفه كان يُفهم أنه في انتظار أحد الأشخاص.

كان الوقت على وشك الإصباح. كان القمر قد اختفى الآن، وأخذ يثبت وجهه على مولد الفجر. لم تكن سمرقند لتنام. كم من ليال وكم من وقت مر عليها وهي يقظة لا تنام، لم يترك هاجس الهجوم مجالاً لأن تنام أعينهم. كانوا يعملون بهمة ونشاط، وكانوا يتقوون بالأسوار.

ذهب إلى النافذة. وبحث عن الخريطة، ونظر إلى الخارج. كان يمد عينيه إلى الأمام حيث حديقة القصر والتي تشبه غابة عظيمة. كانت المآذن التي يمكن رؤيتها تتخايل على الجامع الكبير والذي لم يكتمل بعد تُشبه ملكا وقد ذراعيه صوب السماء.

فتح الباب فجأة، فالتفت شاه خوارزم بتثاقل. كان الذي دخل هو أحد الحراس من بين الثمانية الذين كانوا ينتظرون على الباب. وضم يدبه على صدره، وقال:

- إن "طونگچ خان" ينتظر أوامركم، يا سلطاني.

وأتى السلطان محمد بحركة من يده وكأنه يهش ذبابة، وقال:

- ليدخل.

ودخل "طونگچ خان". كان يسير ناحية السلطان وهو يحييه.

- أطال الله في دولتكم، يا سلطاني.

- أليس الموت هو عاقبتنا مهما طالت وامتدت، يا "طونگچ خان"؟

- لا قدر الله، يا صاحب الحشمة. ماذا نفعل من دونك؟

- تجدون لأنفسكم شخصًا آخر. ألم يكن كل ذلك على هذا النحو؟. أظن أن "أوزلاق شاه" يكون سلطانًا جيدًّا.

كانت علامات الدهشة بادية على وجه "طونگچ خان":

- إننا راضون عن سلطاننا، وليرضى الله عنه أيضًا.

- دعك من كلام البكوية، يا "طونكچ خان". لابد من إيجاد وسيلة لحل الموقف هذا. إنهم يقولون إن "جنگيز خان "يسير في القريب العاجل نحو "أترار" وسوف يستولي عليها أولاً، ومن ثم يقوم بمعاقبة "خير خان". ثم بعد ذلك سيتجه إلى "سمرقند" ثم إلى "بخارى" ثم إلى "قور گان"، كما سيأتي إلى غيرها وغيرها..

- حفظنا الله.

- لنحفظها نحن بمعنى أن الله تعالى قد جعلنا على رأس هذه البلاد، وجعل قوادها تحت إمرتنا. حسنا، فماذا فعلنا؟...

- لقد وسعنا من البلاد، يا سيدنا.

- هل كان ذلك كافيًا؟ دولة تكبر وتكبر معها أمراضها. لقد كنا نفضل أخذ الضرائب من الشعب من طرق سهلة على أن نأخذها طبقا لتدابير محكمة. وعلى حين كنا منشغلين في التفكير في إطعام أنفسنا، لم يؤثر فينا تحطيم الشعب من شدة الجوع. لقد أظهروا لنا دولتنا بستانًا من الورود. وكانوا يختفون جميعًا تحت وطأة جوعهم وأذيتهم التي عانوا منها. لماذا فعلتم ذلك، يا طونكچ خان؟

كان "طونكچ" صامتا. كان يعرف أن لا فائدة تجنى من جراء حديثه. لقد حدثت للسلطان أحداث كثيرة. كان يفضل أن ينظر إلى الأمام.

- على حين كنت أنفجر من كثرة الأكل كان شعبنا يسير جائعًا. وعلى حين كنتُ أتلوى من كثرة المتع كان شعبي يتلوى من الألم. وعلى حين كنتُ أحسن بالمدن على بكواتي كان شعبي لا يجد قطعة صغيرة من الأرض... والآن أين هم هؤلاء البكوات؟ لماذا انتحوا جميعًا جانبًا؟

- نحن هنا، يا سلطاني؟

- وصوب "علاء الدين محمد "إصبعه نحو صدر "طونگچ"، وقال:

- أنت هنا، وأصدقاؤك؟ البكوات الآخرون، والقادة؟

- لقد هرولوا جميعا من أجل الدفاع عن المدن.

- لا تضحكني... إنهم جميعا هرولوا للاختفاء خلف الأسوار الضخمة، هرولوا لعمل ترتيبات ينقذون بها أرواحهم. أليس هذا هو الصحيح؟

- ولم يجد جوابًا، ولم يمكنه من أن يجيب. فأطرق بنظره إلى أسفل.

- لماذا أنت ساكت، يا "طونگچ خان"؟ أليس ما قلته هو الحقيقة؟

- سلطاني، لماذا أنت غاضب على بكواتك؟ إنهم جميعا قادة طيبون. إنهم يرغبون في الدفاع عن المدن، ويلزم أن يكون على رأس الجنود قائد. وسوف ترون، أنهم سوف يجعلون جنود جنگيز يتقيأون دمًا. حتى ولو لم يهجم على أية مدينة قط...

- دعنا ندعو بأن يحدث هذا. والحاصل أن هؤلاء الرجال لا يقدمون حتى قدمًا واحدًا خارج القلعة...

وسكتا فترة من الوقت، ثم سأل "علاء الدين محمد":

- هل نبقى في سمرقند، أم علينا أن نذهب إلى "بخارى"؟ ماذا تقول في ذلك؟

كان "طونگچ" ينتظر هذا السؤال ذاته. وبدأ يتحدث بشكل مؤثر:

- إن أسوار "سمرقند" ما شاء الله هي قوية متينة. إنها ستضطر جنگيزا إلى أن يعود أدراجه من هنا. وعليك أن تجعل جنودك يتعقبونهم ويخرجون في إثرهم، كما أن عليك أن تأخذ قدرًا من الجنود من "بخارى" أيضًا. إن في بخارى نحو مائة ألف من الأبطال، وإن خمسين ألفا من الجنود يكفون للدفاع عن المدينة. ومن يتبقى بعد ذلك تأخذهم في أثرك نحو "بغداد" ومن ثم إلى "إيران" أيضًا. وبالقوات الجديدة التي ستجمعها من هنالك تخرج للقاء "جنگيز خان"، إنني لعلى ثقة من أن جنگيز سوف يذوب مثل حفنة من الثلج أصابتها حرارة الشمس.

- إن شاء الله!...

- صدقني، يا سلطاني. إن الخطر يكمن في بقائكم هنا. ولا قدر الله، إذا حدث لكم مكروه وحدث حادث لجسدكم المبارك، حينذاك ماذا

عساه أن يفعل جيش بلا قائد أو رئيس؟ ستظل المصيبة كبيرة. عليك أن تغادر هذه المدينة بكل تأكيد.

وأخذ "علاء الدين محمد" يفكر لبعض الوقت. وأخذ يجمع خصلات بيضاء من لحيته:

- معنى ذلك أن عليَّ أن أذهب، أليس كذلك؟

- بالتأكيد عليك أن تذهب. ولسوف ندافع عن المدينة حتى آخر قطرة من دمائنا. ولسوف يغرقك خبر انتصارنا في القريب في السعادة والسرور. إن رجال القپچاق الصادقين يقدمون على عمل كل نوع من الفداء والتضحية..

وقطع السلطان كلامه بحركة من يده:

- عمن تتحدث من فدائيي القپچاق، يا "طونگچ خان"؟ ألا تعلم أن عشرين ألفا ممن أرسلناهم إلى "أترار" من القپچاق قد انضموا إلى صفوف الأعداء وتسببوا في المهانة.

وامتقع لون خان القپچاق:

- شيء، يا سيدنا... أنتم... أنتم ألم تكونوا على علم بهذا؟

وضرب السلطان برجله في غضب:

- يا أيها.. أتظن أننا من الحمقى؟

وأشار إلى الباب:

- أغرب عن وجهي!...

وعلى حين كان خان القپچاق يخرج وينسحب إلى الخلف وهو يرتعد، كان "علاء الدين محمد" يقول متمتما وكأنه يقول لنفسه:

- هذا السافل، لم تستطع أن تفهم الفضيلة حتى بعد أن رأينا أكثر الحقارات والدناءات التي أصابت الروح، يا أيها المغفل، من يمكنه أن يوقظك من هذه الغفلة التي أنت فيها؟

ثم أخذ سبيله أمام النافذة مرة أخرى لمدة من الزمن، وبدأ صوت آذان الفجر. كان صوت حنون قد أخذ في الارتفاع رويدًا رويدًا إلى السماء. فركع على ركبتيه في خشوع.

وبعد فترة كان الإمام سيجيء ومن ثم يؤدي صلاة الفجر. لم يكن قد اتخذ أي نوع من القرارات. لقد غرق ما بين الذهاب والبقاء. لو خرج وذهب لكان سينقذ روحه، ولكنه لن ينجو من أن يكون سلطانا بلا دولة، لم يستوعب عقله الإهانة التي وجهها إليه جزء من القپچاق. كيف أمكنهم إهانة بلد أكلوا من طعامها لسنوات وسنوات، وكيف أمكنهم الالتحاق إلى صفوف عابد للأوثان؟ هل هنالك ريشة ساحرة لدى "جنگيز خان "كما كان يُقال، تجعل من يراها ينضم إليه؟ عندما دخل الإمام، فإنه كان قد فصله عن أفكاره:

- سلام عليكم، أيها السلطان الكبير...

- من أنت، "قاضي زاده "؟ وعليكم السلام...

- أنا عبدكم يا سلطاني، ودعواتي لكم بطول العمر.

- أنا على وضوء، فلنؤدي الصلاة.

أديا صلاة النافلة، وأخذا في التسبيح طويلا، وقام "قاضي زاده" بالإمامة، ومن ثم أديا الفريضة. وقاما بالدعاء. وأخذا في التضرع إلى الله بأن يكون النصر حليفهم.

وانتهى الدعاء. ونهضا على قدميهما. ولمرة أراد السلطان أن يبث ألمه إلى الإمام:

- استمع، فأنت عبد محبوب من الله. استمع إلى جيدًا... إنهم يقولون أن عليَّ أن أغادر المدينة، وعلى أن أتوجه صوب "بغداد "مع الجنود الذين سيسيرون في أثري. ومن هنالك آخذ قدرًا منهم ومن ثم انسحب إلى جبال إيران. وهنالك استعد استعدادًا جيدًا ثم أعود مرة أخرى. ثم أضرب جيوش "جنگيز" بعد أن أنقض عليهم كالصاعقة فماذا تقول؟

وأجاب الإمام دون تردد:

- إنهم بهذا يدعون إلى الفرار من مواجهة العدو، يا سلطاني !

وقفز السلطان من مكانه:

- كيف هذا الكلام؟

- إنني أقول ما أعرف أنه الحقيقة.

- أنت على حق، ولكن أليس هنالك من وسيلة أو حيلة في الغالب؟

- لماذا؟ يا سلطاني؟ لماذا نريد الفرار من أمام عدو لم يأت بعد لمواجهتك وجها لوجه؟ سيما وأنت تشتبك معه في قتال. فماذا سيظهر الله تعالى؟ لربما يفر "جنكيز خان". هل هذا واضح؟

- إنهم يقولون إن "جنكيز "أكثر قوة.

- لقد تواجدت معهم لسنوات طويلة. إنه قوي، وشجاع، ولكن ليس في مثل كثرتكم. إنه يواجه الأمر بالشجاعة. وفي حال أمكنكم إظهار نفس الشجاعة، فلن يكون هنالك من سبب للهزيمة. لقد طعمت من طعام هذا البلد، وشربت من مائه. وأنا مدين له بالفضل. وأنا شخصيا على استعداد لأن أفعل ما يفرضه علي شعوري. إن تلك الأرض ارتوت بدماء المسلمين، يا سلطاني، إن هذه الأرض تستحق منا أن نبذل الدماء من أجلها مرة أخرى.

كان كلام الإمام معقولاً. والواقع أن فكرة الخروج من المدينة لم تكن لتمحوها أي شيء. فقال:

- لأفكر.

وخرج "قاضي زاده". وأصبح السلطان وحيدًا مرة أخرى، كان يفكر طويلا طويلا، وفي النهاية استدعى "طونگچ" مرة أخرى. وتباحثا من جديد. وتحدث "طونگچ خان" بطرق مختلفة في مسألة مغادرة المدينة وتركها. كما بحث في مسألة الموت. وأصابه بالخوف. حتى رضي بالخروج والذهاب.

بينما اجتمع مئات الأشخاص واستعدوا للموت من أجل الدفاع عن "سمرقند"، فإن السلطان "محمد" الذي كان يلزم تواجده على رأس هؤلاء ترك المدينة في منتصف النهار آخذا المحافظين من خلفه. وعندما يفر القائد فماذا كان سيفعل الجند؟ كان "جلال الدين" يسير خلف والده، وفي الوقت ذاته كانت عيناه كعينين مصنوعتين من الدموع من شدة بكائه. ونظر إلى "سمرقند" للمرة الأخيرة. وأخذ يمسح الدموع التي غطت وجهه بظهر يده. وقيل بتمرد:

- ولكن لماذا؟ لماذا نفر من القتال؟

لم تكن الجبال والحجارة لتتكلم حتى تعطي الجواب. أما والده فكان صامتًا وكأنه كان قد أقسم على ذلك.

***

- لقد سقطت "أترار"...

- سقطت "أترار"...

- وقعت "أترار" في أيدي قوات جنگيز...

- لقد قتل "اينالجق خير خان"...

ذاعت الأخبار وانتشرت الصيحات في أزقة وشوارع "بخارى". وتضاعف القلق والاضطراب العام، كما ارتفع الشعور بالثورة قليلا. كان كل شخص يسأل الآخر عن حقيقة المسألة:

- كيف حدث هذا، كيف؟

- لقد شوهد الفرسان الصغار ذات مرة أمام نبع المياه. وأيضًا مرة في داخل المدينة... وقاموا بقتل كل شخص. وكانوا يلقون بكل من تصل إليهم أيدهم على الخازوق.

- هل تقول الصدق؟ كم هي وحشية!

- لا ينتظر من المتوحشين سوى التوحش، ولكن هل لي أن أقول لك شيئًا، يا صديقي، إننا نستحق هذا.

- ما الحل، إذا جاءوا إلى هنا، ماذا تقول؟

- في القريب العاجل...

- ياه !...

- ولكننا سوف ندافع عن مدينتنا حتى آخر قطرة من دمائنا.

- هل إلى آخر قطرة من دمائنا، ولماذا؟

- هل هنالك من لماذا؟ إنها بلادنا.

- أليست هي بلاد شاه خوارزم "محمد"؟

- إنها بلاده أيضًا، طبيعي...

- وإذا كان الأمر كذلك، فلماذا هرب؟

- سوف يهجم على العدو، وربما أيضًا...

- وعلاوة على ذلك فإنه ساق من خلفه خمسين ألفًا من الجنود. كان يفكر ويخطط للهرب، ولم يكن يفكر قط في مقاتلة العدو، كم هو شيء محزن!..

- إن مهمتنا هي مقاتلة العدو.

- صحيح، إننا قد قُضي علينا، كما حكم بالموت على الجنود الذين قادهم قادة غير لائقين وغير جديرين بمناصبهم.

كان كل شخص يطلق أفكاره. ولم يكن هنالك من شخص يستمع جيدًا إلى شخص آخر. كان كل واحد يسعى لأن تحكم أفكاره هو وتؤثر على العامة.

استمر اجتماع بكوات بخارى لفترة طويلة. ولم يتمكنوا من الوصول إلى أي نوع من القرارات. وتفرقوا على أن يجتمعوا في اليوم التالي.

كان اليوم التالي يوم جمعة. وبعد أن أدوا جميعًا صلاة الجمعة جماعة، أخذوا يؤمنون على الأدعية التي كان يدعو بها الإمام من مجامع قلوبهم، ثم ذهبوا بعد ذلك إلى صالون الاجتماع.

وبدأ "نيشابور خان" الحديث:

- أيها الخانات الكبار، أيها البكوات العظام. نحن كمسئولين عن بلادنا "خوارزم" اجتمعنا ها هنا. وبالأمس وصلنا خبر سيء. لقد سقطت "أترار". لقد تم الدفاع عنها بكل بطولة، ولكنها لم تتحمل كثيرًا أمام قوات كبيرة. لقد أحرق جنگيز المدينة الكبيرة. وحولها إلى خرابات. ولو دخل "بخارى" غدًا بالحرب أيضًا، فلسوف يفعل الشيء ذاته، بيد أن هذه المدينة يجب أن تعيش. إنها مركز العلم،

وملجأ العلماء، ونحن مضطرون لأن نبقيها على قيد الحياة، لقد غادر سلطاننا بلادنا تلك لأنه يثق فينا. لقد ذهب لكي يلم شمل الجيش ومن ثم يضرب "جنگيز". والآن أنا أقول رأيي الشخصي. ليس هنالك من طريق سوى طريق واحد لكي نمنع جنگيز من تخريب المدينة: إنه...

ثم صمت لفترة. كان يعطل الكلمة الهائلة التي سوف يقولها. وكأنه كان يخشى من أن تتحطم شفتيه. وفي النهاية تكلم:

- علينا أن نسلم المدينة...

- ماذا؟

أحدثت الكلمة صدمة على قسم من البكوات. وقفز عجوز هرم ذو لحية بيضاء من مكانه وكأنه شاب قوي، وقال:

- هل تعي ما تقول؟ أم أنك تتسبب في أحداث مهانة كما فعل بعض القپچاق؟

ونظر "نيشابور "خان القپچاق وكأنما يقرأ الساحة، وقال:

- أنا أعي تمامًا ما قلته أيها الرجل العجوز. أنت ثائر كشاب غر. إن الدماء الحارة تفور الآن في عروقك، ولذلك تقول أشياء لا لزوم لها.

احمر وجه العجوز كثيرًا. وتوجه إلى البكوات:

- انظروا أيها البكوات!إنهم يريدون تسليم بلد هو الذى أكسبكم شأنكم هذا في يد الأعداء، أما أنتم فتلتزمون جانب الصمت.

- إطلاقًا !...

- هل هنالك من وسيلة أخرى؟

وصاح العجوز بحدة:

- توجد...

- قل ما هي؟...

- سوف نقاتل – حتى آخر قطرة من دمائنا...

- أنت لم تع أصلاً ما تقول، أو أنك لا تعرف "جنگيز خان" جيدًا.

- لم يُر أبدًا أنه عفا عمن ثار ضده. لقد تعرفت على "جنگيز". ورأيت عن قرب كم هو إنسان ظالم. إنه بعد أن يطأ البلد بأقدامه فإنه يحطم ويسلب كل شيء وكل مكان. إنه يقوم بقتل كل من يقع تحت يديه، كما أنه يخرب المدينة بأكملها. هل نحن نريد ذلك؟

كان الرجل المسن يرتعش من الغضب؛ فقال مزمجرًا:

- ماذا تقول؟ لماذا تبحث عما بعد الاستسلام؟ لماذا لم يرد بذهنك القتال؟ إن "بخارى" مدينة قوية وسليمة. ولها قلاع لا تنهدم بسهولة، إنها ترفع من معنويات جنودنا. هل يأتي بعقلك الاستسلام على حين يتواجد كل ذلك؟ أليس ذلك في حد ذاته إهانة؟

– ليس هنالك من وسيلة أخرى...

ومسك الرجل العجوز "نيشابور خان" من ياقته بغاية الشدة، وقال له:

– أيها الـــ!... لو كان هنالك من فجور لكان قد انطوى على نفسه، إنني لا أسمح بحياكة جورب على رأس أمة.

وانتفض "نيشابور خان ":

– اسحب يدك، أيها العجوز، هل تريد أن آمر بقتلك؟

– يا ليت... ليتني كنت قد مت قبل أن أسمع مثل هذا الكلام. كم هو مر!أن تُسقط إهانة على بلد أكلت من خيراتها سنوات طوال...

– إنني أقبل الحقائق وحسب.

– حقيقة أن تستسلم للعدو دون إطلاق حتى ولو سهم واحد.. ها!...

– حقيقة، طبيعي. لو تم إطلاق سهم واحد ففي المقابل سيدفع آلاف من الناس حياتهم ثمنا، فما هي الفائدة من وراء ذلك؟

ونظر العجوز إلى وجوه الحاضرين واحدًا واحدًا ورمقهم بنظرات التصغير والتحقير؛ وقال:

– من لا يعرف أنه يصير إلى الموت، لا يستحق الحياة.

وغادر الاجتماع بخطوات جامدة.

كان معظم خانات القبچاق في ناحية الاستسلام. وفي المقابل، كان قانات التركمان يرغبون في القتال حتى آخر قطرة من دمائهم. وثار الخلاف فيما بينهم وفي النهاية قام جمع من التركمان بغلق القلعة من الداخل بقوة قليلة. وإذا لم يكن من ذلك بد، فلسوف يدافعون عن تلك المنطقة، حتى الموت، ولا يدعوها تقع في يد "جنگيز ".

وقد أقسموا على ذلك وهم يضعون أيديهم على القرآن الكريم.

***

القسم العاشر

كان "تيمور ملك" متضجرًا متململاً. كانت تلك المصيبة هي مقدمة المصائب التي يقشعر منها الإنسان من صميمه. لم يكن ليستريح في مكان قط. فبعد هجومه على "جنگيز "توجه مباشرة نحو قلعة "خوجند "وأخذ بزمام القيادة في يديه.

كانت أعداد جنوده قليلة. ومع ذلك لم يكن ليهتم بذلك كثيرًا. كان يقيم على شاطئ نهر "خوجند". ومن ناحية فإن النهر الذي يفيض بالمياه كان يلتف إلى الناحية الأخرى من القلعة وهو ينحني ويلتوي. وكان يعلم أن "جوجى خان" الابن الأكبر لجنگيز كان يقيم بالقرب منه. وكان قد اتخذ الاستعدادات لمواجهة كل الاحتمالات. ولقد قام بتثبيت رماة السهام في القسم الملاصق لأرض "خوجند" كما أقام فيها المنجانيق.

كان الجو مضببا. وكان المساء قد أرخى سدوله. والآن كان "تيمور ملك" يؤدي صلاة المغرب في أحد أبراج القلعة، وبعد أن تضرع إلى الله كثيرًا كثيرًا، خرج ليتفقد الأبراج.

كان الحراس يستمعون إلى نكاتة. وكانت معنوياتهم مرتفعة. كان من الضروري إدخال السرور عليهم. ولكن في داخله كانت الهموم تثقله.

وحينما سمع بسقوط "أترار "وبأن السلطان "علاء الدين محمد "قد تشوش على الخسائر التي مني بها مع حاشيته ارتجف فؤاده فجأة ودعا إلى إغلاق الغرفة عليه من أجل أن يبكي ولأنه لم يرد أن يبكي في وسطهم. لقد بكى بشدة وحرقة وهو مستغرق وحده. بكى كما لم يبك أبدًا في حياته. رفس مضجعه المصنوع من الصوف، قذف في الحائط بمزهرية صينية غير عابئ بقيمتها، وكان ذلك من شدة غضبه التي وصل إليها.

ماذا كان يحدث لو كان السلطان قد قام بالهجوم؟ ماذا كان يحدث لو لم يصب بالقلق؟ ماذا كان يحدث لو لم يكن يستمع إلى خانات القپچاق؟

كان مهموما. وكان كل ذلك يصيب "تيمور ملك" بالسأم...

وبينما كان يمر بجانب أحد الحراس، سأله عن أحواله:

- كيف حالك، يا أخي؟

ونظر الحارس وهو يرف بعينيه. فقد تعرف على قائد القلعة، وحسن من هئيته:

- أدعو لكم، يا سيدي.

- لتكن داعيا للأمة.

ثم سار في طريقه. وظل الحارس ينظر إليه من خلفه بدهشة. وأخذ يتحدث إلى أصدقائه ويشرح لهم ما حدث.

نظر "تيمور ملك" إلى الأفق. كانت كل ناحية تلوذ بالصمت، ولكن كانت هنالك بعض الأحداث ستقع. لم يكن ينخدع بأحاسيس. ترى هل يبادر بالتصرف أولاً ويقوم بهجوم؟ ولكنه لم يكن يعرف أين يوجد مكان العدو بالضبط. وثاب إلى عقله. ونزل على وجه السرعة. وأمر بأن يعدوا له حصانه. ثم وجد "صارى لاگود":

- هيا بنا، نحن ذاهبون.

ولم يتكلم "صارى لاگود" ولا حتى بالسؤال. إنه كان يضع نصب عينيه من فترة طويلة السير من خلفه حتى لو أدى ذلك به إلى الموت، وحتى لو أنه سأل فماذا عساه سوف يفعل؟

ركبا حصانيهما. وخرجا من القلعة بسرعة. وعبرا الصحراء الخالية من الأشجار. وتركا المنطقة الواقعة في الغابات خلفيهما. وأسرع "تيمور ملك" بالعثور على بغيته:

- انظر هنالك!

ونظر "صارى لاگود" بدقة إلى المكان الذي أشار إليه. كان كمن لاحظ وجود ومضات. تُرى هل كانت تلك الأضواء هي لنيران اشتعلت ثم بدأت تخمد؟ أجاب بكلمة واحدة:

- رأيت.

- إنه "جوجى خان".

- من؟

- "جوجى" ابن "جنكيز"، ها هو قريب منا إلى هذا الحد.

وجز على أسنانه، وصوب قبضتيه نحو المعسكر:

- "أترار" المسكينة الجميلة، لقد سقطت في أيدي الأعداء هه!... لقد خربوها وأحرقوها، ولم يبق حجر على حجر. ومن يعلم ماذا حدث لـــ "أينالجق خير خان" وكيف تمت عقوبته حسب الأصول التي اعتمدها جنكيز؟ هل أجلسوه على الخازوق، أم صبوا في أذنيه الفضة المصهورة؟ إن من عاداتهم قتل البكوات المعتبرين بمثل هذه الطرق. وهم يخطون ويعبرون من أمامه ومن ثم يقهقهون. وإذا كان من أراذل الناس فإنهم يلقونه لنمورهم. شيء مخيف!...

- جدًا...

- ماذا تقول في الهجوم عليهم؟

لم يتردد "صارى لاگود"، وقال:

- أنا أصل إليهم.

- وأنا أيضًا...

وعادا أدراجهما. كان الجنود على أهبة الاستعداد بأنفسهم. وأصدر أمرًا قصيرًا:

- كونوا ألف شخص من الفرسان.

وغادروا القلعة على وجه السرعة. وعبروا من الغابة وهم يبذلون قصارى جهدهم كيلا يصدروا صوتًا. تم ربط أرجل الخيول باللباد حتى لا يُسمع أصوات حوافرها. كانوا يتقدمون صامتين كجيش من الأشباح.

وأوقف "تيمور ملك" الخيول فوق مرتفع يطل على المعسكر. وأخذ في تنظيمهم صفوفًا. وقسمهم إلى مجموعات كل واحدة من مائة شخص، وكان على "صارى لاگود" أن يقوم بالهجوم أولاً من الذراع الخامس. كان سيقوم بالهجوم بعد نصف ساعة من تلقاء نفسه. ومهما يكن من كم الذين سيمكنون من كسرهم، فإن ذلك كان كسبًا ونصرًا. إنهم كانوا سيجربون.

وربت على كتف "صارى لاگود "وقال:

- عليَّ أن أراك، وعليك أن تضيف نصرًا جديدًا إلي كل ما حققته حتى الآن. فلا حد لعظمتك وكبرك.

كانت عينا "صارى لاگود" تضحك من الداخل:

- لقد أخجلتموني، يا "تيمور ملك". إنني أشكر الخالق عز وجل على الليلة التي صادفتك فيها. إنني ذاهب الآن وسأكون في شغل من سلب ما نصادفه. وعانق أحدهما الآخر.

- لتكن حلالاً عليك...

- ليكن الحلال هبة، ولتكن هي الأخرى حلالاً عليك!..

- أنت صاف مثل لبن الأم الأبيض...

وتقدم "صارى لاگود"على رأس الفريق، وقال:

- سيروا، يا أسودي! ولننزل على رأس "جوجى" مثل الصاعقة!.

وعرجوا على المعسكر.

وكان "جوجى خان" يجلس في خيمته وهو مشغول بالشراب. وكان قد جمع قادته كان يتحدث إليهم من ناحية، وكان من ناحية أخرى يسعى إلى رسم إستراتيجية الحرب.

تناثرت الصيحات الحادة واختلطت بصلصلة السيوف. ونظر "جوجى خان" إلى البكوات وهو يزر عينيه؛ وقال:

- ماذا يحدث؟

ومال أحد الجنود إلى الداخل، وقال:

- لقد هوجمنا!...

وقذف "جوجى" بكأس الشراب الذي كان مصنوعًا من الجماجم، وسأل بغضب:

من ذاك الذي واتته الجرأة؟

لا نعلم.

وأدار عينيه التي يطق منهما الشرر إلى قادته، وقال:

- احشدوا قواكم، وكونوا على رأس جنودكم، ولا تروني وجوهكم إذا تركتم أحد القرصان سليمًا !

- وركب فرسه الخاص. وذهب إلى وسط القتال الدائر في وسط الظلام.

- اعزفوا على بوق التجميع! ليس هؤلاء مجرد مجموعة من المشتغلين بالسلب، إنهم قوات منظمة.

وأطلقت نعرة:

- ابتعدوا حماية لأنفسكم!...

وأطلق "جوجى خان" ضحكة مبحوحة، وقال:

- التركمان. خدم خوارزم!...

وصاح بقدر استطاعته:

- لا تتركوهم سالمين، أيها الأسود المغول، اضربوا !

وارتفع صوت "صارى لاكود" هو الآخر عاليًا، وقال:

- لا تأبهوا لحظة واحدة بتلك المصائب الصفراء، يا إخواني، أقتلوهم !...

واختلطت الأصوات بعضها ببعض: صليل السيوف مع صهيل الخيول، مع الأنات، مع السلب والشتم.

ومن آن لآخر كان يرتفع نداء "الله! الله!".

ومن آن لآخر كانت تصدر نعرات "لو !.. لو !.. لو !..

كان "تيمور ملك" يراقب الموقف من فوق المكان المرتفع. ولكن لم يكن هنالك من شيء يمكن أن يراه وسط الظلام. ومع ذلك فقد فهم أنه في الطريق للذهاب إلى العمل من خلال الأصوات المنتشية التي كان يصدرها أصدقاؤه.

وعندما حان وقت اتخاذ القرار، أصدر أوامره إلى رجاله:

- يا الله... إلى الهجوم !....

ونزلوا من المرتفع. وأخذوا يطلقون صيحات الحرب "الله الله!"... ومن ثم انضموا إلى إخوانهم في القتال فأخذوا يكبرون "الله أكبر الله أكبر"... وتحيرت قوات "جوجى خان" ودهشت وتخبطت. كانوا يظنون أن الأعداء كثير من الغاية ولم يكن من الممكن تحديد عددهم في الظلام. وصاح "جوجى خان" بقدر المستطاع:

- انسحبوا؛ انسحبوا !...

- وبدأوا في الانسحاب وهم يتقاتلون. ولم يضيع "تيمور ملك" أي جزء من الوقت في الجري وراءهم.

- سيروا، فالنصر حليفنا...

لم يأخذوا أسرى. وإذا ما أخذوهم فأين كانوا يضعوهم؟ وكذلك كانت بطون هؤلاء خاوية. بيد أن القلعة لم يكن بها الكثير مما

يقتاتون به. أما أجولة الأرز التي وقعت في أيديهم فقد ربطوها في أرداف الأحصنة. ثم أشعلوا النيران في خيام المغول. وعادوا إلى القلعة والصبح على وشك أن يسفر.

***

كان ما بحوزة "جوجى خان" عشرة آلاف من الفرسان. بيد أن "تيمور ملك" كان قد قاتل بألف شخص. ولم يكن ليتعلم من هذا في وقت من الأوقات. كان يعتقد أن عدد جنود العدو كان كبيرًا. وفي الحال عقد مجلس الحرب. كان شاربيه يهتز من شدة الغضب، كما كانت عيناه يتحرك بسرعة. وزمجر قائلاً:

- أي شكل هذا العمل! الأعداء يدخلون حتى يصلوا بيننا، ونأخذ أخبارنا منهم من بعد. خمسمائة من القتلى، ومثلهم من الجرحى وقعوا في صفوفنا. لقد كنا في غاية الغفلة عندما ظننا أن الخوارزميين جبناء. كيف كنتم أيها القادة؟ وأين كنتم أيها الحراس؟ لماذا لم تفطنوا إلى الحدث في الوقت المناسب؟

لم يتلق أي رد. كان كل شخص يلتزم جانب الصمت خوفًا من بطش "جوجى خان". أما هو، فقد استمر في حدته، وقال:

- لقد حملوا معهم معظم قوتنا... وحكم علينا بأن نبقى في جوع. ابحثوا عن الحراس الذين كانوا في الخدمة ليلاً، واقطعوا رقابهم جميعًا.

والتفت إلى أحد القادة، وقال:

- أنت يا "اوگه دى نويان" Ugedey Noyan اختر هيئة من بين الرجال وأرسلهم في الحال إلى والدي. ولتخرج في عشرة آلاف من الجنود. ولتعد إلينا على وجه السرعة. وأعلن أننا سنغير على القرى المجاورة من أجل أن نحصل على قوتنا. وكل ما يصل إلي أيدينا هو فائدة. لا تتوقف، ونفذ كل ما قلته لك.

وقفز "اوگه دى نويان" من مكانه. وسار إلى داخل الجنود لكي ينفذ ما قيل له.

لم تخمد ثورة "جوجى خان". وكان يصيح بصوت عال:

- كونوا على يقظة، كونوا جميعًا على يقظة. إنني أعلم أنني مجنون إذ وثقت فيكم.

وكان يشير إلى باب الخيمة، ويقول:

- اخرجوا!...

* * *

عندما سمع "جنگيز خان" بهزيمة ولده، انحنى على الأكواب، وكان يجأر ويقول:

- ها... ى... يا ابني أيها الأحمق قليل الحذق!

كان يسير لبعض الوقت. وهو يفكر. ثم استدعى "بورقة" و"بورقة" Burka هذا رجل تترى طويل القامة جدا وذا جثة ضخمة. وسلم على القآن وهو يجثو على ركبتيه:

- جئتُ أيها القآن الكبير.

- لقد حالف الفشل ابني "جوجى" يا "بورقه". لم يستطع الاستيلاء على "خوجند" التي أقامها حفنة من التركمان. وهو يطلب مني المدد. فخذ معك عشرة آلاف من الفرسان واذهب لمساعدته. ولا تختلف عنه أبدًا. تعقبه وكن في أثر ابني دائمًا في كل مكان كما لو كنت ظله. في أي فصل من الحماقة هو؟. فيما عدا ما حدث كثيرًا، هنالك في الدنيا الأكثر. افعل مثلما تعلمت بعد أن تستولي على "خوجند".

وارتسمت على شفتي الرجل ابتسامة خبيثة، وقال:

- فهمت، أيها القا آن الكبير...

- خذ عشرة آلاف من الجنود واخرج بهم على الفور إلى الطريق...

ونهض الرجل، ودخل بين الجنود. وفصل الذين أرادهم. وسلم عليهم القا آن برفع يده حينما كان يتفرج عليهم وهم يخرجون؛ وأمر:

- إلى الأمام، تقدموا...

ونظر "جنگيز" في أعقاب "بورقه" لفترة من الوقت. كان يستخدمه لكي يزيحه من بين بعض قادة. وكان يصدق القا آن على هذا النحو.

لم يتأخر "تيمور ملك "عندما علم برغبة "جوجى خان "طلب المساعدة من أبيه. واتخذ قراره على الفور. وأخذ معه في هذه المرة ألفي فارس. وأقام الكمائن على الطريق الوحيد الذاهب إلى "خوجند ".

وانتظر لعدة أيام. ولكن في تلك الأيام التي انتظر فيها لم يحدث أي شيء. كما أنه بدأ يرى علامات نفاد الصبر على الجنود، وفي يوم وصل فيه الصبر إلى نقطة الانفجار، أتوا إليه بالخبر المنتظر:

- إنهم قادمون!...

وأثلج الخبر صدر "تيمور ملك" كثيرًا. فبعد هذا القدر من الانتظار كانت العودة بيد فارغة ستفسد الحالة النفسية للجنود. ووثب من مكانه. ونظر إلى "صارى لاگود" وهو يضحك؛ وقال:

- إنهم قادمون.

وداعب "صارى لاگور" سيفه، وقال:

- أهلا بهم، ليأتوا...

قام بإخفاء قواته في منطقة بها شجر كثيف على جانبي الممر. وجعل "صارى لاگود" مرة أخرى قائدًا على أحد الأجنحة. أما الجناح الآخر فكان سيقوده بنفسه. وظهر العدو دون لزوم لانتظار أكثر. ولكن "بورقه" تصرف بمكر ودهاء، فقد أخرج قوة الطليعة مكونة من خمسمائة فرد فقط.

وتكدر مزاج "تيمور ملك". فإذا لم يقم بالهجوم، فإنه من الممكن أن يُكتشف. وبعد أن تردد لبعض الوقت، اتخذ قراره:

- هيــ.. يــ... ــا !...

ووثبوا وسط العدو، في الوقت ذاته كان "صارى لاگور يتحرك بجنوده، قائلاً:

- تصرفوا... يـــ... ا... لله !...

وتحير الأعداء كيف يتصرفون. ودون أن يكون هنالك وقت لاستجماع القوى، أخذت سيوف التركمان تحصد الأرواح.

وبعد وقت قليل من حدوث نتيجة قاطعة، برز قسم كبير من قوات المغول. ولكن هؤلاء عندما علموا بما حدث لمن سبقهم، أخذوا في إعداد التدابير. كانوا يسيرون بنظام حربي. كانت المياه تسيل من أنف "بورقه" وكان يسير بحصانه في أول المقدمة. فأمره "تيمور ملك":

- عد أدراجك وانسحب.

ووصل الهجوم حتى المياه، ولكن فرقة العدو التي في الطليعة كانت قد أبيدت بأكملها. فانسحبوا بسرعة وهم يأخذون بمقود أحصنتهم. وبسبب إصابة حيوانات المغول بالتعب فإن الوقت لم يكن كافيًا للتركمان، فدخلوا القلعة للاستراحة. وصوب "بورقه" القائد المغولي قبضته نحو القلعة، وصاح قائلاً:

- سأعمل فيكم السيف جميعًا. ثم ذهب عابس الوجه إلى مجلس "جوجى خان".

* * *

انكب أهل بخارى هذا الصباح أيضًا إلى الشوارع من الصباح الباكر. واستمر السكون هو الحاكم في المدينة لفترة طويلة من الوقت بلا معنى ولا عمق. كانوا يعرفون أن جنكيز وجنوده على مقربة منهم. وحتى بدأت تُرى بعض الجماعات من الأعداء في ضواحي بخارى.

والآن أصبحت الأسواق لا تقام، كما أضحت المعارض لا تُفتح. وأصبح الناس لا يبيعون ولا يشترون. كانوا يخفون بعض القروش من أجل الأيام السيئة. كانت الأيادي تفتح من أجل إعاشة الأشخاص والجنود من ذوي العزيمة لحماية المدينة، وكانوا لا يستطيعون أخذ قرش واحد من تلك النقود التي جمعوها. كان الأغنياء في ألم على نقودهم، وكان الفقراء في ألم على أرواحهم، كما كان هنالك ممن يألمون على وضع البلاد بحق. كان هؤلاء يخرجون من بين الناس، وكانوا يرغبون في تقديم المساعدة من أجل الدفاع عن البلاد.

كان الدرويش المجنون يقوم بالوثب إلى اليمن وإلى اليسار ملوحًا بجبته المرقعة، وكان يخفق هنا وهناك من أجل جمع المساعدة التي لا تفي حتى لجزء من قدميه الحافيتين.

وصادف "حاجى زياد" وهو من أغنياء بخارى، وقال له:

– حضرة السيد. ليس هنالك من قوت يقتات به الجنود الذي يدافعون عن المدينة. حبذا لو تقدمتم ببعض المأكولات أو بضعة قروش...

نظر إليه "زياد" شذرًا. وهز يده كمن يطرد ذبابة حطت على طرف أنفه، وقال:

- الله يعطيك.

ولم يذهبِ الدرويش، وقال:

- إنهم يطلقون علي اسم الدرويش المجنون. ولقد مكثت في السجن في "أترار" عددًا من السنين. ولقد ذقت من نقمة هذا البلد الأذى الكثير. ولكن المسلمون ينتظرون الخلاص. لقد رأيت احتراق "أترار" وشاهدت بدهشة قتل "أينالجق خير خان". لقد شهدت إعمال السيف في المسلمين. وأقسم بالله أنني الآن لا أفكر في شيء سوى الموت. لقد رميت بنفسي أمام المغول. وعصرت بيدي رقبة من صادقني. حاولوا خنقي وضربي، وجرحوني، ورموا بي خارج المدينة وقالوا إنه قد مات. ولكنني لم أمت. عليَّ اللعنة، إنني لا أستحق حتى الموت. وجئت إلى بخارى. وفي هذه المدينة كما في "اترار" لم يكفني أن أقع في أيدي العدو، كنت أحسب الموت غنيمة. تعال، وساعدنا، أنت لا تعي أنه سيقذف بك في النيران. إنك لا تعرف ظلم المغول. فإذا ما جاءوا، فلن يبقى مالك، ولا حتى شرفك!...

كان "زياد" يتمتم:

- إذهب من رأسي أيها...

- إنك ذاهب إلى الموت، وأنت لا تعي ذلك، أنت تستعد بمحض إرادتك للمصائب دون تخمين، أنت واقع في الغفلة...

- هلاَّ انصرفت؟

- لماذا؟ أنا طلبت نقودًا فهل ذلك أغضبك؟ إن أردت لا تعطيني. ومرة أخرى، تعال، وانضم إلينا. ففي داخل القلعة يوجد آلاف ممن هم على دينك. فلتدافع معهم عن المدينة...

- أنا لست جنديًّا. أنا تاجر.

- إذا كان الأمر كذلك فلتجعل الأمر متناسبًا مع وظيفتك، اجعل المساعدة بالأموال واجعل المساعدة بالمأكولات.

- إذهب أيها الرجل!...

وفتح الدرويش يديه إلى السماء، وقال:

- يا رب، عبدك هذا وأمثاله ممن لا يأبهون بسحق الوطن من أجل راحتهم والذين لا يليق بهم أن يكونوا أصحاب وطن، احفظ البلاد التي أذابت هذا الشعور بداخلهم من الأعداء إجلالاً للماء والوجوه...

ثم صوب إصبعه نحو زياد، وتابع:

- يا رب، إن هؤلاء لا يعرفون ما يصنعون.

احتد "حاجى زياد" بشدة. كان بإمكانه أن يتقبل أي شيء، ولكن لم يكن يتحمل أن يوصف بالغفلة. فقفز محتدًا، وصاح قائلاً:

- بالله سوف أدوس عليك! إليك عني وإلا سحقتك!

وقابله الدرويش بصوت منخفض قائلاً:

- قريبًا سوف تُسحق وتُداس، أيها الغافل!

ثم ابتعد.

كانت الشوارع مليئة. وكان يداوم على التسول. والنقود التي كان قد جمعها حتى المساء لم تكن لتصل حتى تملأ راحة اليد. أما القمح، فلم يكن ليصل إلى نصف الجوال الصغير الذي كان يحمله على ظهره، وعاد إلى داخل القلعة وهو يشعر بالسأم والضجر. وسعى لمقابلة القائد:

- لا تفقد شجاعتك. إن هؤلاء ما هم إلا قطيع من الغافلين، وقطيع لا يعرف ماذا عليه أن يفعل...

وهز القائد رأسه، كان وجهه يفيض بالألم. وجاء صاحب الأخبار بعد نصف ساعة وهو يحمل معه أنباء قيام المغول وانشغالهم بإقامة المعسكر. وبدأ الهلع والرعب يسيطران على المدينة تماما. كان قسم من الناس يريد القتال، وقسم آخر يريد الاستسلام. والذين يرغبون في الاستسلام كانوا يحتجون بأن إدارة شاه خوارزم لمن تكن عادلة، وكانوا يدعون بأن حكم جنگيز لن يكون بأمر من حكمه. أما الطرف الأخر، فإنهم كانوا يقولون مع أن الإدارة كان يشوبها القصور لكنهم على وعي كبير بالفرق بين مسلم وعابد للأوثان، كما كانوا يقولون إن ظلم المغول قد غطت شهرته الآفاق.

كان الأبطال الذين في داخل القلعة، في إمكانهم جمع الجند من بين الشعب ليصل إلى خمسة آلاف. كان بعضهم – استعدادًا للهرب يهدي إلى الأبطال خيولهم غير الصالحة للعمل، وذلك مع اقتراب جنگيز السريع منهم. وخرج من القلعة خمسة آلاف فارس بعد منتصف الليل بقليل. انطلقوا إلى معسكر المغول.

كان المغول في زحام، ولكنهم لم يكونوا يعرفون عدد الأعداء الذين هجموا عليهم. وعلاوة على ذلك كانوا منهمكين. وبالرغم من كل ذلك، كان يلزم قتالهم. غير أنهم لم يفعلوا ذلك. لقد غادروا المعسكر كما كانوا قد وثبوا على خيولهم الصغيرة.

وقد عد "اينانچ خان" قائد بخارى مسألة تعقب الأعداء في غير محلها. لقد أصيب بهوس الاستحواذ على المواد الغذائية التي تُركت في الخيام لأنها كانت قليلة لإطعام الجنود. وأصدر أوامره إلى الجند بهذا الخصوص.

وجمعوا ما يأكلونه حتى الصباح، وحملوا الخيول. وساروا على طريق بخارى وهم يسيرون على الأقدام، على حين كانت الشمس على وشك الشروق.

وبدا من بعيد مقدمة عاصفة من التراب. وكلما ساروا كانت تزداد كبرًا وانتشارًا. وتعجب "اينانج خان". هل انسحب الأعداء؟ أم أن القادمين هم من الأصدقاء؟

ولم يستمر شغفه كثيرًا. لقد بدا الفرسان الصغار وظهروا. كان أبطال بخارى مترجلين. وبالرغم من ذلك قاتلوا مثل الأسود.

ومع ذلك لم تكن خلفية المغول لتنقطع. لقد تجدد الهجوم دون توقف مع صدور النعرات التي تقول: لو !.. لو !.. لو !..

كانت حربا دامية. وامتلأت ساحة القتال بجثث الإنسان والحيوان. وتمكن عدد صغير جدًّا من المدافعين من الوصول إلى المدينة. وقاموا بإغلاق أبواب القلعة عليهم بإحكام شديد.

***

القسم الحادي عشر

أصاب مقتل معظم جنود "ايناتج خان" البالغ عددهم خمسة آلاف، ومن ثم عودة القليل جدًّا منهم إلى بخارى - أصاب أهالي المدينة بالذعر والخوف الشديدين. وقد تم عقد اجتماع للحرب باجتماع الذين كانوا قد عادوا من أبناء الشعب. وقاموا بالبحث في قوات العدو دون أن يتوقفوا عن الخطأ العسكري الذي ارتكبه "إينانج خان"، وطبقا لما ذكروه فإن جيش جنكيز كان في كثرة حبات الرمال التي على المرتفعات، كما أنهم في كثرة النمل الذي يسير على الأرض، وقطعوا بأنه من غير الممكن إلحاق الهزيمة بهم في نهاية الأمر. فهل من الممكن الوقوف في مواجهة العدو الذي أقسم بأن يعمل السيف في جزء كبير من فدائيي بخارى البالغ عددهم خمسة آلاف فرد؟

وفي مقابل هذا، كان هنالك من محبي الوطن الذي كانوا يقفون في صف عدم التسليم دون الدفاع عن البلد مهما كانت النتيجة. كانوا يقولون بأنهم يفضلون الموت على أن يروا جنود جنكيز وهم يخربون بخارى...

لم يستريحوا. وقد مالت كفة الذين كانوا يرغبون في الاستسلام. لبس هؤلاء الملابس المزركشة وقاموا بتجهيز قافلة مثقلة بالهدايا. لقد خرجوا من المدينة من أجل أن يعلنوا إلى جنكيز بأنهم راضون لتسليم المدينة بشرط أن يؤمن حياتهم ولا يقتلهم.

أما الآخرون، فقد التحقوا بحفنة من الفدائيين الذين كانوا في القلعة الداخلية من أجل الدفاع عن المدينة حتى آخر قطرة من دمائهم.

كانت الأرض تفوح برائحة الربيع. واختلطت روائح الأزهار التي بدأت في التفتح مع روائح الأعشاب البرية على مدى الطريق. وكانت خيمة جنكيز خان الصفراء تلمع تحت أشعة الشمس.

وبدأ عام ١٢٢٠ بالمصائب، كما كان سيستمر مع المصائب. كان هنالك استعدادات لفتح الاثني عشر بابًا الخاصة بمدينة بخارى – تلك المدينة التي كانت تسمى "روح المسلمين" وأكثر بلاد الدنيا تقدمًا وأكثرها عمرانا – أمام فرسان العدو للدخول منها.

كانت الشمس تظل وكأنها تبكي على حال المسلمين هذا. من أين جاءوا وإلى أين، وعلى أي الأحوال سقطوا.

كان الدرويش المجنون يفكر.

حينما كانوا يتحركون في وحدة واتحاد – كم كانوا آنذاك أقوياء لا يهزمون. ثم صاروا قطعا قطعًا. وكلما تقطعوا كان العدو يتحد، كما كانت قوة جنگيز تزداد باضطراد.

لو جاءوا من زاوية الوحدة فلسوف يكون التوفيق حليفهم. ولو تولد الاختلاف من القوة، فسيكون الحكم بالهزيمة، إن هذا قد سُطر في صفحات التاريخ كقاعدة لا تتغير.

وحينما وصل وفد بخارى إلى خيمة "جنگيز خان "لم يكن عدد الذين انتابهم الشعور بالندم من بينهم قليلاً. ولكنهم كانوا قد دخلوا إلى هذا الطريق للمرة الأولى، كان ذاك هو أحسن الطرق للسعي من أجل جني التعويض الذي يمكنهم أن ينتزعوه.

قابل الوفد "دانشمند حاجب" عند باب الخيمة، وأحضرهم إلى حضرة "جنگيز". ووضع ركبتيه على الأرض أمام القاآن بصورة جادة، وقال:

- أيها القاآن الكبير... إن ممثل أهل بخارى في حضرتكم الآن وهم يمرغون وجوههم عند قدميكم.

وأسفرت شفتا - جنگيز - الذي كان نادرًا ما يبتسم - عن ابتسامة إذلال وقال:

- لقد أسفرت الغارة عن ثلاثمائة بطل.

كان صوته يشبه الثلج. وشعر أعضاء الوفد بأنهم يرتعدون، ونظروا إلى بعضهم البعض بيأس وقنوط، وقد أبدى أكبرهم سنا قدرًا من الشجاعة وبدأ في الكلام:

- أيها القاآن الكبير. نحن ممثلى أهل بخارى. إن قلعة مدينتنا مرتفعة للغاية، كما أن حوائطها قوية ومتينة. وعلاوة على ذلك هناك في داخلها أبطال على استعداد للتضحية بأرواحهم.

وسأل جنگيز خان بصوت يثلج عظام الإنسان:

- أمن أجل هذا تريدون الاستسلام؟

وكأن رئيس الوفد لم يسمع. فاستمر يقول:

- إن زادنا هو الآخر كثير. ومهما كان لديكم من جيش يمتلك قدرًا كبيرًا من الحماسة، فإنه يلزمكم محاصرة المدينة عدة سنوات حتى تتمكنوا من الاستيلاء عليها. ولكننا لا نريد إراقة الدماء بلا طائل. لقد جئنا لتسليم المدينة ببعض الشروط. نحن مضطرين للتفكير في الأطفال الأبرياء.

وهمهم جنكيز خان، وقال:

- قل شروطكم، أيها العجوز.

- لن تتدخل في شئون شعب المدينة، وسوف تطلقون حريتنا في شأن ديننا.

ونظر جنكيز خان إلى الوفد واحدًا واحدًا. ومد يده جانبًا؛ وأخذ كوب الشراب الذي مده إليه عبد صيني. واستدار في انتصاب، ثم سأل سؤالاً أدهش السفراء كثيرًا:

- هل تشربون؟

وأجاب الجميع في اشمئزاز وفي نفس واحد:

- لا.

وجعد من وجهه، وقال:

- إذا كان الأمر كذلك فإن ديننا لا يمكن أن يتطابق مع دينكم. وأنتم تريدون الاستسلام. وأنا أقبل. فقط لا يكون للمهزومين شروط. أو عليهم بقبول هزيمتهم سلفًا، تفتحوا الأبواب، أو نأخذ الحرب مأخذ الجد، ونخرج إلى الساحة.

وتمتم رئيس الوفد وكأنه يئن:

- إن حوائط قلعتنا سليمة ومتينة جدًّا.

واعتدل "جنگيز خان" في جلسته في حدة. وضرب بقدميه في الأرض بغضب، وقال:

- إن صحة وقوة قلعة ما تقاس بشجاعة المدافعين عنها. وأنا أرى أن هؤلاء المدافعين سيتلهفون على الاستسلام دون رمي ولا سهم واحد. اذهبوا وافتحوا كل أبواب القلعة. وسوف أقرر فيما بعد الحكم في شأنكم.

وبعد أن فكر للحظة، أضاف:

- وسوف أسعى إلى الاحتيال على شيطاني لكي يذعن قدر المستطاع في هذا الحكم.

وبعد أن ابتسم مرة أخرى ابتسامة خبيثة، التفت إلى الناحية الأخرى.

كانت المحاورة قد انتهت. وأخذ سفراء بخارى يعبثون في لحاهم، وكانوا ينظرون بدهشة. وبعد أن زال عنهم ذهولهم، أدركوا أنهم لا يستطيعون حتى مغادرة الخيمة.

ولو لم يسحب "دانشمند حاجب" زعيم القافلة من ذراعه، ربما كان قد وقف مكانه وبقى كما هو لساعات.

وحينما خرجوا رأوا أن الجو قد صار غائمًا. فحتى الشمس لم تكن لتتحمل النظر إلى هذا المنظر، ومن ثم أخفت نفسها خلف السحاب. وكانت السماء تستعد للبكاء.

حينما عادت القافلة إلى "بخارى"، أخذ الناس يتجمعون من حولها. ونظروا إلى وجوههم، وكان في الإمكان فهم ما كانوا سيقولونه، ومع ذلك أخذوا يتساءلون عن الموقف قائلين عسى أن يجدوا فيما يقولونه لهم ضوءًا من الأمل:

- ما الخبر؟..

- ماذا قال القآن؟..

- ألن يتدخل في أمرنا أو يزعجنا؟..

- ألن يحرق المدينة؟..

- ألن يخرب مساجدنا؟..

ألن يقبض على زوجاتنا؟..

وأخذ رئيس القافلة يهز رأسه في يأس وقنوط. وقد أجاب الجواب الذي الجميع ينتظرونه أصلاً:

- لم يأخذ على نفسه أيا من العهود...

ثم صدر صوت يعبر عن الذهول والخوف من أفواههم:

- يا.. ا.. !..

وحينما عرف الفدائيون الذين يغلقون أبواب القلعة الداخلية بالموقف، فإن عددًا من الرجال كان يرد على الناس ويحتشد بينهم. كان هؤلاء يقولون:

- الأعداء عديمو المروءة. لم يبقوا على تهديد لم يسوقوه. لقد عبروا عن القرار الأخير الذي اتخذوه في حقنا. فلتذهب أرواحهم إلى الجحيم!إننا لسنا أغنامًا يضحي بها. كيف لنا أن نبتلع منظر شرابهم داخل مساجدنا. وكيف لنا أن نتحمل أن نرى بأعيننا زوجاتنا وهم يلاعبونهن؟ وكيف يمكننا أن نتحمل منظر أطفالنا وهم يضربون بالسيوف؟ أبدًا، أبدًا، إننا باستسلامنا نكون قد أعددنا بأنفسنا وبأيدينا مستقبلنا الذي سقط على رؤوسنا. لنتخلى عن هذا، ولنقاتل ولنمت برجولة. إن الموت أولى من الحياة بذل أو بإحناء الرأس، إن ذاك هو ما يليق بالإسلام والإنسانية..

ولكن لم يكن لهم أن يستريحوا، إن ذاك اليوم كان وكأنه قد تعلق ببصيرة كل شخص. كانوا لا يضمرون حتى ولو بطريق الادعاء أن جنكيز كريم النحيزة بعيد الشأو. كانوا يقولون:

- هنالك اثنان من خانات المسلمين يقفون مع "جنكيز خان". إنهما حاكم القارلوق "Karluk" "آرسلان خان" "Arslan Han"، وحاكم

الألمالق "Almalık" "صوغناق تكن" "Sugnak Tigin". وحتى لو أراد جنگيز أن يقتلنا بلا رحمة، فإن هؤلاء الخانات لن يقدموا له يد المساعدة. إن لديهما الكثير من العدد والكثير من القوة. ومن المؤكد أنهما سيلتزمان بحماية إخوانهم في الدين.

- مهما كان الأمر، ومهما قاموا بعمل، فإن من يلتحق بالأعداء وينضم إليهم لا يكون صديقا مهما كان. إن هؤلاء يجعلون استيلاء وسلب ونهب جنگيز، سهلاً وحسب. إنهم شركاء للظالم سواء كانوا يعلمون أم لا يعلمون. لا ثقة بهم. تعالوا، وعلينا أن نستسلم.

- أبدا، إن الاستسلام أفضل مما عداه، إن "آرسلان خان" هو مسلم طيب. إنه يؤدي الصلوات الخمس، وهو رجل دائم الخوف والتضرع إلى الله، وهو لا يقبل أي سوء بإخوانه في الدين. إنهم يكبحون "جنگيز"...

حينما كانت قطرات المطر الموجودة في السحاب الكثيف تتناثر على المدينة، كانت الأبواب الاثني عشر لمدينة بخارى تنفتح أمام فرسان الأعداء. كانت السماء تبكي، وكانت الملائكة تبكي، وكان أصحاب البصيرة يبكون. والذين لم يكونوا إلى جانب الاستسلام قرروا أن يقوموا ولو لمرة بالدفاع عن المدينة حتى الموت مهما تكن النتيجة، وتجمعوا في مكان يسمى "شهر ستان" Şehristan، وانسحبوا مرة أخرى نحو القلعة الداخلية. وأعدوا ترتيباتهم في جسم القلعة. وأخذ رماة السهام أماكنهم، كما استقر رماة المنجنيق في مواضعهم.

لم يدخل المدينة أي شخص في تلك الليلة. وكان الناس يمشون في الشارع ليلاً. كانوا يعيشون دقائق خوف وهم ينتظرون جنكيز وجيشه في كل لحظة. أما جنكيز خان فقد انتظر صباحًا خاصًا وكأنه يريد أن يعلن أنه قد انتشى نشوة كبيرة من هذا.

ومع انبلاج الصبح دخل مائة من فرسان المغول إلى المدينة. وبعد أن تفحصوا المدينة، أسرعوا بالعودة إلى القاآن وهم يطلقون صيحات النصر على هذا النحو:

- لو... لو... لو !...

وأعلنوا له الموقف. وقالوا إنهم وجدوا الأبواب مفتوحة.

أمر جنكيز بجمع الخيام. ولم يكن في عجلة من أمره. كان يعلم أن ذبيحته في انتظار السكين على كل الأحوال.

أخذ يقترب من المدينة رويدًا رويدًا.

كانت أفئدة الناس الذين يتفرجون على فرسان الأعداء من القلعة تخفق بشدة. وأما السيدات اللائي لهن أطفال صغار، فقد كن يرتمين عند أقدام الرجال ويقلن وهن يتوسلن:

- ماذا سيحدث إذا سلمتمونا إلى أيدي الأعداء؟

وكان الجواب الذي يحصلن عليه؛ هو هو في كل مكان:

- لا تقلقن، فـ "جنكيز" كريم النحيزة، ومعه اثنان من خانات المسلمين، ولسوف يقومون بحمايتنا...

عندما اقترب من المدينة، أمر "جنكيز خان" جيشه بالتوقف، ووقف بحصانه في وسطهم؛ ونادى:

- أيها المغول الأسود، ها هي بخارى التي لا تُهزم!لقد انكمشت على نفسها مثل الحيزبون من شدة الخوف، دون إطلاق سهم واحد. لقد فتحت لنا لنستولي عليها. فلتنقسموا إلى فرق كل منها مائة شخص. وليعمل كل فريق بإحدى المحلات وسيكون المركز لي، وفي كل مكان أحط فيه هو موضع استيلاء، ولتذهبوا إلى أي مكان شئتم دون خوف. هل فهمتم !

وجاء الرد المشئوم:

- لو !... لو !... لو !... لو !...

- اسمعوا. إنكم أحرار في السلب. ولسوف تقدمون لي أولاً أجمل فتيات المدينة فلا يمكن التخلص من هذا العرف الذي صنعته بيدي. ومن عداهم فهن لكم. ابدأوا بالهجوم، احرقوا، وحطموا! افهموا ماذا يعني الاستسلام دون قتال. إضافة إلى أن شجاعة العدو شيء مقبول.

- لو!... لو!... لو!... لو!...

أسرعوا... أ... أ...، وإلى الأما... ا... ا... م!

ضرب حصانه بالسوط. ومال عليه. ومن ثم انطلق فجأة. ورفع يده في الهواء وأخذ يشير إلى أبواب المدينة:

- الهجو... و... م، أيها الأبطال !...

وعبر فرسان المغول أبواب المدينة مثل الصاعقة، وانتشروا في الشوارع وهم يطلقون نعرات النصر.

كما أن "جنگيز خان" دخل بعد فترة من أحد الأبواب. كان على جانبيه كل من خان القارلوق وخان الألمالق وهما من المسلمين الذين يثق فيهم شعب بخارى.

ومن خلفهم كان يسير "دانشمند حاجب"، ساق حصانه كستنائي اللون صوب الميدان الكبير في المدينة. وتجمع الناس. كانت وجوههم مصوبة للأرض من شدة الخوف. كانوا يبكون وينتحبون ويتوسلون بشدة من أجل أن يعفو عنهم.

ولم يكن جنگيز خان يعرف أو يفهم أي كلمة مما كان يقال، ولكن كان يفهم جيدًا أن تلك الحركات التي يقوم بها هؤلاء الناس ما هي إلا تعبير عن الخوف والمذلة ولكي ينجوا بأرواحهم.

وفي فترة توجه إلى "دانشمند حاجب" وسأله:

- ماذا يريد هؤلاء؟

- إنهم يطلبون عفوكم، أيها القاآن الكبير!...

- يا... ه!

ثم توقف للحظة. أخذ يجول بعينيه على الشعب الأسير، ثم التفت إلى "دانشمند حاجب"، وسأله:

- هؤلاء مسلمون، أليس كذلك؟

- نعم هو كذلك، أيها القاآن الكبير.

- هل هنالك في كتبهم أمر يتعلق بالانسحاب من أمام الأعداء دون استخدام السلاح؟

- لا.

- أهكذا، أنت الآخر مسلم، وتعرف ذلك جيدًا.

- أعلم، أيها القاآن الكبير...

- حسنًا، فهل في كتبكم يوجد شيء كهذا، وإلا لماذا استسلم هؤلاء؟

كان "جنگيز" يتحدث وهو يقف في الوسط تمامًا من الميدان الكبير. وكان محاطًا بالحراس. كانوا في انتظار صدور الأمر وهم يشهرون السيوف.

- اسألهم يا "دانشمند حاجب" ولننظر فيما يقولون، إذا لم يكن مدون في كتبهم شيء كهذا، فلماذا استسلموا؟

وتوجه "دانشمند حاجب" إلى الحشد، وسأل باللغة الخوارزمية:

- إن جنگيز خان الكبير، يسألكم عما إذا كانت هنالك آية في القرآن الكريم تأمركم بالاستسلام دون قتال.

وأجاب الحشد على السؤال، وكان صوتهم طنينًا:

- لا يوجد.

وقام "دانشمند حاجب "بالترجمة.

- إنهم يقولون لا، أيها القا آن الكبير.

- هل هنالك من أمر يمنع القتال؟

وقام "دانشمند حاجب" بالترجمة؛ فأجاب الجميع بصوت هو الطنين، وقالوا:

- على العكس، إن ديننا قد أمرنا بالجهاد ضد الكفار.

وعندما علم "جنگيز خان" معنى هذه الإجابة؛ امتلأ بالغيظ والحقد، ثم ثبت نظرة على الحشد، وأمر "دانشمند حاجب" دون أن يلتفت إليه:

- اسألهم، لماذا إذن استسلموا على هذا النحو؟

- "......."

كانت الحيرة والدهشة تمنعهم من تقديم إجابة.

- لماذا استسلمتم؟

- "........"

بدأ الرعب يسيطر على كل شخص.

- إنهم لا يجيبون أيها القا آن الكبير!...

- لأنه ليست لديهم إجابة. إن الإنسان لا يحب الاعتراف بجبنه.

وفي تلك الأثناء، جاء أحد الخوارزميين وهو يجري ويركض. وأخذ يصيح صوب "دانشمند حاجب":

- امنعوا جنودكم من أن ينهبوا المدينة.

ونظر "دانشمند حاجب" إلى "جنگيز" وقال له:

- إنه يريدكم أن تحولوا دون سلب المدينة ونهبها.

ورمق "جنگيز خان" الرجل بعينه نصف المغمضة. ثم التفت نحو الحارس الذي يقف خلفه وهو شاهر سيفه وأشار إليه بتلك الإشارة المشئومة. ورفع الحارس سيفه في لمح البرق، ونزل به. انتثرت الدماء حواليه. سقطت الرأس في ناحية، والجسم في ناحية أخرى.

وصاح "جنگيز خان":

- المغلوبون ليس لهم الحق في الشكوى.

وساق حصانه. واقترب من باب "الجامع الكبير" وهو أكبر بيت للعبادة في المدينة كان "دانشمند حاجب "يقوم بإعطائه بعض الإيضاحات:

- إن ما ترونه هذا، هو جامع، أيها القاآن الكبير. إن المسلمين يتعبدون بداخله. وهم يطلقون عليه "الجامع الكبير" أو الجامع العظيم. ولا يوجد على وجه الأرض مثيل له.

وانطبعت العلامات على وجه جنگيز:

- سوف أشرب ها هنا للمرة الأولى!

- وأسرع حاكم القارلوق "أرسلان خان" بالصياح:

- أمان، أيها القا آن الكبير!...

وصوب إليه نظرة جامدة، وقال:

- هل استاء إسلامك وانكسر، يا "أرسلان خان"؟، وهل اشتقت للذهاب إلى الجنة؟

وأحنى "أرسلان خان" هامته. لقد وجد أن روحه أكبر قيمة من دينه. ولم يبد غضبه.

كان رجال العلم المحترمين قد اجتمعوا في الجامع. وكأن هذا البناء سيخلص نفسه بنفسه. فإن أحد الرجال أسرع بالجري وهو يقول "إنه بيت الله". وفي الأساس فإن "بيت الله" كان بحاجة إلى الحماية. لم يكن يرد بذهنه مثل هذا. كان يريد أن يحمي نفسه بالحوائط الحجرية دون أن يستل سيفا في يده. وبصورة أكثر صحة ووضوح كان يحتمي بحامية الدين التي لم يستطيعوا حمايتها.

ودونما أي تردد ساق "جنگيز خان" حصانه صوب الباب. ودخل دون أن يهتم بالرعب والفزع الذي أصاب البخاريين بالذهول. وتقدم بين الجماعة التي تفرقت على ناحية إلى فرقتين من الخوف. ووصل إلى المحراب. ثم أدار وجهه إلى الجماعة. وفتح عينيه قدر

الإمكان، وكانت الوجوه مصفرة إلى أقصى حد. كان بعضهم يذرف دموع الندم التي صارت الآن متأخرة جدًّا وهي تسيل على وجنتيه. ولم يكترث "جنكيز خان" أو حتى يعبأ بهم. والتفت إلى أستاذ منهم. وأشار إلى عمامته، ثم أمر بسؤاله:

- لماذا تلف رأسك بهذا القماش الأبيض على هذا النحو؟

- إنه عالم في الدين.

- هل يعرف رب السماء؟

- إنه يعرف إلها واحدًا.

- لقد أثارت هذه العمامة فضولي وحب استطلاعي. إنني أريد أن أراها من قريب.

وتوقف للحظة، وتحول إلى واحد من حرسه بعينه المقفلة قليلاً. وفتح عينا ثم أغلقها.

وهز الحارس سيفه بحركة سريعة. وفصل رأس العالم عن جسده تمامًا. فتدحرج على الأرض. وتقهقر الآخرون وهم يتصايحون.

- يا ربنا !...

وانحنى حارس "جنكيز خان". ورفع الرأس الدامية والتي كانت منذ لحظة تنبض بالحياة في عروقها وألبسها العمامة. ثم مدها نحو "القا آن" بكل احترام..

وأخذ جنكيز الرأس المقطوعة. وأخذ يتفحصها بدقة العالم. ومسح الدماء التي نزلت على يديه بالعمامة. ثم قفز في وسط الجامع. ورمى بها.

- خذوا عالمكم !

ونزل من على فرسه. وأمر بأن يحضروا له الشراب. وشرب قدر المستطاع حتى أن بطنه تضخمت مثل القرعة.

في تلك الأثناء كان ثلاثة من جنود المغول قد أتوا إليه وقد أحضروا فتاة وهم يسوقونها إليه. كانت الفتاة تقاوم، ولم تكن ترغب في السير. وكانت الدموع تنهال من عينيها مثل السيول.

- الرحمة، الرحمة!...

- سيري!...

وأحضروها إلى جنكيز. وانحنوا وهم يسلمون على القا آن.

- يا قا آننا الكبير، لقد فتحتم لنا عنابر بخارى، ودخل رجالنا ليأكلوا، وملأوا بطونهم الخاوية، كما أن حيواناتنا أخذت تأكل حتى كادت أن تنفجر، ونحن بالمثل أتينا لكم بهذه الهدية.

وصوب "جنكيز خان" عينيه القائمتين على الفتاة الشابة. وكانت المسكينة ترتعد مثل الطير الجريح.

- لماذا ترتعش؟

- ومن يقف أمامكم أيها القا آن الكبير ولا ترتعد فرائصه؟

- قولوا لها أن ترقص. فلربما أعجبت بها وألحقتها بحريمي.

ونخسوها بأطراف سيوفهم.

- ارقصي، ولننظر، أيتها الحمامة.

وتقهقر العلماء إلى الوراء قليلا. ولاحظ "جنگيز خان".

- اجعلوا هؤلاء العلماء المسلمين يقتربون. وليعملوا دائرة حول الفتاة. وليتفرجوا عليها. لقد أمرت بذلك.

وأفهموا الأمر للعلماء. وتقدم عدد منهم مطيعًا ومذعنًا للأمر. ولكن معظمهم ظل واقفا في مكانه وكأنما انزرع في الأرض.

وصاح "جنگيز خان" بغضب:

- تقدموا!...

ولم يتزحزح أحد منهم أو يتحرك من مكانه، كانوا يفهمون أنهم يُخدعون ويغرر بهم بشكل غاية في المرارة، وكانوا يقدرون عقوبتهم. وقفز رجل مسن من بينهم، وصاح قائلا:

- هنا مكان للعبادة. يا جنگيز خان يا من عينه متقلبة، لقد أفهمتنا إلى أي حد كان استسلام المدينة هو خطأ فادح ارتكبناه. لقد كان الموت بالنسبة لنا نعمة. إن هذه الروح لم تعد جديرة بعد الآن بالحياة. ونحن لن نستمع إلى أمرك. فعليك اللعنة، وعلى أمثالك

وعلى جنودك، وعلينا اللعنة أيضًا !... نحن الذين فتحنا أبواب المدينة دون أن نطلق سهمًا واحدًا.

واستمع "جنگيز خان" دون أن تطرف عيناه حتى نهاية الكلام الذي كان يقال بلغة مغولية واضحة. ولم يُحدث أية حركة أخرى. ونظر طويلا طويلا إلى المتحدث؛ ثم سأله:

- ما اسمك؟ وأين تعلمت لغتنا؟

- إنهم يطلقون علي اسم "الدرويش المجنون". أنا رجل طوفت بالعالم بلدًا بلدًا. ولقد وقعت بين يديكم عددًا من السنين. لقد ذهبت إلى الصين وإلى "ماچين" Maçın ورأيت ظالمين كثيرين. وكان أشد هؤلاء الظلمة ظلمًا في العالم هو ذاك الذي أمامي هذه اللحظة. عليك اللعنة، واللعنة على ظلمك!.

كان "الدرويش المجنون" لا يفكر في هذه اللحظة في شيء سوى الموت. كانت المدينة قد استسلمت على نحو ما. أما الأبطال الذين كانوا في مقاومة ضد العدو داخل القلعة، فقد كانوا سينفدون على وجه السرعة. لقد أسرعوا بالمجيء إلى هنا لا من أجل أن يروا ما سيفعله جنگيز خان ولكن من أجل حماية حيثية علماء المسلمين.

وبدأ العلماء الذين استمدوا منه الشجاعة في التزحزح والحركة. فزأر بعضهم قائلا:

- عليك اللعنة!...

ثم تحول ذلك إلى صياح جماعي أخذ يرن في القباب:

- عليك اللعنة!...

كانوا يسيرون نحو جنگيز.

وفر "جنگيز خان" من الرعب. وأخذ الحرس يحيطون به على الفور، وصاح قائلاً:

- اقتلوهم جميعًا!

وأخذت السيوف تعمل في رؤوس الناس الذين لا يملكون سيوفًا. وتضرجت ماكينة الموت بالدماء. وتلونت سجاجيد بخارى الخضراء بالدماء القانية. ونادى "جنگيز خان":

- لا عليكم بالفتاة.

واستمر القتل العام لفترة قصيرة من الوقت.

وحينما صدر خبر "التمام" كانت الساحة الداخلية للمسجد مليئة بالأجساد.

كانت هنالك في وسط بركة من الدماء. وكانت العمائم البيضاء ملطخة ببقع من الدماء القانية...

ونظر "جنگيز خان" وكأنما كان يشاهد حادثًا عاديًا للغاية. ثم صوب عينيه مرة أخرى إلى الفتاة الشابة:

- ارقصي !...

ثم أشار بإصبعه نحو الأجساد الملقاة على الأرض:

- وإلا، لجعلتك تدوسين فوق أجساد هؤلاء الأساتذة...

وساق اثنان من الجند الفتاة إلى هنالك وهم يمسكونها من ذراعها. كانت تدوس بقدميها الحافيتين على الجثث. فتلطخت بالدماء. وأصيبت بقشعريرة. كانت تبحث عن والدها وسط هؤلاء. ووجدته. وأتت بحركة لكي تلتصق بجسده. ثم خارت قواها، وتخلت عن التشبث به. قالت وهي تتمتم:

- إن الذي لا يعرف كيف يحمي دينه، لم يكن ليعرف كيف يحمي بنته أيضًا، ولا حتى يعرف كيف يحفظ حياته...

وقبضت على رأسها بشدة، ثم صاحت في وجه "جنگيز خان" مصدرة صوتا يعبر عن كل الكره:

- أي ابن آوى العجوز، عليك لعنة الله!

واستفسر "جنگيز" من "داونشمند حاجب":

- ماذا تقول هذه؟

- إنها تقول "عليك لعنة الله".

- لقد نطقت بصميمة وإخلاص يا أيها الحاجب، فليحق بك مثل ما في هذا الدعاء السيئ.

ثم سار دون أن ينتظر الجواب. وصار بجانب الفتاة الشابة بعد خطوتين. وأرادت الفتاة أن تنسحب للخلف من شدة الخوف، ولكنهم منعوها. فأمسك بها من ذراعها:

- ارقصي!...

ثم التفت مثل دوارة الهواء.

كان "جنكيز خان" يطلق قهقهات، وهو الذي نادرًا ما كان وجهه يسفر عن ابتسامة... كانت عين الفتاة على الخنجر الذي كان على خاصرة جنكيز. وفجأة انطلقت لترتمي عليه وسحبت الخنجر الذي كان في خصر القا آن:

- خذ، عليك اللعنة!...

وبسرعة رفعت يدها التي تقبض على الخنجر، ولكنها لم تستطع أن تنزلها. لقد مسكها من معصمها أحد الجنود المغول الحاذقين وكان يقف على أهبة الاستعداد من خلفها.

ومسك جنكيز الفتاة من كتفيها، وشدها؛ ولصق فمه بخدودها، ومرر أسنانه الحادة. وغرزها بكل قوة. وامتلأ فمه بالدماء الحارة. ودوت في الجامع صيحة مجلجلة. وسحب "جنكيز خان" رأسه بسرعة وهو مطبق على أسنانه بإحكام.

كانت في فمه قطعة كبيرة من اللحم. وكانت الفتاة التركمانية تصيح من شدة الألم، وكانت تريد أن تضع يدها على خدها. ولكن الجند كانوا يمسكون بها من ذراعيها. كانت عظام وجنتها تظهر من المكان الذي أخذ منه اللحم. وكانت الدماء تتصفى من وجنتها بغزارة، وكان وجهها يزداد اصفرارًا حينا بعد حين. وكانت عيناها السوداوتان الواسعتان مسلطتين على وجه الجنكيز الأصفر.

وظلوا يُمسكون بها وهي واقفة على هذا النحو لفترة من الزمن. وحتى المغول أنفسهم كانت دماؤهم تتجمد. وأخذ "جنگيز "يمضغ قطعة اللحم التي في فمه مثل العلك ويصدر صوتا يشبه عواء الكلاب.

وفي النهاية التوت ركبتا الفتاة الشابة. وترك الجنديين ذارعيها. وتكومت على الأرض مثل السبيكة. وتمددت بين العمائم البيضاء، وظلت على هذا الحال.

وفي هذه الأثناء مشى "جنگيز خان" من عليها. ثم أخرج خنجره مرة أخرى من غمده ونزل على ركبته أمام الفتاة التركمانية المغمى عليها. وفي جذبة وشدة أخذ يمزق في صدرها ثم رشق خنجره في قلبها تمامًا. ثم قام بسحبه من أسفل. ثم من أحد الجوانب، ثم إلى أعلى، ثم من الجانب الآخر. لقد رسم عليها مربعًا. كانت الدماء تتناثر. ثم رفع طرف الخنجر. وأمسك بالقطعة التي قطعها، ورمى بها في ناحية. وظهر قلب الفتاة الشابة داخل بركة من الدماء. كان ينبض نبضاته الأخيرة. أغرق يده فيه. ثم نزعه من الأرض في جذبة. وتشنج جسد الفتاة الشابة لمرة. كانت تهتز من رأسها حتى أصابع قدميها. ومن ثم توقفت عن الحركة..نهض جنگيز على قدميه وسط القهقهات المتكلفة من جنوده. كان قلب الفتاة التركمانية لا يزال دافئا للغاية. وكان جنگيز يصفي دماءه بين أصابعه.

عصره بين راحتيه، وأدخل القلب الدافي في فمه. وأخذ يقطع فيه بأسنانه قطعا صغيرة. وازدادت القهقهات التي كانت تصدر صليلاً في القباب.

وخرج إلى الفناء. وهز يده للجنود الذين احتشدوا في الساحة؛ وأخذ يجأر قائلاً:

– سأعاقب كل المسلمين بهذه الطريقة. أنا خان المغول الكبير الذي أرسلني رب السماء لكي أعاقب المسلمين. لقد حكم وقضى بأن أدمر كل قوة تقابلني، بل وأمحوها. يا جنودي، لقد فتحت لكم أبواب مدينة كبيرة ومعظمة مثل بخارى وعليكم بالتالي أن تبدوا لي مظاهر الصداقة، ولتأتوا من خلفي حتى ولو كان ذلك إلى الموت. ولسوف أكسبكم المزيد من الانتصارات.

وصاح الجند في صوت واحد:

– نحن خلفك، أيها القا آن الكبير!

– والآن عليكم أن تشعلوا النيران. وتلك النيران يمكن أن تمتد بشكل يحطم منزلاً واحدًا. ثم ألقوا فيه كل ما تجدونه من كتب. وألقوا أيضًا بالذين يحملون على ظهورهم الكتب في النيران. نحن أمة عسكرية ويلزمنا القتال ولا يلزمنا العلم. والقلم والكتاب الذي تحتاجون إليه هو السهم. نحن بحاجة إلى الحصان وإلى السيف.

– لو!... لو!... لو!...

- هيا، نفذوا، يا أسودي...

وجعل هذا الأمر "دانشمند حاجب" يقطب وجهه؛ فقال:

- أيها القا آن الكبير. نحن أمة من الرحل، ولكن لا يمكننا أن نعيش هكذا إلى الأبد. وتلك وصلت إلى أن تكون من أنعم المدنية. تعالوا، لندع تلك الكتب دون إحراقها، لقد قتلتم من قتلتم من العلماء وهذا قدرهم. وإذا لم يكن هنالك من بد فلتعف عمن تبقى منهم. إننا نستخدم في أمور الدولة. ولا نستطيع أن نرفع الرأس تحت وطأة السياط، إنهم يقومون بخدمتنا.

ونظر "جنگيز خان" شذرًا؛ وقال:

- هل أنت في جانب هؤلاء، يا حاجب الكلب؟

- حاشا، أيها القا آن الكبير!

- إذن اسكت، أنت اليوم تتحدث برعونة؛ لو لم تكن خدماتك السابقة...

ولم ير من اللازم استكمال حديثه وكلامه. كان وجه "دانشمند حاجب" الذي اصفر يبين ويكشف أنه فهم.

كان الشعب يتباكى بالآه والواه داخل الميدان الكبير، لقد كانوا يسفكون دماء حفنة المسلمين الذين كانوا في القلعة من الداخل حتى آخر قطرة.

كانت النيران قد أضرمت في المدينة مكانًا مكانًا. وكانت أعمدة اللهب تتصاعد عمدانًا عمدانًا، (بخارى كانت تحترق) ذاك هو المعاندة أمام النيران المثالية والتي تنطفئ.

***

– يا سلطاني، يا شاه خوارزم صاحب الحشمة، يا والدي الحبيب. إلى أين سيستمر الأمر بنا في هذا الفرار؟

جعل شاه خوارزم "علاء الدين محمد" حصانه يقلل من سرعته عندما أخذ يشده من عنانه شدًّا خفيفًا. وطير نظرة حادة إلى ابنه:

– حتى المكان الذي نشعر فيه بالأمان لأرواحنا...

– على حين يضرب العدو بأقدامه في بلادنا، وعلى حين تضرب ظهور أمتنا بالسياط، هل تكون أرواحنا آنذاك أكثر قيمة؟

– بعد أن نكون في سلامة، يمكن أن نقيم الدولة مرة أخرى، يا جلال الدين.

– أهكذا، يا سلطاني؟ نحن الذين نهرب من دولة مؤسسة وقائمة ونفر من المحافظة على أمة جاهزة لأن تضحي بأرواحها في سبيل هذه الدولة، كيف لنا أن نقيم دولة جديدة؟ ها...؟

– أصبح لسانك أشد سمًّا من سم الثعبان.

– هل هنالك من طريقة أخرى؟ أنت دائما ما تقيد ذراعيَّ، وبأمر منك سقتني من خلفك. اتركني، ليتك عالجت لساني...

- إن أردت فلا تأتي معي، فلن أضطرك على شيء.

- وأنا لا أريد هذا، يا سلطاني. لا أجعل الناس يقولون إن "جلال الدين" أصبح يعصي أمر والده. ولكن إذا أمرتني بأن أخرج لمواجهة الأعداء، فإنني سوف أعود بمفردي. ولسوف أقاتل حتى الشهادة. إذا كان بد فلأمت بشرف.

- جلال الدين، جلال الدين! كأن القدر قد استاء منا ماذا بيدنا لنفعل؟

- القدر؟ إنه لا يستاء من شخص، هل نحن الآن نعرض قدرنا؟

- نعم...

- خطأ كبير. إن الإرادة الكلية في يد الله وحده، أما الإرادة الناقصة فهي للناس. ونحن لم نستخدم حتى هذه الإرادة الجزئية، وحتى... لم نر من اللازم حتى تجربة قدرنا الذي سيتجلى في أي من الطرق. وا أسفاه..

- أنت لم تكن قائدًا. فقط كنت جنديًّا بسيطًا وشجاعًا، وكنت طوال حياتك على هذا النحو، ولسوف تظل بعد ذلك على هذا النحو أيضًا. انظر إنني مسئول عن هؤلاء الآلاف من الفرسان الذين يسيرون من ورائي، وأنا مسئول عن حياتهم. وأنت لا تستطيع أن تفهمهم.

ونظر "جلال الدين" إلى الفرسان الذين يسيرون صفوفًا صفوفًا، وقال:

- ماذا يفيد. هذا القطيع من الفرسان لا فرق بينهم وبين الناس الآن. إنهم يهربون من خلفنا دون أن يسددوا حتى ضربة سيف واحد إلى الأعداء. آه... كم تمنيت أن أكون جنديا يموت في ساحة القتال على أن أكون ولي عهد هارب!

- نحن لا نفر أو نهرب، إننا ننسحب إلى أن تحين الفرصة المناسبة لنا.

- إذا كان الأمر كذلك فلنعد صوب "سيحان" Seyhan ولسوف نحصر العدو هنالك. إنهم ليسوا كُثر بالقدر الذي نظنه. استمع إلى الأخبار الواردة من هنالك، لقد جعل "تيمور ملك" مع حفنة من الأبطال "جوجى "يتقيأ دمًا. ولم يستطيعوا إجبار عدد صغير من الأبطال انسحبوا إلى القلعة الداخلية في بخارى على الاستسلام.

- حسنا، فماذا تريدنا أن نفعل؟

- لنعد، ولنقم بهجوم على جنگيز عند سواحل "سيحان". وفي حال تم إدارة ما تحت أيدينا من قوات إدارة حسنة، سوف نصبح كثرة تستطيع أن تنجح في إنجاز أعمال كبيرة.

- إنهم يقولون إن عدد الجنود الذين تحت يد جنگيز قد وصلوا إلى أربعمائة ألف جندي...

- لا تصدق. إن ما في يد جنگيز من قوة لا تتعدى مائة وخمسين ألف شخص فقط. ولقد تم تقسيم معظمهم من أجل محاصرة

المدن. ونحن لو حملنا على المركز، فلسوف يمكننا حتى من أسر قاآن المغول.

- كم هو خيال جميل!...

- نعم، يا سلطاني، خيال جميل... ولكن رؤية الحقائق على أنها خيال هو ليس بالشيء الجميل أبدًا.

- ماذا تريد أن تقول؟ ألا تعي مع من تتحدث؟

- أعي. مع سلطان بلا بلد، ولا أمة...

- أغرب عن وجهي !...

- عن إذنكم، يا سلطاني، لقد نفذت أوامركم كلها حتى هذه الساعة كعبد صادق لكم. ولقد سرت خلفكم كعبدكم المختص بأمر الحصان. ولكن الآن..

- إذا أردت أن تتركني، فلتتركني...

- إنه شيء مر، ولا أستطيع أن أقدم عليه. أنتم سلطاننا، وأنتم أبينا ووالدنا، لا أستطيع أن أترككم. إنني أريد أن تأمرني. وأن تمنحني قوة صغيرة تكون تحت إمرتي. واقرأ لأرواح الأعداء. وإذا أراد الله تعالى أفعل ذلك.

- من الآن ليست لدينا القوة التي نستطيع أن نفعل بها شيئًا قط. اصمت ولتكن لي مطيعًا.

- على الأقل قل لنا إلى أين نحن ذاهبون.

- لأقل، نحن ذاهبون إلى "طوس" Tus.

ولوى "جلال الدين" رقبته. وقال بصوت خفيض لا يكاد حتى هو نفسه أن يسمعه:

- نهرب إلى "طوس".

كانوا يهربون. لقد تركوا جيوشهم العظيمة والضخمة لا رئيس لها وكانوا يهربون من شيء خرافي.

وعبروا من "طوس" إلى "دولت آباد" Devletâbâd. وهنالك تقاتلوا مع قوة من جيش المغول في أعقاب اضطرارهم لجلال الدين إلى ذلك. كان الجنود متبعين مرهقين. وفضلا عن ذلك مال معظم القادة الذين كان يقودهم السلطان إلى الفرار دون محاربة. كانوا وكأنما عملوا ما يمكنهم عمله من أجل الفوز والانتصار، وذلك حتى يظهروا بأن رغبة جلال الدين كانت على غير حق. وهلك جزء كبير من جيش السلطان، كما فني جزء آخر. لقد حصدت الحرب أرواحًا كثيرة، وكانت مكلفة للغاية.

وقد ألحق السلطان مسئولية هذا الفشل وتلك الهزيمة إلى ابنه "جلال الدين". وقال كل ما جاء على لسانه. وفي النهاية احتمى بجزيرة في بحر "آبيسكون" Abiskun (الخزر) مع حفنة من رجاله المخلصين.

وكان عليه أن يمضي البقية الباقية من عمره في وضع حقير ليعيش على شاة بعد شاة، بعد أن أمضى ما سبق في حياة فخمة وعظيمة.

وكان كلما سرح به الفكر كلما أحس بالضيق والضجر، وكان كلما ضاق وتضجر يأخذ في البكاء كطفل صغير.

***

القسم الثاني عشر

في ربيع عام التنين (١٢٢٠) كان "جنگيز خان" يستعد لمغادرة "بخارى" على أن يستولي على "سمرقند"، وأثناء ذلك كانت الأدخنة تغطي المدينة العظيمة. كان عدم استسلام حفنة من الأبطال الذين أغلق عليهم القلعة الداخلية قد أصاب روح القآن بالسأم والضجر الشديدين، وفي النهاية كان عليه أن يستخدم تكنيكه الأزلي، حيث جعلهم يهاجمون القلعة بعد أن ربط أسرى المسلمين بالسلاسل في بعضهم البعض. وكان هؤلاء يفضلون أن يموتوا هم بدلاً من أن يتسببوا في موت إخوانهم في الدين. ففتحوا الأبواب. ودخل العدو إلى القلعة الداخلية مثل الجرف الجليدي المنهار. وتم إعمال السيف في كل المجاهدين.

سعد "جنگيز خان" بسبب أنه أصبح مطمئنًا. وغادر المدينة ذات صباح وهو يجر جيشه من خلفه. وتوجه مباشرة نحو "سمرقند".

وتتبع جيش المغول نهر "زرفشان" Zirufşan، واستولى على كل من "سره پوى" Serepuy و"دابوسيه" Dabussiye والتي تقع في الطريق الذي سلكه. ووصل إلى سمرقند مع قافلة من الأسرى الذين وقعوا في أيديهم بعدد كبير.

كان هنالك أحد القصور المعد لتصييف شاه خوارزم "علاء الدين محمد" ويقع خارج المدينة. وكان السلطان يقيم في هذا القصر حتى مرور موسم الصيد، كما كان يقوم بترتيب القوافل التي تقوم بالصيد في بعض الأحيان.

وأقام "جنگيز خان" في هذا المكان، واتخذه مسكنا له. وكان في كل صباح يقوم بالنظر طويلاً طويلاً إلى الأسوار العالية لمدينة "سمرقند "من خلف النافذة.

كان يعلم جيدًا جدًّا أنه لن يمكن تخطي هذه الأسوار المحكمة بقوات غير متقنة. وكان عليه أن يعمل الحيلة. لو أمكنه خداع قسم من القيچاق في الداخل وغشهم، فلربما فتحت الأبواب هنا أيضًا من تلقاء نفسها، كما حدث في "بخارى".

إنهم يقولون: لو كانت قيادة المدينة في يد جندي ذكي وجسور مثل "تيمور ملك"، لكان من السهل على سمرقند أن تواجه المحتلين حتى تنتهي المخزونات على أقل تقدير، بمعنى سنة أو سنة ونصف، وحتى مع الوقت من الممكن أن تجعل العدو يهرب بحركات الاندفاع إلى الخارج ينفذونه من وقت لآخر.

والحاصل أن قيادة القلعة كان يقوم بها "طورگاى خان" Turgay Han وهو من القيچاق، وهو خال شاه خوارزم "محمد" وشقيق "تركان خاتون" والدة السطان ولم يكن يحبه الشعب ولا الجند. فقط كان يتم دعمه من قبل عدد من المتملقين والمداهنين.

ولم يكن يُفكر في شيء سوى الزهو والبهجة. وكان يغرق نفسه في الملبوسات الحريرية، وكان يلبس في كل أصبع خاتما ذهبيا مرصعًا باثنين من الأحجار الكريمة على الأقل.

كان يعد النزول إلى الشعب ضربًا من الذل، وكان يدير الجند من داخل القصر.

وكان "جنگيز خان" يعرف كل هذا. كان سيفتح المدينة من الداخل. وكان يفكر في حيلة تُظهر قواته الموجودة الآن بأكثر من ثلاثة أضعافها، حتى ما إن يراها "طورگاى خان "فإنه لا يكن يواتيه أدنى شك في أن يعرب عن رغبته في الاستسلام.

وعلى حين كان يبث في المدينة من طرق خفية قسمًا من رجاله، فإنه كان على الجانب الآخر يقوم بتطبيق الخطة التي كان يفكر فيها.

وأمر بأن يصطف الأسرى الذين تحت يديه في صفوف منتظمة، وثبت على رأس كل صف الرايات والأعلام. كان الأسرى في الحقيقة مربوطين كل واحد في الآخر، ولكن لم يكن من الممكن ملاحظة هذا من شخص ينظر إليهم من بعيد. ومن أجل هذا فإن "طورگاى خان "عندما صعد إلى برج القصر فقد أصيب بالضيق وظن هؤلاء الأسرى جندًا، وكان ينطق بعلامات الحيرة وقتًا طويلاً. ثم عاد إلى حجرته وهو يفكر مليًّا. وجمع قادةه، وتحدث معهم قائلا:

- إن الأعداء كُثر. ويُرى أن مقاومتنا غير ممكنة تمامًا. وإذا ما قمنا بإغضاب جنگيز خان، فإنه سيقوم بحرق "سمرقند" كما أحرق "بخارى" ولسوف يضربنا جميعًا بحد السيف.

وقفز "بالان خان" Balan Han وهو واحد من التركمان، ووقف على قدميه ودون أن ينتظر حتى ينهي كلامه، قاطعه وهو يصيح فيه قائلا:

- وما معنى هذا؟. لماذا تهمنا بمسألة قلة عدد العدو أو كثرته؟ نحن هنا للدفاع عن المدينة، ولسوف ندافع حتى آخر قطرة من دمائنا.

وكان "علي أر خان" Ali Er Han على هذا الرأي. وبعد أن سكت بدأ "بالان خان" Balan Han في الحديث وقال:

- إن بخارى قد استسلمت. وما فعله جنگيز موجود على الساحة وباد للعيان... إن ما ورد إلينا من أخبار تقشعر لها الأبدان. لماذا تكبرون من حجم العدو في أعيينا، وتجعلوننا نمدد أجسادنا للجلاد مثل قطيع الحملان؟ لسوف نحمي المدينة حتى آخر لحظة؟

ورمق "طورگاى خان" خانات القپچاق بعينيه. ثم عاد إلى "بالان خان" وقال:

- وهل الشعب يرغب في القتال؟

وهز "بالان خان "رأسه وقال:

- نعم الشعب يريد هو الآخر القتال. ولكن لماذا أنت تجعل الشعب يحارب؟ إنه يدفع الضرائب، ألا يكفي هذا؟ إن القتال هو حرفة الجنود وحسب. وهنالك داخل القلعة ما يكفي من جنود أيضًا. بقى أن تجتمعوا على قلب رجل واحد وتفدوا الشعب. وكل من هم من المدنيين من التركمان داخل القلعة مستعدون لهذا.

- هل تحدثت مع هؤلاء؟

- أنا أعرف أمتي جيدًا يا "طور گاى خان".

ودخل واحد من خانات القپچاق في الحديث؟ وقال:

- إننا نتناقش في أرض فراغ. إن كلاً من "بالإن" و"على أر خان" يريدان القتال. ليتفضلا ويحاربا، ليس هنالك من يمسكهما حتى!...

واحمر وجه "علي أر خان" من الغضب، وقال وهو يصيح:

- وأنت أيضًا تقف وتتفرج كالنساء، نرى هل هنالك من مانع؟

- ماذا تريد أن تقول؟

- أريد أن أقول هذا... على حين يكون ديننا، ودولتنا، ومدينتنا، وشعبنا تحت التهديد، أقهر أنا للوصول إلى التفكير في راحتي من خلال رغبتي في التسليم مثل قطيع الحملان. إن النساء أنفسهن لسن على هذه الدرجة من الجبن.

وسحب الخان القپچاقي خنجره:

- اسحب كلامك!

وتناول "علي أر خان "هو الآخر سيفه في يده، وقال:

- في اللحظة التي تخرج فيها من القلعة وتسير في أثر الجنود، وتذهب إلى الأعداء، آنذاك فقط أكون على استعداد لسحب كلامي.

- سوف تسحبه الآن.

ثم اقترب خطوة:

- إنني أقول رجل لرجل فقط.

- قلت لك اسحب كلامك.

- ورفع خان القپچاق سيفه بشدة وغضب. ولكنه لم يجد الوقت لكي يُنزله. لقد أمسكت به من رسغه أصابع وكأنها كماشة من الصلب تمتد من خلفه. والتفت بغضب. ووجد نفسه وجها لوجه مع "بالان خان"، ونظر إليه باشمئزاز، وقال:

- أيها الكلب!...

أخذ "بالان خان "يلوي معصمه ويجعله يدور ويدور، وبيده الفارغة ضربه بشدة، وقال:

- أيها الأحمق!...

ودخلا إلى ساحة. والحقيقة أن خانات القپچاق كانوا كثرة، ولكنهم كانوا يعرفون جيدًا أنهما من شجعان التركمان. وتحدث "طورگاى خان "لكي يلطف من حدة الأجواء:

- لماذا تتقاتلان؟ إننا هنا ليس من أجل التقاتل، لقد جئنا من أجل أن نجد الوسائل التي تحفظنا من الأعداء. فلتتناقشوا في هذا الشأن وحسب.

- فقال "بالان خان":

- كان يقال منذ قليل إننا لن يمكننا أن نظهر شجاعتنا. ونحن لا نريد أن نعمل مظاهرة لإبداء شجاعتنا. لقد تم محاصرة المدينة. ولابد من كسر هذا الحصار. ومن أجل هذا سأسير على رأس جيش، وسأقوم بالهجوم على معسكر "جنگيز خان".

وتقدم "علي أرخان" بضع خطوات ووصل إلى جانب "بالان خان"، ووضع يده على كتفه، وصوب عينيه على القپچاق، وقال:

- وأنا أيضًا سأسير من خلفك بقواتي، ولسوف أفعل الشيء ذاته.

ونهض على قدميه البك التركماني "آي خان" Ayhan والذي لم يكن قد تفوه بكلمة حتى الآن، وسار نحوهما، ووقف بجانبهما، ورمى بيده على كتف "بالان خان".

كان رجلاً لا يحب الكلام الكثير. في بعض الأحيان كانت تمر أيامًا ولا يخرج من فمه كلمة. كان يسعد كثيرًا بالنجاح في العمل بدلاً

من الحديث باللسان. وهز رأسه صوب صدره بما يفيد الإثبات، وعلى هذا عبر بأن اثنين من بكوات التركمان قد أصبحا في صفه.

وترك ثلاثتهم القصر سويًّا. وعلى الفور قاموا بتجهيز جنودهم. وخرجوا من المدينة في ثلاثة فصائل كل فصيل من ألف شخص...

وحينما وصلوا إلى معكسر المغول، كانت حمرة الشفق قد ظهرت وحمرة الفجر لونت الكون باللون الأحمر.

ودخلوا في قتال شديد. وفي الواقع كان المغول كُثر. ثلاثة آلاف شخص، لم يكونوا شيئًا بالنسبة لهؤلاء. والآن فإنهم كانوا مضطرين للانسحاب أيضًا. كان فرسان التركمان يحاربون بصورة طيبة للغاية، وكان القادة الثلاثة يديرون القوات التي تحت أيديهم بمهارة.

واستمرت الحرب القوية ساعة من الزمن. و"بالان خان" الذي رأى أن المغول قد بدأوا في العودة إلى استرداد قوتهم، أعطى أوامره بالانسحاب حينما شعر بأنهم قد حوصروا. وتزحزحوا من مواضعهم بمناورة بارعة. ودخلوا المدينة وهم يجلبون معهم من فرسان المغول نحو خمسمائة أسير سحبوهم من خلفهم.

لقد فهموا حينما اجتمعوا مرة أخرى بأن بكوات القلعة كانوا قد انخدعوا عندما ظنوا أنهم سيكونون طُعمًا للشجاعة. وعلى هذا صار بعض من خانات القبچاق يقفون إلى جانب الحرب الحقيقية، ولكن

كان هنالك عدد كبير آخر يقف ضد ذلك. واستمرت المناقشات طوال اليوم وحتى منتصف الليل. ولم يتم الوصول إلى أية نتيجة. وأخيرًا وثب من مكانه "بالان خان "والذي قطع الأمل لديهم، وصاح قائلاً:

- أيها الجبناء! إنني ذاهب على رأس جنودي للاستعداد للحرب الثانية.

واكتملت الاستعدادات لكل شيء حتى الصباح. وفي هذه المرة اشترك في القتال جزء من شعب القلعة كفدائيين. كان كل من "علي أرخان" و"آى خان بك" في وضع الاستعداد. وبالإضافة إليهما كان هنالك اثنان من خانات القپچاق مستعدين بجندهما صار مجموعهم جميعًا ستة آلاف فارس.

وتم وضع "بالان خان" على رأس القيادة العامة. كان جنديًا محنكًا استخدم السيف لسنوات طويلة مع "تيمور ملك". ولو كان "طورگاى خان" قد سلم له قيادة أتباعه ولو كان قد كسر غروره، فلربما كان من المحتمل كثيرًا إنقاذ المدينة.

كان "جنگيز خان" في انتظار حركة الخروج الثاني بنفسه. وكان يتخذ استعداداته. وبعد أن رأى أن الهجوم الأول قد كلفه الكثير، فإنه اتخذ الاحتياطات اللازمة.

وعمل على أنه يقوم بالانسحاب من أمام المهاجمين. وعلى حين كان يقوم بعد الميمنة والميسرة في مكانهما. فإنه ذهب إلى الخلف من المركز قدر المستطاع. وإذا كان "بالان خان" قد فهم أنه

سيقوم بالحرب من هنا إلى أي حد، فإنه لم يستطع أن يستمع الآخرين. وكلما كان المغول ينسحبون كان هؤلاء يحملون عليهم. وإذا ما كانت عقولهم قد عادت إلى رؤوسها لكانوا قد أدركوا أنهم يحاصرون من الخلف بالجناح الأيسر والأيمن. وهكذا أحيط بالمسلمين في دائرة.

وبالرغم من هذا فإنهم لم يفقدوا شجاعتهم. وكانوا يقاتلون مثل الأسود. كان المغول يطلقون النعرات المتوحشة، وكمنوا على خيولهم الصغيرة، ومن ثم عادوا إلى أطرافهم وأخذوا يقفون هنالك.

- لو !... لو !... لو !...

- وتأثر "بالان خان "وردد منتشيًا:

- الله !... الله !... الله !...

- الله أكبر؛ الله أكبر !

- ومع أن "طور گاى خان" كان يقف إلى جانب خانات القپچاق، لكنه كان ينظر وهو يحتمي بوضع يده على عينيه، في أعلى الأبراج طولاً من القصر.

- وكان يقال:

- إن أحوالهم سيئة.

- ثم عاد والتفت إلى من كان بجانبه، وقال:

- إنهم في حاجة إلى المساعدة. لو كان قد خرج من المدينة عشرون ألف شخص، لكانوا قد أخذوا المغول وضع الدائرة خارج المغول.

وقابله خان القپچاق بابتسامة مثل السم، وقال:

- هل تريد التضحية بعشرين ألف شخص آخرين؟ ألم يكن هذا الذي صرفناه من وجه التركمان الذين زاغت أبصارهم؟

وقطع "طورگاى خان" صوته.

واستمر خانات القپچاق في التذمر والتشكي لفترة من الوقت.

يقولون إن:

- لو خرج من القلعة عدد من الجنود وأحاطوا بالمغول، لكان "بالان خان" يمكنه التخلص من التطويق براحة، ولربما كان "جنگيز خان" قد خسر.

ولكن لم يحدث. وأغلق "طورگاى خان" على نفسه الحجرة كما لو كان قد تعب كثيرًا، وتمدد على الديوان المشغول بالصرمة الذهبية، وأغلق عينيه كي لا يرى الحقائق التي تسير أمامه.

استمرت الحرب حتى وقت العصر. وكان "بالان خان "قد نجح في كسر عدد من الأطواق. وسبب للعدو خسائر فادحة. ولكن الأمر لم ينتهي بكسرهم. وجاءت لحظة رأي فيها نفسه وقد اختلط بعدد من الفرسان الصغار والذين أحاطوا به من كل جانب لم يبق هنالك من

أصدقائه من أحد. ولمعت من عينيه البروق. ولكنه لم يتخل عن سيفه. لقد كان قد جرح من مكانه اثني عشر. وكانت الدماء تسيل من كل جانب كالنهر. وكان ظهر فرسه مضرج بالدماء. ومرة أخرى أخذ يضرب ويضرب بسيفه. ضرب حتى أخذت عيناه في الاسوداد.

كان يقول "الله الله!" والدماء تسيل من فمه، ومع ذلك ظل يضرب حتى يتزود. وأخذ ينزلق من فرسه شيئًا فشيئًا، حتى تكوم على الأرض. كان يبتسم في حرارة شديدة. كانت الدماء تسيل من أنفه وفمه. ثم قال "الله !.." للمرة الأخرى، ومن ثم وقع على كتفه الأيمن. وظل هنالك على هذا الوضع.

كان هنالك "على أر خان" من بين الذين تمكنوا من العودة إلى القلعة في عافية. لم يكن عددهم جميعا يتجاوز الألف شخص. فلقد استشهد خمسة آلاف أخرى من المسلمين.

***

استدعى "جنكيز خان" الفنانين الصينيين الذين كانوا يلازمونه دائمًا. وأخذ الرجال قصيرو القامة يركعون أمامه واحدًا واحدًا، كان جميعهم ينظر إلى طرف قدميه، ولم يكونوا يجسرون على رفع أعينهم.

وركل جنكيز خان الأرض. وردد من بعد وبصوت يتميز من الغضب:

- كم من وقت توقفتم أيها القصار عديمو الأصل؟ تحركوا في الحال، واصنعوا قوسا يمكنه أن يسير إلى مسافات بعيدة. وفي حال لم تتمكنوا من إتمام هذا العمل في ظرف يومين، اعلموا أن حياتكم قد انتهت آنذاك.

لم يجرؤ الرجال حتى على النظر. وأحنوا قامتهم. وغادروا القصر وهم يرتعدون من الخوف.

وبينما كان هؤلاء في القصر الذي كان يقضي فيه شاه خوارزم فترة الصيف لوقت من الزمن ويقع خارج المدينة، كان مجلسًا يعقد داخل المدينة.

كان خانات القپچاق يجلسون متربعين أمام "طور گاى خان"، كانوا يتسابقون في الكلام بشكل غير لائق. ولم يكن للتركمان من أثر فيما بينهم. وكذلك لم يكن هنالك من شخص من القپچاق الذين عرفوا بالشجاعة والإقدام. كان هؤلاء هم الخانات الذين لم يكونوا يفكرون في شيء في حياتهم سوى الأكل والشرب والعيش في صفاء.

كان أحدهم يتكلم بصوت مرتفع:

- هل رأيتم ما وصلت إليه أحوالنا! حماقة وسخافة، تلك هي الحماقة والسخافة... هل هنالك من فائدة لشخص عامل أن يخرج من القلعة ليتقاتل؟ إن مثل هذا تسبب في قتل الأبرياء. وفضلا عن ذلك لم نستطع أن نفعل لهم شيئا. إن مسئولية الأطفال والنساء

الذين يعيشون في هذه المدينة تقع على عاتقنا. لو كان جنگيز خان سيدخل المدينة بالقوة لكان قد أعمل السيف في الجميع لا فرق بين امرأة ولا طفل ولا شاب ولا عجوز. لقد كنت أعلم أنني سأعمل حسابًا لنفسي.

وسألوا:

- ماذا ستفعل؟

- ماذا سأفعل؟ سأفعل ما كان سيفعله كل رجل عاقل وقع في ذات الموقف...

- هل ستقاتل؟

- قلت سأفعل ما كان سيفعله الرجل العاقل، ولم أقل الرجل المجنون!

ثم صمت لبرهة، ومن ثم أخذ يوضح ما توصل إليه من قرار:

- سأستسلم.

ووثب أحد الشباب والذي لم يستسغ النظر بعين المصلحة:

- إنهم يقولون قولاً مهينًا!...

- وابتسم الآخر في سخرية، وقال:

- لا أعلق على تسميته. ليقل ما يقول، إن حياتي قيمة، وأموالي هي الأخرى قيمة. لا أريد أن أموت هباء.

- هل تريد أن تعيش خائناً؟

- لماذا أكون خائنا؟. إذا ما لزم الأمر، أحارب في صفوف جنكيز خان. ماذا أعطي لنا "شاه خوارزم" حتى الآن؟ لقد كسبنا بعرق جباهنا.

صار الرجل الشاب وكأنما مسه الجنون:

- ألا تخجل؟ كيف لك أن تتحدث على هذا النحو؟ لقد أعطانا شاه خوارزم كل ما نريد. ولقد ارتفع بشأن الدولة حتى أوصلها إلى القمة. إن تقصيرنا جاء من التجاهل حتى بخاطر الأم.

- إن جنگيز يفعل الشيء ذاته.

ونظر الرجل الشاب إلى الذين كانوا حواليه وكأنما يستعطفهم:

- ماذا حدث؟ قولوا تكلموا، إنكم لا تفكرون على هذا النحو، أليس كذلك؟

- ولم يجر أحد جوابًا. صمتوا. وأمنوا بخفض رؤوسهم إلى الأمام، كانوا ينظرون إلى وضعهم وأموالهم.

- ماذا يصير؟ قولوا إنكم لا تفكرون في خيانتي والغدر بي؟...

وفي النهاية رفع أحد الخانات المسنين رأسه، ونظر إلى الرجل الشاب وقال:

- ليست هنالك من وسيلة أو حيلة أخرى.

وصدقه الآخرون على الفور:

- نعم، ليست هنالك من وسيلة أخرى.

وفي هذه المرة حول الرجل الشاب عينيه إلى "طور گاى خان" وقال:

- قل، إن لم يكن هنالك، قل إنكم لن تستسلموا، قولوا إنكم سوف تقاتلون حتى آخر قطرة من دمائكم وبشكل يليق بخان...

وهز "طورگاى خان" رأسه على الجانبين، وقال:

- إن مجلس الحرب قد أصدر قراره أيها الشاب. وإذا ما قالوا إنه لم يتبق لديهم من وسيلة أخرى، فمعنى ذلك أننا مضطرون لذلك.

- أي أنكم ستستسلمون إلى العدو دون الدفاع عن المدينة؟

- لقد رأينا بأنفسنا الوضع الذي آل إليه من قاتلوا ودافعوا.

- لقد ماتوا أبطالاً.

- ماتوا وحسب.

وصار وجه الرجل أحمر قان من شدة الغضب. وسار نحو الباب وهو متثاقل متثاقل في خطواته. ثم توقف فجأة، ونظر إلى الخلف. وتفرس في وجه الموجودين بالداخل واحدًا واحدًا. وقال وكأنما يبصق:

- للأسف. إلا أنني قد وقعت في شبكة من الخيانة !

وانطلق مسرعًا. وانضم إلى مجموعة من التركمان كانوا قد قرروا الدفاع عن القلعة؛ وصاح فيهم:

- أنا معكم! أنا معكم كجندي وكرجل أصب دمائي من أجل هذا الوطن المقدس حتى آخر قطرة منه.

وتعانقوا. وأحاطوا "على أر خان" علمًا بالموقف. كان قد أصيب بجرح خفيف في كتفه، وكان مستلقيًا حينما جاء وتلاقيا بالفرح؛ وقال له:

- تعال، يا أخي. إن مشكلتنا ليست عرقية. إن بلادنا تتطلب منا الآن أن ننتدبها، ولابد من الاستعداد لذلك.

- أنا جاهز ومستعد.

- وأنا كذلك أيضًا... كلنا مستعدون.

ورفع عينيه إلى الفراغ، وقال:

- ليت أن كل سمرقند كانت على أهبة الاستعداد...

هيهات!، لم تكن كل سمرقند على أهبة الاستعداد، كان هنالك من يرى أن لا ضرورة من الدفاع عن البلاد. وبالمقابل كان هنالك من يعدون الدفاع عن البلاد والموت في سبيل إعلاء الدين الذي هو نعمة كبرى، كما كان هنالك فريق من الخائفين من الموت ويرون فيه العدم.

وغادروا القلعة خلفهم للقوات التابعة لهم معلنين أنهم سيقومون بهجوم في منتصف الليل. وذهبوا، وارتموا على قدمي "جنگيز خان"، وقالوا له:

- نحن نمثل خانات القيچاق، جئنا لنلتحق بكم من أن نقاتل بشرف إلى جانبكم، فتفضلوا بقبول عبيدكم العجزة.

وابتسم جنگيز خان ابتسامة عريضة. وبحركة غير عابئة قام بوضع قدمه على رأس "طورگاى خان"، وقال:

- طالما بقيت هذه الرأس منحنية أمامي فستظل على كتفيك. قبلتُ

وفرحوا كثيرًا. لقد حققوا الحياة لأرواحهم بشكل شنيع وفضلوه على الموت ببسالة. ومن أجل إنقاذ الروح رموا في النار بملابسهم التي كانت مخصصة لقادة خوارزم بناء على أمر من جنگيز وخرجوا من أسرها بلا أي تردد. ولبسوا زي المغول، وتسلحوا ببعض السيوف المعوجة والمقوسة. وجعلوا أنفسهم مثل المغول تمامًا من الرأس إلى أخمص القدمين، كما أنهم جدلوا شعرهم.

لقد قاموا بتغيير أمتهم في لحظة واحدة. وصاروا على الوجه الآخر تمامًا. واصطفوا في صفوف جنگيز خان لكي يشهروا سيوفهم في وجه إخوانهم.

* * *

عاد الحرفيون إلى "جنكيز خان "بالأوتار التي تصيب بعيدًا والتي كانوا قد صنعوها قبل أن يمر اليوم الثالث، وقالوا:

- ها هي، أيها القاآن الكبير. إننا في ظل هذه الأوتار سيمكننا أن نسقط في وسط سمرقند السهام المشتعلة. ولكن سهام هؤلاء لا تستطيع الوصول إلينا.

وفرح القاآن. وأمر بمكافأة الحرفيين.

وفي اليوم التالي أدار القتال بنفسه. وأمطر المدينة بالنيران من جراء السهام ذات المدى البعيد. واضطرمت النيران في العديد من الأماكن. وسعى المحاربون إلى إطفاء النيران بالنفس والنفيس.

ولكن القيچاق قد أحدثوا تأثيرًا سالبًا على المعنويات التي كانت قد ظلت على الجانب الآخر. كانت الكارثة تهب عليهم مثل الرياح من كل ناحية من صفوفهم. ولكنهم لم يكونوا يقولون شيئًا.

كان جيش المغول يقوم بإشعال النيران في كل ناحية من خلال السهام النارية بعيدة المدى؛ فكان الناس يحترقون، وكانت البيوت تحترق، كما لم تسلم الحدائق هي الأخرى من النيران.

ومرة أخرى كان المقاتلون يعملون بكل الطرق من أجل إطفاء وإخماد النيران التي اشتعلت عندهم. كانت أواني المياه تتنقل من يد إلى أخرى. وكان من الناس من نشب فيهم النيران واشتعلت فيهم كما تشتعل في الأشياء سريعة الاشتعال مثل الشجر من كثرة وشدة النيران.

وفي عدد من المرات كانوا يحاولون الخروج. ولكن المغول كانوا قد استكنوا حتى أطراف القلعة. لقد كانوا قد استولوا للتو على أطرافها، وأخذوا في إعمال السيف فيمن يصادفهم. لم يكن هنالك من طير يستطيع أن يطير لا في الداخل ولا في الخارج. كان جند المغول يغلون كقطيع من النمل أو كحشد من الرمل حتى المساء بجوار أسوار القلعة.

وعندما حل المساء، اجتمع الذين جاءوا غلى مقدمة المدينة وتحدثوا طويلا طويلاً. كانت القوات التي في القلعة آخذة في التناقص. وكلما اشتدت المقاومة كانوا يزدادون قوة. ومن الناحية الأخرى كانت المدينة غارقة في النيران من جراء تلك السهام طويلة المدى.

ولم يكن هنالك من فائدة للانتظار. كان عليهم أن يستسلموا. وفي هذه الحالة فإن الأبرياء لربما كانوا يعيقون قتلهم أو يمنعوه.

تقرر استسلام القلعة. وبكى البعض، وأخذ البعض في الصباح. ومع ذلك لم يكن يرد على عقل أحد عدم استسلام القلعة. فقط "على أر خان" هو الذي خرج ومعه مناصروه الذين كانوا يصلون في العدد إلى ألف فارس - إلى خارج القلعة سرًّا، وذلك بعد أن علموا باتخاذ هذا القرار السابق بالاستسلام وكان ذلك في منتصف الليل. وارتموا بين المغول مثل الأسود. وحتى جنكيز خان نفسه لم يسلم الدائرة في التي تحيط به مع أحد الجلادين الذي أصيب بالدهشة - من اختراق. أخذ فرسه ووجهه نحو الغابة.

وفي الصباح الباكر خرجت إحدى القوافل من سمرقند. ووصلوا إلى قصر "جنگيز خان" وأُخذوا إلى مجلسه، وأعلنوا عن رغبتهم في الاستسلام.

ونظر "جنگيز خان" إلى وجوههم وهو يزر في عينه. ثم سأل:

- لماذا تريدون الاستسلام؟

فأجابه أكبرهم سنًّا، وقال:

- من أجل أن نأمن غضبكم. ستفتح أبواب المدينة لدى أمركم بعدم التعرض لشعب المدينة بالقتل.

- ونظر "جنگيز خان" طويلا مرة أخرى. لقد كانت هنالك أشياء يجترها بينه وبين نفسه. وأخيرًا قال:

- أي إنكم تريدون أن لا يطأ سيفي رقاب شعبكم.

- نعم، أيها القا آن الكبير.

- إهدأوا، فلن يضرب سيفي شعب المدينة.

فقبلوا الأرض، وعادوا مسرورين. وأخبروا الأهالي بالبشرى المفجعة. كان بعض الناس يتأوه، وفريق منهم يبكي، والبعض الآخر يطير من الفرح، كما أسرع البعض بإخلاء مواقعه وتركوا برج القلعة خاويًا. لماذا خافوا من بطش "جنگيز خان" بهم، ولماذا اختاروا جهنم، لا أحد يعرف...

كان اليوم السادس في المحاصرة! كانت كل أبواب المدينة ستفتح. ودخل "جنكيز خان" على رأس قواته عاصمة إقليم خوارزم وهم يصيحون صيحاتهم المشهورة.

أمر "جنكيز خان" بجمع الأهالي في الميدان الكبير. وأعلن أنه سوف يقتل دون رحمة كل من تسول له نفسه بالاختفاء في المنازل. ثم جعل الناس في حشود كل منهم حشد يتكون من مائة شخص. وأخرجهم إلى ظاهر المدينة. وجعل كل منهم يقوم بحفر قنوات واسعة وأعطاهم المعاول للقيام بالحفر.

وعندما انتهت أعمال فتح القنوات، أمر أحدهم وكان شابًّا:

- ادخل القناة؛ وتمدد بكامل جسمك فيها.

ونفذ الشاب ما أمر به تمامًا. وتوجه جنكيز إلى آخر، وقال له:

- غطه بالتراب!

فبدأوا في تغطيته. وثب واحد من كبار السن من بين الصفوف، وارتمى على الأرض؛ وأخذ يصيح:

- ابني!

فسأل جنكيز خان قائلا:

- هل أنت والده؟

- نعم.

- جمـــ... يـــ... يـــ... ل! أنت على كل حال تحب ولدك.

- أكثر من روحي.

- وهل تحب بلادك أيضًا؟

- أحبها.

وفجأة زمجر "جنكيز خان":

- لو كنت تحبها فما هذا الذي يحدث! ابنك حينما يدفن في قبره تقفز من مكانك، وبلدك حينما تقبر لماذا كنت تتفرج عليها من بعيد؟

ماذا كان سيقول ردًا على هذا؟ لم يتمكن الرجل المسن من أن يقول شيئًا وابتسم "جنكيز خان" ابتسامة باهتة، وقال:

- خذ بيدك هذا الجاروف أيها الرجل المسن ولسوف تقبر ابنك بنفسك... وأخذ الرجل يبكي حتى أن الدموع كانت تنهمر على لحيته، وأخذ يهيل التراب على نفسه.

- العفو أيها القا آن الكبير.

- أسرع!

- أيها القا آن الكبير!

ثم ارتفع سوط نهايته مصنوعة من الرصاص، ومن ثم نزل عليه. وتمزقت ثياب الرجل. كما امتلأ ظهره بالتقيحات. وكان ينزف دمًا.

- أسرع!...

وأجاب الرجل المسن والذي لم يطع الأمر:

- لا أفعل ذلك. إنك كنت قد وعدت بأن لا تضربنا بسيوفك.

ودوت ضحكة هستيرية ارتعدت لها حتى أوراق النخيل التي تجعدت من شدة حرارة شمس الظهيرة. ثم أعقبها صوت "جنكيز خان "الذي قال:

- نعم لقد كنت قد وعدت بأن لا أضربكم بسيوفي. وأنا على كلمتي. فلن يضرب ولو شخص واحد بالسيف.

- وأشار بإصبعه إلى الآبار المفتوحة:

- سوف تدفنون جميعًا هاهنا وأنتم أحياء.

وارتفع الصياح والنواح. وتوزعت الأنات على الأرض نقطة نقطة. وتكومت الأجساد على الأجساد. لقد دفن الأب ابنه كما دفن الابن أبيه.

***

ويقولون إنه إلى الآن تُسمع أصوات النحيب والعويل في ذاك المكان. والذين هم قريبون من الله عز وجل يسمعون تلك الأنات، وتقشعر لها أبدانهم.

كانت عاقبة القپچاق مفجعة!لقد تم صدور الأوامر بإقامة الخيام في مكان عام خارج المدينة، وتم جمعهم فيها. ومن ثم قامت فرقة

عسكرية مغولية بالهجوم عليهم. وتم إعمال السيف في القپچاق جميعًا شبابهم وشيوخهم، لم ينج منهم أحد.

وكان من بين هؤلاء أيضًا "طور گاى خان" خال شاه خوارزم "علاء الدين محمد"...

لقد عوقب الخونة، كما عوقب الغافلون أيضًا. ولكن "سمرقند" لم تعد عاصمة للخوارزميين مرة أخرى.

ولقد كتب الشاعر فيها متألمًا:

تقول بخارى، وتقول سمرقند "إنني أبكي".

فأين هي جبالي في "أورال" وأين هي جبالي في "الطاى"!

-(نهاية الكتاب الأول)-

المؤلف فى سطور:

ياووز بهادر أوغلو

اسمه الحقيقى (نيازى برنجى) Niyazi Birinci، أما (ياوز بهادر أوغلى) Yavuz Bahadiroglu فهو الاسم المستعار الذى نشر به العديد من مؤلفاته، بالإضافة إلى عدد آخر من الأسماء المستعارة التى نشر بها أعمالاً أخرى، رغبة منه فى إخفاء شخصيته حتى لا تلاحقه السلطات – فى الماضى – بسبب آرائه التى تميل إلى تغليب الوازع الدينى فى أعماله.

ولد عام ١٩٤٥م فى قرية (حصارلى) Hisarli التابعة لقضاء (ريزه) Rize فى الأناضول والذى يطلق عليه أيضا (بازار) Pazar. بدأ فى تأليف القصص والحكايات وهو فى مرحلة التعليم الإعدادى، والتحق بصحيفة (استانبول) عام ١٩٧١، وكتب لها ولغيرها من الصحف والمجلات دراسات وتحليلات وتحقيقات صحفية.

له أكثر من ثلاثين رواية، وأكثر من مائة قصة وكتاب للأطفال. وله أيضا عدد كبير من القصص والمسرحيات والسير الذاتية لمشاهير السلاطين الأتراك.

دعى وشارك بأبحاث فيما يزيد عن مؤتمر وندوة داخل تركيا وخارجها، كما حصل على العديد من الجوائز فى التأليف من تركيا

ومن بلاد أخرى. كذلك أذاعت له الإضاعة التركية عددا كبيرا من التمثيليات. أما المقالات والخطايات والتعليقات والتحليلات التى نشرها فى وسائل الإعلام التركية فلا يمكن حصرها بسهولة. والكثير من رواياته توزيع وتدرس على طلبة المدارس فى تركيا.

المترجم فى سطور:

عبد العزيز محمد عوض الله

- ولد فى قرية مجول مركز بنها محافظة القليوبية – ج.م.ع. ٧/ ٥/ ١٩٥٣م.
- حصل على درجة الليسانس من كلية الآداب – جامعة عين شمس – قسم اللغات الشرقية/ فرع اللغة التركية، عام ١٩٧٥م والأول على الدفعة، والماجستير (١٩٨١) والدكتوراه (١٩٨٥) وموضوعهما فى الأدب الإسلامى المقارن.
- عمل بالإذاعة (مذيع / محرر/ مترجم) من عام ١٩٧٥م، وأثناء ذلك مترجمًا بالجمارك السعودية (١٩٨٦ – ١٩٨٨).
- التحق بجامعة الأزهر كمدرس (لغويات تركية) عام ١٩٨٩، واستاذ مساعد عام ١٩٩٤، واستاذ اللغة التركية ولآدابها من ١/ ٣/ ٢٠٠٠م.
- رئيس قسم اللغة التركية وآدابها بكلية الدراسات الإنسانية – جامعة الأزهر بالقاهرة فى ١٩٩٦م، ووكيل الكلية ٢٠٠٤ – ٢٠٠٦م، وعضو محكم فى لجنة ترقية الأساتذة والأساتذة المساعدين فى تخصص اللغة التركية وآدابها.

- له عدد كبير من البحوث والدراسات فى اللغة التركية وآدابها بالعربية والتركية، منها: ثورة الحروف فى اللغة التركية (١٩٩٠)، الطرفة بين العربية والتركية: دراسة مقارنة (بالتركية) (١٩٩١)، ظاهرة كتابة الشعر بلغة غير قومية فى الأدب الإسلامى (بالتركية) (١٩٩٤)، تفسير القرآن الكريم عند الترك وموقفهم من الإسرائيليات (١٩٩٧)، ترجمات "الأربعون حديثًا" فى اللغة التركية (١٩٩٨)، التركمان بي الماضى والحاضى (ترجمة ودراسة (٢٠٠١)، الحياة الحزينة فى تركيا الحديثة (٢٠٠٢)، حزب العدالة والتنمية، وتطور الإسلام السياسى فى تركيا (٢٠٠٣)، القدس فى الشعر التركى – قصائد من وحى الانتفاضة (ترجمة وتقديم) (٢٠٠٥)، ملامح النظام السياسى فى جمهورية تركيا (٢٠٠٧)، الشعر التركى الحديث والمعاصر "عصر الجمهورية" (٢٠٠٩)...

يتضمن هذا الكتاب ترجمة لرواية تاريخية للكتاب التركى المعاصر ياووز بهادر أوغلو (نيازى برنجى). وتتناول الفترة التى هجم فيها المغول على مدينة بخارى التاريخية (616هـ/1220م)، وأحرقوها وقتلوا أهلها، وهرب سلطانها "علاء الدين خوارزمشاه" بعائلته يهيم على وجهه، حتى مات غريبًا شريدًا فى جزيرة نائية.

وهنا تذكرنا هذه الرواية برائعة أديبنا العربى الكبير على أحمد باكثير "وا إسلاماه"، التى تتناول الفترة التاريخية التالية لأحداث هذه الرواية، وتتناول أحفاد هذا السلطان، الذين تجسدوا فى شخصية البطلين (محمود) و (جهاد) بعد أن تم تهريبهما إلى مصر، ومن ثم دورهما فى معركة (عين جالوت) الشهيرة.

والكاتب التركى يضع أعماله متمثلاً خطأ مقولة "التاريخ يكرر نفسه"، ويشدد على أنه يجب ألا تسود فى العالم الإسلامى، لأننا إذا ما أخذنا العبر من أحداث التاريخ فلن نقع فى الأخطاء نفسها التى وقع فيها أجدادنا، وبهذا لن يكرر التاريخ نفسه.

تصميم الغلاف: نجلاء فتحى